شعراء أعلام

أبو القاسم الشابّي

حياته وشعره

يوسف عطا الطريفي



الأهلية

أبو القاسم الشابّي

حياته وشعره

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنية الهاشمية ، عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين، بجانب مطعم القدس - بناية رقم 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب البنك المركزيّ ، مكتب المقاصة - بناية رقم 34

مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

أبو القاسم الشابّي

حياته وشعره

إعداد: يوسف عطا الطريفي

الطبعة الأولى ، 2009

◆

الغلاف : علي الحسيني 99782270 7 00962 ، عمّان ، الأردن

الصف الضوئي : إيمان زكريا - 079/5349156

أبو القاسم الشابّي

حياته وشعره

يوسف عطا الطريفي

مقدمة

عندما شرعت بالكتابة عن أبي القاسم الشابي، كنت أعرف، أن عدداً من الكُتّاب والمؤلفين والباحثين كتبوا عنه، وبجدية عالية، ولكنني عندما راجعت هذه المؤلفات وتمعنت فيها وجدت أن كل واحد تخصص في جانب معين، فبحث فيه واستقصاه قدر استطاعته وإمكانياته، ورأيت حينها أن القارئ بحاجة إلى كتاب يجمع بين دفتيه جوانب متعددة من حياة أبي القاسم وبيئته وشعره والمجتمع الذي عاش فيه، والدراسات التي أجريت حوله والتعرف على آثاره.

لم يعش أبو القاسم الشابي طويلاً، لكنه ترك آثاراً عظيمة من النثر والشعر، فهو أحد الشعراء الثلاثة الذين قضوا قبل الثلاثين، فكان طرفة بن العبد أولهم ثم أبو فراس ثانيهم. وكان آخرهم أبا القاسم الشابي الذي مات عن خمس وعشرين سنة، وقد فاق غيره، حين أبدع وحلق في نزعته الرومانطيقية ربما بحكم سنّه أو بحكم شاعريته، أو بحكم عصره. وقد سار في إبداعه مع طبيعة الشباب المندفع فأصغى إلى قلبه ووجدانه، وعبر عن بيئته وعصره أجمل تعبير.

ورغم قصر مدة حياته، فقد حفل أدبه بألوان من التجارب لم تتح لغيره فأثار النفوس إلى أدبه، سواءً كانت هذه النفوس معه في فلسفته أو كانت ناقدة له، صور من خلال نظرته الأدبية مجتمعه فكان كالآسي يعالج ما أفسد الدهر عليه من حياته، بعد أن اجتمعت في شخصيته صفات الفنان الثائر المتمرد الذي عرف الداء، فقدم الدواء بما أمكنه في حياته القصيرة ووسط بيئة جميلة أخاذة.

فقريته «توزر» أو منطقة الجريد والنخيل، تلفت الأنظار وتستهوي الأفئدة وعاصمة بلاده تونس الخضراء، على ساحل البحر، والقطر التونسي بمجمله كان مقصد

الرحالة والأدباء ومضرب المثل، وصفه القزويني في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد»، وقد أفاض في وصف هوائها وطيب مائها وكثرة خيراتها، وعدد ثمارها، كما وصف شطئانها وأنواع الأسماك فيها ومنه سمك «البقونس» الذي يضرب فيه المثل بقولهم «لولا البقونس لم تخالف أهل تونس...» كما ركز على شجرة الزيتون فيها، ثم عدد واحات تونس وما فيها من خيرات عميمة وقال: «ومياهها ريَّة وفيرة، ترد من ينابيع سائغة يعمل بها فلاحون يسمون بـ«المخمسين» لأنهم حينذاك كانوا يأخذون خمس الإنتاج».

وتاريخ تونس مثله مثل غيره من البلاد العربية من المحيط إلى الخليج، قد أصابه ما أصاب الجسد الكبير من وقوعه تحت الاحتلال أو الاستعمار أو الانتداب من قِبَل العالم الغربي. فقد احتلت فرنسا تونس عام 1881، ورزحت تحت هذا الاحتلال ردحاً من الزمن، وتعاقب عليه «البايات» فزادوا الظلم على الشعب الذي كان يعاني من ظلم واضطهاد المحتل، حتى أعلن استقلال البلاد سنة 1956، وأعلنت الجمهورية وطرد المحتل وخلع آخر «البايات» بعد تلك السيطرة على مقدرات تونس واقتصادها وثقافتها وعلى فكر أبنائها.

وفي هذا الجو المؤلم، ووسط الفساد المستشري، وبين أحضان تلك الطبيعة الخلابة، وتلك المقدرات الكبيرة، وُلد أبو القاسم الشابي حيث بدأت ملامح الشفق تظهر وبزوغ الفجر الجديد يسطع، بتوالد الأفكار الثورية والتحررية لتصنع تونس مستقبلاً زاهراً، يربط الناس بحياة عصرية بعيدة عن الجمود والبدع والخرافات التي سادت فترة الاحتلال. وكان لجامع الزيتونة أثره الكبير والعظيم في إحياء الفكر والتجديد والكفاح لتجسيد روح الحضارة ونفض غبار الظلمة والفساد. فظهرت جمعيات فكرية وأدبية، كان من أهمها «جمعية قدماء الصادقية» وهي جمعية تضم الشبان من خريجي الزيتونة، وكان الشابي واحداً من أعضائها الفاعلين، فألقى المحاضرات والندوات وأبدى رأيه بصراحة ليكون عاملاً قوياً مؤثراً ليوقظ شعبه ومجتمعه من غفلتهم. كما نظم الأشعار ليعبر عما في صدره من شكوى وألم وقدم الحكمة ووصف الطبيعة ووحد بينها وبين الإنسان ليصل بفلسفته إلى عقل مجتمعه ووجدانه.

ولعلني قصدت من هذا الكتاب توضيح جوانب حياة الشاعر أبي القاسم الشابي ودراسته وثقافته ونشأته ورحلاته مع والده في أرجاء تونس ثم مرضه إلى أن وصلت إلى

وفاته، وخلال ذلك بينت المؤثرات في حياته وشخصيته، كما عرجت على فنونه وأغراضه وإلى الصورة الفنية في شعره وفلسفته في حياته، ثم وضحت مذهبه الأدبي، وشاعريته وبينت خصائصه الفنية. ووضعت في الكتاب شرحاً لبعض قصائده لتكون نماذج على فكره وفلسفته.

ثم بينت علاقته مع غيره من أقرانه وأهل عصره من الشعراء والأدباء، ولزيادة الفائدة فقد أثبتت بعض الدراسات الأدبية والمجالات النقدية التي ألفت عنه، وفي نهاية الكتاب أثبت ما استطعت جمعه من أشعاره ورتبتها حسب الترتيب الزمني لنظمها.

وقد اعتمدت في كتابي هذا مراجع متنوعة ومتعددة، لكنني لم أتطرق إلى نثره، لأن عنوان الكتاب خاص بحياته وشعره، مع أنني أوضحت رأيه في مسامرته عن الخيال الشعري عند العرب وما دار حولها من آراء. راجياً أن أكون قد وفقت لما خططت له من إحياء شعر أبي القاسم الشابي، ومعتذراً إذا تبين فيه نقص، داعياً المولى عز وجل أن يكون في هذا الكتاب الفائدة المرجوة والمؤملة للدارسين والباحثين، وأن يكون الكتاب علماً نافعاً، والله ولي التوفيق.

يوسف عطا الطريفي

11 رمضان 1429هـ/ 11 أيلول 2008م

القسم الأول

حياة الشاعر

حياة الشاعر

في قرية الشابية، إحدى ضواحي توزر كبرى بلاد الجريد بالجنوب التونسي، حيث المناظر الخلابة والبلاد الجميلة، وبساتين البرتقال الفواحة ووسط الواحات الشاسعة والمياه الوفيرة والطبيعة الهادئة الحالمة بالآمال العريضة. ولد أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن إبراهيم الشابي في شهر آذار (مارس) سنة 1909[1] من أسرة عريقة ذات مجد عرفت في التاريخ التونسي منذ القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة.

وُلد هذا الشاعر بِكْر أبيه الشيخ محمد بن بلقاسم، والذي تخرج من الأزهر وأقام في مصر أوائل القرن العشرين سبع سنوات ثم عاد إلى تونس ليدرس في جامع الزيتونة حتى حاز على «التطويع»[2] وهي شهادة نهاية تحصيله العلمي، ليسمى بعد ذلك قاضياً شرعياً بعد سنة من ولادة ابنه البكر أبي القاسم، حيث استوجبه عمله التنقل بين أماكن متعددة، مصطحباً معه ولده الذي أتيح له التعرف على طبيعة تونس الجميلة وعلى طبائع مختلفة للناس في تونس.

وهكذا بدأت رحلة أبي القاسم مع العلم والمعرفة منذ نعومة أظفاره، فلم ينشأ في مسقط رأسه، وإنما نشأ خارج الشابية، حين ألحقه والده بالمدارس التقليدية «الكُتّاب» وهو في الخامسة من عمره، وقد حرص على تحفيظه القرآن الكريم، ولعل حرصه هذا بأمل أن يكون ولده البكر رجل دين مثله، فأتم حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وفي عام 1920 حين كان في بداية الثانية عشرة من عمره أدخله والده إلى جامع الزيتونة بتونس ليكمل دراسة العلوم الدينية واللغوية فأمضى فيه ما يقارب تسع سنين ليتخرج عام 1928 وقد حاز على شهادة «التطويع» مثل والده، وكانت هذه الشهادة من أرفع الشهادات في ذلك الحين. وربما كانت هذه الرحلة في تونس ودراسته في جامع الزيتونة

---

(1) هذه كانت أقرب الآراء للتاريخ المرجح لمولده. فقد ذهب الكاتب الجزائري ابن أبي شنب إلى أنه وُلد سنة 1910، وجاء في الأعلام للزركلي أنه وُلد عام 1906 ثم صحح في الحاشية أنه وُلد عام 1909 وذهب آخرون أنه وُلد عام 1908 أما صديق الشاعر المحقق المشهور الأستاذ محمد الصالح المهيدي فقال أنه في 3 صفر 1327هـ/ 25-2-1909. أما أبو القاسم محمد كرّو فيقول إن أسرة الشابي أخبرته بأنه قد يكون حوالي عام 1327هجري والموافق 3/ 4/ 1909.

(2) إجازة نهاية الدراسة بكلية الزيتونة في عصره.

من المحطات الهامة في حياة الشابي التي تعتبر نقطة تحول هامة في حياته، حيث تم له التعليم العصري ثم الانطلاق والحرية في الاطلاع على النشاطات الأدبية دون قيود أو رقابة. وجد الشابي في نفسه ميلاً إلى الأدب بما يتناسب مع ميوله وأحاسيسه وشعوره، فلم يتجه إلى العمل في القضاء، وإنما اتجه إلى كتب المهجريين كجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي، فتناولها بنهم شديد وتأثر بها كثيراً وهذا ما سوف نلمسه جلياً في شعره، ثم اطلع على ما وقع بين يديه من كتب قديمة مما يعتبر من أمهات الكتب كالأغاني، وصبح الأعشى، ونفح الطيب، والكامل، والأمالي، والعمدة، والمثل السائر، وكتاب الصناعتين وغيرها من النفائس القديمة، كما اطلع على ما طبع من الدواوين قديمها وحديثها.

ثم قرأ ما ترجم من اللغات الأجنبية لأنه كان يجهلها، وقد أعجب بكتب «لامارتين» و«جوتة» كإعجابه بالمعري وابن الفارض، إضافة إلى قراءاته لما كان يصدر من مجلات عربية كالهلال والمقتطف وغيرها.

ومن الجدير بالذكر أن أبا القاسم قد التحق بعد تخرجه من جامع الزيتونة عام 1928 بمدرسة الحقوق التونسية، فتخرج سنة 1930. وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من دراسته أبدى نشاطاً أدبياً واجتماعياً كبيراً، تمثل في ترأسه حركة طلابية تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم بما يتناسب وروحه الوطنية كما أسس جمعية «الشبان المسلمين» وساهم في تأسيس «النادي الأدبي» بتونس العاصمة و«نادي الطلاب» بتوزر، فكان عضواً فعالاً في أعمالها.

مؤثرات في حياته

ظهر نبوغ الشابي مبكراً، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع سنين وظهر ميله للأدب والشعر في لحظات مبكرة فكانت قصيدته الأولى وهو في سن الرابعة عشرة، حين نظم قصيدة (يا حب) عام 1923، وكانت أول نشراته في صفحة «النهضة» الأدبية عام 1926. ثم ظهر شعره في السنة التالية. ولكن إذا سرّه الدهر يوماً، فقد كدره القدر أياماً، فكانت فاجعته الأولى بموت حبيبته في أول شبابه، قبل أن يبلغ العشرين من عمره، فأذكى موتها في نفسه الأسى والنقمة من حوادث الدهر، وظل يذكر هذا الحب مدة طويلة، حتى حمل نفسه على نسيانه. ويرى «زين العابدين السنوسي» أن حبه لهذه الفتاة

كان حباً عذرياً، قبل أن يأتي إلى تونس العاصمة، فخلفت له بوفاتها حزناً شديداً ومرضاً أنطقه شعراً كثيراً، كما علق «محمد الحليوي» على هذا الحب المبكر، ومن ضمن ما قاله: «أن هاته الفتاة هي التي تحدث عنها في أوائل شعره حديثاً ساذجاً ونظم فيها أولى قصائده.. ومن المؤكد عندي أن الشابي لم تكن له حياة قلبية غير تلك الفتاة التي أحبها وهو في سن الخامسة عشرة»[1].

وربما كانت هذه الفتاة هي التي كان يلقاها ويتفسح معها في بعض المتنزهات، حيث يقول فيها:

أيهـــا الحـــب أنـــت سر بلائـــي وهمـــومي وروعتـــي وعنـــائي
ونحـــولي وأدمعـــي وعـــذابي وســـقامي ولـــوعتي وشـــقائي

وستجد القصيدة كاملة بين أشعاره في نهاية الكتاب.

كان الموت من أهم تجارب الشابي في حياته، ففي بواكيره فجعه حين نفذ إليه بحبيبته التي ماتت وهي برعم لم يتفتح بعد على الحياة، ماتت وهو يشتاق إلى التمتع بظلها، فتفجرت في حناياه بواعث الموت، وانطوى قلبه أسىً عليها، فخلف عنده الفراغ والظلام والاكتئاب، وليست هذه تجربة سهلة في حياة الشابي، فهو ما زال يافعاً حساساً وقلبه مفعم بالطموحات لمستقبل كان يأمل أن يعيش ليراه، وما أظن هذه التجربة إلا كمثل تجربة الشاعر محمد مهدي الجواهري، عندما أحب وهو صغير فتاته حين نزل أهله على أطراف الكوفة مصطافين، أو كتجربة إبراهيم طوقان حين أحب فتاة «كفر كنا» وإن كان أكبر سناً، أو تجربة السياب، فهي تجارب يمر بها الشاب أو اليافع ولكن لها أثر كبير في نفسية الشاعر أكثر من غيره، ولذلك طفق الشابي يتبرم لهذه الثنائية فقال:

بـــالأمس قـــد كانـــت حيـــاتي كالـــسماء الباســـمة
واليـــوم قـــد أمـــست كـــأعماق الكهـــوف الواجمـــة
قـــد كـــان لي مـــا بـــين أحلامـــي الجميلـــة جـــدول
يجـــري بهـــا مـــاء المحبـــة طـــاهراً بتسلـــسل
هـــو جـــدول قـــد فجـــرت ينبوعـــه في مهجتـــي

(1) الشابي شاعر الحب والحياة، عمر فروخ، ص96.

أجفـــان فاتنـــة ارتئيهـــا الحيـــاة لـــشقوتي
أجفـــان فاتنـــة تـــراءت لي عـــلى فجـــر الـــشباب
كعروســة مــن غانيــات الــشعر في شــفق الــسحاب
ثــم اختفــت خلــف الــسحاب وراء هاتيــك الغيــوم
حيــث العــذارى الخالــدات يمــسن مــا بــين النجــوم
ثـــم اختفـــت آواه ! طـــائرة بأجنحـــة المنـــون
نحـــو الـــسماء وهـــا أنـــا في الأرض تمثـــال الـــشجون

ولو لم تكن هذه الأبيات أمامنا لقلنا بأن الشاعر الفتى يفكر بصوت مسموع أو يحلم أحلام يقظة يحدث نفسه عن فتاته التي عشقها وأحبها لكنها كانت محنة اضطر أهله أن يزوجوه علّه ينسى أو ينشغل عن حبه الذي أورثه أول حزن في حياته. ومع ذلك فقد قبل هذا الزواج وفي سن مبكرة على عادة أهل جنوب تونس الذين كانوا يرغبون بتزويج أبنائهم صغاراً، أو لنقل هكذا كان تفكير والده الشيخ ليبقى نسله على الأرض أو لعل الابن البكر يسلو آلامه وعذاباته.

ثم جاءت الرزيّة الثانية، قبل أن تستريح نفسه من العناء الأول بفقد أبيه، وتتحول تبعات العائلة على عاتقه ويصبح مسؤولاً عن أسرة وهو ما زال في سن مبكرة. فاعتلّت صحته وانتفخ قلبه، وصار ينتقل من طبيب إلى آخر، ولكن عبثاً.

مرض الشابي

كان مرض الشابي يشكل أكبر مأساة له، ويبدو أنه كان يعلم بمرضه لكن أعراض الداء لم تظهر واضحة إلا عام 1929، فكان منذ بداية عمره عليلاً ضعيف البنية نحيلاً، لكن علّته لم تظهر آثارها إلا في السنوات الست الأخيرة من حياته، تلك التي كانت ذروة إنتاجه الأدبي.

وعندما عرض عليه والده الزواج لم يجد بدّاً من مراجعة الطبيب واستشارته فذهب بصحبة صديقه زين العابدين السنوسي إلى الدكتور محمود الماطري فوصف الطبيب له حقيقة مرضه، وحذّره من عواقب الإجهاد الفكري والبدني، حيث كان الشابي يشكو من انتفاخ في قلبه، وكانت حالة الشابي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، بسبب تقادم المرض عليه، وضعف بنيته، ثم بسبب تقلب أحوال حياته. أضف إلى ذلك إهماله لنصائح الأطباء

باستثناء ترك النشاطات البدنية كالجري والقفز وتسلق الجبال وهذا ما صرح به الشابي نفسه في إحدى يومياته 1930 حين كان يعبر بعض الضواحي: «ها هنا صبية يلعبون بين الحقول، وهناك طائفة من الشباب الزيتوني والمدرسي يرتاضون في الهواء الطلق والسهل الجميل ومن لي بأن أكون مثلهم؟ ولكن أنّى لي ذلك، والطبيب «يحذّر» علي ذلك لأن بقلبي ضعفاً ! آه ! يا قلبي ! أنت مبعث آلامي ومستودع أحزاني، وأنت ظلمة الأسى التي تطغى على حياتي المعنوية والخارجية»[1]. وهذا القول من الشابي يعني أنه كان على علم بمرض قلبه وكان يتألم من ذلك كثيراً. ثم وصف الدكتور محمد فريد غازي مرض الشابي فقال: «إن صدقنا أطباؤه، قلنا إن الشابي كان يألم من ضيق الأذينة القلبية أي أن دوران دمه الرئوي لم يكن كافياً... ولعل الشابي أصيب بهذا الضيق وهو صغير السن، ضاق قلبه، وضاقت رئته، فلم يعد يتنفس تنفساً عادياً» وهذا أيضاً ردّ على من تخيل أن مرض الشابي كان «مرض السل» أو قال إنه كان مصدوراً. وقد شعر الشابي بآثار المرض حين وضح في يومياته ذلك بقوله: «أشعر اليوم - 14/ 1/ 1930 - بفتور في بدني، وتوعّك في مزاجي لا أدري مأتاه»[2].

لقد أشرف على علاج الشابي عدد من الأطباء وكان منهم الطبيب التونسي الدكتور محمود الماطري الذي ذكرناه سابقاً والطبيب الفرنسي الدكتور «كالو» ولمدة طويلة وأثبتت سيرته المرضية عندهما، وكان إجماع الأطباء له العيش في مناطق معتدلة ومناطق جبلية، ولذلك وجد نفسه مضطراً إلى التنقل بين مصايف تونس ومشاتيها، وقد ذكر محمد الأمين الشابي شقيق الشاعر أن أخاه لم يكن يغادر توزر بعد زواجه واشتداد أعراض مرضه إلا في الصيف لزيارة المصايف الجبلية. ونقل أيضاً صديقه زين العابدين السنوسي عن محمد الأمين الشابي أن نوبة أصابت أبا القاسم في عام 1930 فقال «كان يعتلج من ضائقة صدرية من ذات القلب فزعت لها أمه وزوجه وأخواه عندما كان أبو القاسم (يخزر) [3] لهم بعينين لا ترجوان معونة من أحد، إلا من قلبه لو استعاد اتزانه... نوبة دامت ساعتين يقلّب في أثنائها وجهه ولا ينبس إلا بقطرات من العرق... ونحن نشرئب لنغيثه بشيء يطلبه، ولا ندري ما هو، ساعتين من هذا الفزع الجهيد تقريباً... ثم هجعت النوبة ... ثم

(1) الشابي، شاعر الحب والحياة، د. عمر فروخ.

(2) مذكرات الشابي، 55.

(3) يفتح عينه ويغمضها بشكل كأنه يرى بمؤخرة عينه.

تكلم منشرحاً صوته انشراح من حطّ وزره، ونزع الحمل الجهيد وبادرنا للاستجابة لأمره مغتبطين.

– أعطني ورقاً، والقلم من جيب فرملتي[1]، فأخذ يكتب حالاً أذكرها الآن:

يـــا إلـــه الوجـــود، هـــذي جـــراحٌ في فـؤادي تـشكو إليـك الـدواهي»[2]

قضى الشابي صيف عام 1932 في (عين دراهم) مستشفياً برفقة أخيه محمد الأمين ويبدو أنه زار آنذاك بلدة طبرقة برغم ما كان يعانيه من آلام، وبعد عام، اصطاف في المشروحة إحدى ضواحي قسنطينة من أرض الجزائر، ومع حلول الخريف عاد إلى توزر لقضاء الشتاء فيها. وقد كانت تنقلاته كثيرة فمن بلاد الجريد إلى زغوان، ومن عين دراهم إلى المشروحة، واستمر في ذلك ثلاث سنوات يعيش بين أشجار تونس وأنهارها، «يتغنى مع الأطيار بحبه ويناجي النجوم بأمانيه، ويحنو على الورود والأزهار، ويطرب لخرير المياه وحفيف الأغصان، وفي هذه الفترة أخرج الشابي أجمل قصائده الخالدة في وصف الطبيعة والجمال، وسحر الوجود وحب الحياة»[3].

ورغم هذا التنقل بين هذه الأشجار وتلك الأنهار، فقد ساءت حاله واشتدت آلامه وخاصة في أواخر عام 1933، فاضطر إلى ملازمة الفراش حتى مرّ الشتاء ببرده، وحلّ الربيع بزهره، فانتقل إلى (حامة توزر) وهو مكان فيه ماء حار يستشفي به المرضى، طالباً الراحة والشفاء.

وفي شهر آب عام 1934 غادر الشابي توزر إلى العاصمة، وزار خلال إقامته في أحد أماكن الاستجمام شرق المدينة (حمام الأنف) ثم نصحه الأطباء بالانتقال إلى (أريانا) وهي ضاحية تقع على نحو خمس كيلومترات إلى الشمال الشرقي من العاصمة وهي موصوفة بجفاف الهواء، ولكن حال الشابي ما زالت تزيد سوءاً، وقد وصف محمد الفاضل بن عاشور ما آلت إليه صحة الشابي فقال: «وتداعى كيانه الجسمي بطول الاحتباس، واستفحال الألم الباطني، فإذا جراثيم السلّ تهجم فتستقر بكلتا رئتيه، وإذا شبح الموت

(1) الفرملة: صدرة أو ثوب يلبس على القسم الأعلى من الجسم، وفي تونس يلبسونه تحت الجبة.
(2) الشابي، شاعر الحب والحياة، د. عمر فروخ.
(3) الشابي، أبو القاسم محمد كرّو.

منتصب أمامه» والحقيقة وإن قالها السيد محمد فاضل فلم أعثر على «جراثيم السل» في موضع آخر، وقد سقنا ما قاله الطبيب المعالج بأنه كان مريضاً بانتفاخ القلب وهو الأرجح.

ومع أن الشابي قد أنهكه المرض وأعياه السقم، فقد استمر في إرهاق نفسه، فاشتد به الداء، ونال من العذاب والشقاء أكثر من أي وقت مضى، فأمطر البشرية بسيل جارف من تبرمه وسخطه، حتى بدأ يناشد الموت أن يريحه من هذا الشقاء وطلع علينا بقصائده: «في ظل وادي الموت»، و«زوبعة في الظلام»، و«الجنة الضائعة»، و«قال قلبي للإله»، وغيرها من القصائد، كما عزف «أغاني الرعاة» و«إرادة الحياة» و«قلب الأم»، و«أراك» بهذه القصائد وغيرها، سكب الشاعر فيها عصارة روحه، وعزف للإنسانية على أوتار قلبه المكلوم أشد الألحان وأمرّها. ولكن هل ترد هذه القصائد وتلك المعزوفات قضاءه النافذ أو قدره العاتي؟ لقد نقل بعد هذه الآلام إلى المستشفى الإيطالي بالعاصمة تونس في التاسع من أكتوبر (تشرين الأول) من عام 1934، في الساعة الرابعة من صباح يوم الاثنين لليوم الأول من رجب سنة 1353هـ لتذوب أنفاس الشاعر الأخيرة، وتتلاشى أنغام الحب والجمال، وتغيب ألحان السحر والخيال، وتصعد روح الشاعر إلى عالم البقاء والخلود، ثم ينقل جثمانه في أصيل ذلك اليوم إلى توزر، إلى مسقط رأسه ويدفن ببلدة «الشابية» في مقبرة أسلافه.

تألفت بعد ذلك لجنة أقامت على قبر الشابي بناءً لائقاً به، أقيمت حوله روضة صغيرة، واحتفل الأدباء والشعراء حول الضريح يوم الجمعة السابع عشر من شهر أيار عام ألف وتسعمآية وستة وأربعين، وقد تسابق المحتفون بتمجيد مآثره وذكر مزاياه مقدرين شاعريته ونبوغه. هذا وقد أثبت الدكتور عمر فروخ إحصائية في بعض جوانب تكريم الشاعر بعد موته وعدّدها ومنها:

- حفلة الأربعين في تونس الحاضرة في 13/ 11/ 1934.
- عدد خاص من مجلة «العالم العربي» لزين العابدين السنوسي، هو العدد الرابع الصادر في 24/ 12/ 1934، وكان خاصاً بما ألقي في حفلة الأربعين.
- حفلة للذكرى الثالثة أقامتها الرابطة القلمية في تونس.
- عدد خاص من مجلة الأفكار التونسية، 1936.
- عدد خاص من مجلة الإمام (الإسكندرية 1936).

- عدد خاص من مجلة المكشوف ببيروت بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاته.
- عدد خاص من مجلة الأسبوع (تونس) خاص بالذكرى الثامنة عشرة.
- عدد خاص من مجلة الندوة (تونس) خاص بالذكرى التاسعة عشرة.
- عدد خاص من مجلة الزيتونة (تونس) خاص بالذكرى العشرين.
- عدد من المقالات في مجلة الفكر (تونس) 1956.
- إصدار الأستاذ زين العابدين السنوسي كتاباً اسمه «أبو القاسم الشابي - حياته - أدبه» بمناسبة مرور ثلث قرن على وفاته 1965.
- إحياء ذكرى ولادة الشابي 1959 بإقامة مهرجان في تونس.
- إلقاء الأستاذ الشاذلي بو يحيى 1959 محاضرة في جمعية قدماء الصادقية بعنوان «أبو القاسم الشابي والشاعرية الحق».
- محاضرة للأستاذ الشاعر مصطفى البحري في 12/12/1959 بعنوان «الشعر في شعر الشابي».
- إصدار مجلة الفكر بتونس عدداً من المقالات عن الشابي سمته «أضواء على أبي القاسم الشابي بمناسبة مرور خمسين سنة على ولادته» كانون الأول 1959.

بيئة الشاعر

الشيخ محمد الشابي والد أبي القاسم هو عميد أسرة الشابية في تونس، وقد كان لعائلة الشابي مكانة مرموقة، ذات مجد لامع في تاريخ تونس العلمي والسياسي، وخاصة في منطقة الجريد جنوب غرب تونس، التي اشتهر أهلها بالذكاء والفطنة والإقبال على العلوم والمعارف بشتى أنواعها.

وُلد الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي والد الشاعر نحو عام 1296هـ 1879 ميلادي، وبعد أن أتم تحصيله العلمي المتاح في مسقط رأسه هاجر إلى مصر سنة 1901 ليكمل دراسته في الأزهر الشريف، حيث بقي فيه سبعة أعوام ينهل من علومه، وتشرّب مبادئ الإصلاح على يد الإمام محمد عبده. وتأثر بأفكار الشيخ جمال الدين الأفغاني. ثم عاد إلى تونس عام 1326هـ/ 1908م وانتسب إلى كلية الزيتونة لمدة سنتين حيث نال جائزة «التطويع» وأثناء دراسته في الزيتونة، تزوج الشيخ وأنجب ابنه البكر أبا القاسم أثناء دراسته في سنة 1909، تخرج بعدها من جامع الزيتونة، وعيّن قاضياً شرعياً ببلدة (سليانة) عام 1910 ثم نقل إلى (قفصة) عام 1911، ومنها نقل إلى (قابس) في بداية عام 1914 حيث بقي فيها ثلاث سنوات، ثم نقل إلى (تالة) في أيار عام 1917، بعدها نقل إلى (مجاز الباب) بقي فيها ست سنوات، بعد ذلك نقل إلى بلدة (رأس الجبل) عام 1924، ثم انتهى به المطاف إلى مدينة (زغوان) الجبلية عام 1927.

وقد عرف الشيخ بصدقه وقوة عقيدته، وغيرته على الدين، وانفعاله لما يجري حوله من أحداث في المغرب العربي وطرابلس الغرب وبلاد الريف أثناء غزو الطليان لليبيا وتعاطفه مع عبدالكريم الخطابي في شمال مراكش. وكان يقضي وقته بين المحكمة والمسجد والمنزل وسط أهله.

نشأ أبو القاسم وسط هذه العائلة الصغيرة متنقلاً حيث تنقل والده فكان يقتبس من علوم والده وآدابه طوال هذه الرحلة العملية والتي استمرت نحو عشرين عاماً بين مشاهد الطبيعة والواحات الخضراء الجميلة، وبين عادات وتقاليد متنوعة. وهذا ما يذكره الشاعر في كتاباته، حيث أهدى أول مطبوعة له (الخيال الشعري عند العرب) إلى والده بعبارات مختصرة جميلة قال فيها: «إلى حضرة الوالد الكريم الشيخ سيدي محمد بن بلقاسم

الشابي الذي رباني صغيراً وثقفني كبيراً، وأفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم، وأقدس ما في هذا الوجود، أتقدم بهذه الصفحات التي هي أول عمل أخرجته للناس، وأنا أرجو أن أكون قد توخيت فيه صراحة الصدق وجمال الحقيقة».

وهذا الإهداء من الشاعر لوالده يبين بوضوح أثر الوالد الشيخ على ابنه الشاعر، وقد عرف عن الشيخ أنه لا يخاف في الله لومة لائم، فقد ربى ولده وعلّمه وأدّبه وثقفه على صراحة القول وجمال التعبير، فكان الشابي رائداً من رواد الإصلاح في التعليم، وقد تحدث عن هذا الأستاذ محمد الصالح المهيدي وكان معاصراً لحركة طلاب الزيتونة وزميلاً للشاعر فقال: «... لما قام الطلبة يطالبون بالإصلاح الزيتوني، كان الشابي أول رئيس للجنة الطلبة التي عقدت جلستها الأولى في 5 رجب سنة 1347هـ وهو الذي وضع أول برنامج عمل للمطالبة بالإصلاح، وما زلت أذكر الليلة الأخيرة من شهر ديسمبر (كانون الأول) عام 1928 تلك الليلة التي واصلت فيها لجنة الطلبة العمل إلى الصباح، وذلك إثر إلقاء القبض على بعض الطلبة الذين اتهموا بالتحريض على الاغتصاب، وما أبداه الشابي من الثبات في الموقف والشجاعة المتناهية.

ولما وجهت لجنة الطلبة منشوراً إلى رجال الفكر والرأي المصيب بالقطر التونسي تطلب منهم إمدادها برأيهم في الإصلاح. كان أول جواب تلقته من والد أبي القاسم الذي حرر تقريراً إضافياً احتوى على نحو عشرين صفحة، ضمنه آراءه في الإصلاح، أردفه بمكتوب لطيف يعتذر فيه عن التقصير لكثرة أشغاله حيث كان قاضياً على زغوان»[1].

وهذا يدل أيضاً على أن الشابي قد تأثر بحياة والده الوطنية والسياسية والأدبية عندما كان يتطوف معه بين مدن تونس أثناء عمله قاضياً، ويظهر هذا أن الشيخ كان يشجع ابنه على ذلك مؤثراً فيه بشكل كبير.

وفي أواسط عام 1929 مرض الشيخ الوالد، ورغب بالعودة إلى بلدته ومسقط رأسه، فرافقه ولده الذي سهر عليه في أيامه الأخيرة وفي ساعات احتضاره، وقد شاهد والده وهو يتألم آلامه الأخيرة التي عصرت قلب الشاعر وخياله ودموعه، فقد تحدث عن

---

(1) أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره عن مجلة الأفكار التونسية 1/ 12/ 1936.

هذه المشاهد بألم دام وحسرة، كما تحدث عن هذه اللحظات حتى بعد موت والده، وقد وضّح ذلك في رسالة أرسلها لصديقه الأستاذ محمد الحليوي مليئة باللوعة والتفجع فقال:

أخي الفاضل:

تحية وشكراً

وبعد، فإنني أود أن أحدثك وأناجيك، وأصبو لأن أرافقك وأماشيك في تلك السبل التي جال فيها يراعك، ولكن بماذا؟ أبهذا القلب الذي كسرته صخور الحياة؟ أم بهذه النفس التي مزقتها أعاصير الوجود؟ أم بهذا الفكر الواهن المخبول؟ أم بهذا الوجدان التائه في شعاب الغد الغامض المريب؟

والرسالة طويلة تعبر عن أوجاع وآلام الشاعر، فقد بدأها بالتقدير والاحترام ثم بعدد من الأسئلة فيها وجع وأعاصير وخمول وتوقع للغد ثم ينتقل إلى الآهات وأهوال الحياة وإلى القدر الذي يعبث بالبشر ثم إلى ضيق الشاعر بالحياة محاولاً أن يبين لصاحبه مقدار ألمه وهمومه ثم يشرح حالة أبيه الذي علا الشحوب وجهه بسبب المرض بعد أن عهده قوياً متماسكاً وهو الآن ضعيف خائر القوى أمام أنات القهر، متمنياً على صديقه أن يدعو الله وأن يصلي له بأن لا يفجعه بوالده وان يشفيه من أسقامه بروح مؤمنة بالله وبقدره، وفي نهاية الرسالة الطويلة والتي بإمكان القارئ أن يعود إليها في كتاب المحقق الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو (الشابي حياته وشعره) ص66-70 عاد الشاعر يغني أغنية الحيرة والحنين فقال:

يا بني أمي ترى أين الصباح ... قد تولى العمر والفجر بعيد
وطغى الوادي بمشبوب النواح ... وانقضت أنشودة الفصل السعيد
أين نايي هل ترامته الرياح ... أين غابي أين محراب السجود
يا بنات الليل، قد غاض الصداح ... منذ طاشت نشوة العيش الحميد
يا بني أمي ترى أين الصباح ... وراء البحر أم خلف الوجود
يا بني أمي ترى أين الصباح

وإن بدا الشاعر في رسالته أسيفاً ضعيفاً، إلا أن بحثه عن الصباح فيه أمل، ومع أنه سوف يبقى ناثراً في الحقول الجرداء العارية بذور الأسى إلا أنه ينتظر الصباح ليرى تفتح الأكمام عن الورود الجميلة، ويسمع تغريد البلبل وراء الزهور وإن كانت

فراحة الليل مليئة بالدموع، وكان الشاعر يتمنى لو يسمع صديقه أغاني المسرة بدلاً من الألحان المؤلمة ولكن ماذا يصنع أمام المريض الذي لا يخرج منه إلا الأنين والجرح لا يرشح بغير الدماء، ويظهر الشاعر في نهاية رسالته شاكياً متبرماً بائساً متشائماً حين يقول: «أما الغاب وأسراره والجبل وأصداؤه والشحرور وألحانه العذبة الحبيبة، فإن عهدي بها بعيد، وأن تلك السعادة الإلهية الطاهرة وتلك المباهج والمناظر والأغاني لا تنعم بها إلا الأبصار الطافحة بالأشعة المكحولة بالبسمات، أما الأجفان التي قرحها الدمع وأذواها الألم فإنها قصية عن تلك المناظر، منفية في سجون الحياة».

فالتضرعات ترد الأقدار، ولا ترحم الصغار ولا توقف كلوم الكبار، فقد انتقلت روح الشيخ الوالد إلى السماء في 8/ 9/ 1929 وتجرع الشاعر غصص المتاعب، ولم يكن بعد قد دخل تجربة الحياة، وهذا الذي زاد محنة الشاعر وضاعف من عذابه، وهذا ما جعل الشاعر يتخيل دائماً روح والده حائمة حوله كل ليلة، وفي ليلة 12/ 1/ 1930 خلا إلى نفسه ليبين كم هي المصيبة كبيرة وآثارها عليه واضحة، فقد حضر طيف أبيه فسطر يقول: «ليس لدي ما أكتبه اليوم عن نهاري هذا، ولعلي خير لي أن أذهب إلى فراشي وأنام لأنسى ما في عالم الأحلام... وسأرى أبي. آه ! نعم ذلك الأب الذي قد شق له الناس قبره وسووا التراب عليه وبقيت بعده في الحياة آلم وألذ وأُسرُّ وأحزن! أجل سأراه كما قد رأيته في لياليَّ الخالية حينما ينطفئ السراج ويشمل الغرفة ظلام الدجى...».

وإنني وأنا أكتب هذه العبارات وغيرها من النثر، أرى الشاعر يرثي والده بل يندبه ويتحسر ويتألم، فهل رثاه شعراً؟

يقول بعض النقاد إنهم لم يجدوا رثاءً في شعر الشابي، ولم يرث أحداً، لأنه وصف في ذكرياته حبه الميت، وهي كثيرة، غير أنني مع الأستاذ أبي القاسم محمد كرّو، فقد تبين أنه رثى والده بقصيدة واحدة بعنوان «يا موت» فور وفاة والده ودفنه، وإن كانت القصيدة متواضعة في فنها وشعورها، وهي أقرب إلى النواح وقد مهد لها بقوله: «هي صرخة من صرخات نفسي المملوءة بالأحزان والذكريات، وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الحياة، قلتها في أيام الأسى التي نكبتني بوفاة الوالد رحمه الله».

والآن نقتطف منها بعض الأبيات، لنثبتها كاملة مع أشعاره.

يا موت ! قد مزقت صدري وقصمت بالأرزاء ظهري
ورميتني من حالقٍ، وسخرت مني أيّ سُخر
فلبثت مرضوض الفؤاد، أجرُّ أجنحتي بذعر ...
وقسوت إذ أبقيتني في الكون أذرعُ كلّ وَعْر
وفجعتني فيمن أحب ، ومن إليه أبث سرّي
واعده فجري الجميل ، إذا ادلهمّ عليّ دهري
وأعده وردي ومزماري وكاساتي وخمري
وأعده غابي ومحرابي وأغنيتي وفجري ...

عجيب ما قاله البعض: إن الشاعر لم يرث أحداً، أليس هذا بوح للنفس وهو يخاطب الموت، صحيح أن القصيدة ندب ونوح وصرخة، أوَليس كل هذا الألم فاجعة في الرثاء، ومن كان يعني بأبياته، فالحزن يزداد تدرجاً مع القصيدة باندفاع الأسى في مشهد كبير أقفرت فيه عرصات صدره، ومشى مطرقاً لثقل الأفكار، ومثلت نفسه الدنيا وينتظر هو نفسه دوره، وها هو يجالد الحياة ليضمن لأسرته عيشاً هادئاً في حياة الكفاف، لأنه لم يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية وهذا ما عناه البعض حين قالوا: «كنا نرى في نفسه الزكية مثال القناعة في أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه».

والشاعر مثل غيره من البشر، فربما تزاحمت الهموم، لكنه يعيش في عالم زاخر بالألحان والأضواء والمرح والسرور، وها هو يقول:

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ... ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظمأ للحياة وأحتسي ... من كأسها التوهج النشوان
وأعود للدنيا بقلب خافق ... للحب والأفراح والألحان
ولكل ما في الكون من صور المنى ... وغرائب الأهواء والأشجان
فإذا أنا طفل الحياة المنتشي ... شوقاً إلى الأضواء والألوان
إن ابن آدم في قرارة نفسه ... عبد الحياة الصادق الإيمان

أثر الأدب المهجري في شعر الشابي

أعجب الشابي بشعراء المهجر أمثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي، وقد ظهر أثر هؤلاء المهجريين في تفكير الشابي وأدبه، منذ دراسته الأولى، فقد أكثر من قراءة أدبهم وحفظ أشعارهم وربما كان إعجابه نابع من ترسم صور وجدانية وفكرية لهذه الآداب في حداثة سنّه، وكأنه طبع على ذلك وهو دون الخامسة عشرة من عمره، فتزاحمت العمليات الذهنية عنده، ولذلك نراه يجيد في تصوير ألوان رائعة من الخيالات والأحلام، فقلدهم في آدابهم وفي سلوكياتهم وربما فاق الشابي على رأي أبي القاسم محمد كرّو من تأثر بهم حيث يقول: «غير أن الشابي كان أعمق من جبران واصدق تصويراً»[1].

ومن المعروف أن الأدب المهجري له ميزات كثيرة، ومنها أنه يمتاز بتبرمه الناعم وثورته الجامحة، وصوفيته الحالمة، وقد يصل إلى مثالية مجنحة في الحب والحياة والآمال، وهذه الأفكار ربما قد جذبت نفس الشابي في بداياته أو كما يسميها الأستاذ «محمد كرّو» في طوره الأول وهو يرى حال تونس حين كانت ترزح تحت وطأة الفقر والظلم. وليعيش من أجل بلده، راح يحث شعبه على الرقي والنهوض، وهنا نرى الشابي يلجأ إلى الطبيعة وسحرها حيث أسمعته أغانيها الحلوة، وكشفت له عن مواطن الجمال، وأسكرته برحيق الأزهار، فهام بحب الحياة، فرتل أغانيها بوجدانياته الساحرة وردد أنغامها، فجاءت أشعاره أناشيد ساحرة خالدة.

غير أننا نجده في الوقت نفسه في شعره السياسي متشائماً مع آلامه وكانت كما وصف أبو القاسم محمد كرو «إلا آلام شعب كامل وجراح أمة بأسرها» كما ذهب إلى ذلك أيضاً محسن بن حميدة «الشاعر الذي كان يعيش مأساة شعبه ويحاول أن يبعث في شعبه روح الثورة على الموت والإيمان الصادق بانتصار الحياة» أما الشاذلي بو يحيى فكان تقديره للموقف «شاعر تونس في فترة من حياتها، هي تلك الفترة التي عاشها، فكان صوت تونس في أنينها وندائها وفخرها، فهو شاعرها بلا منازع».

---

(1) الشابي، عمر فروخ، ص130.

وعلى كل حال فإن الشابي، صدق مع نفسه حين وصف حال الشعب في فترة حياته القصيرة، ولا ندري لو طالت له الحياة ماذا سيكون بعدها ولذلك أسمعنا «إرادة الحياة» وانطلقت معها أهازيج تثور على قيود الآسر متأهبة لخوض معركة حاسمة مع تلك القيود الظالمة. فكانت أشعاره تتقد وتثير مسالك الحياة إلى الثائرين والناقمين والطامحين لبناء مجد فتي وأدب خالد.

ونجد إلى جانب هذا أيضاً عوامل أخرى مؤثرة في أدب الشابي، كالأدب المترجم عن الآداب الغربية أو تأثره بالعقاد أو طه حسين أو تأثره بالأدب العربي القديم. وقد أعجب بـ «جوتة» الألماني و«لامارتين» الفرنسي وهذا ما حمله على الغلو في إنكار «الخيال الشعري عند العرب»، وهذا أيضاً ربما تأتى من تأثره بالدكتور طه حسين في التفكير والأسلوب. مما يقودنا إلى التعرف على ما جاء في «الخيال الشعري عند العرب».

الخيال الشعري عند العرب

صدّر أبو القاسم كتابه بإهداء لوالده الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي معترفاً له بجميل التربية صغيراً وتثقيفه له كبيراً، وإفهامه معاني الرحمة والحنان وتعليمه الحق في هذا العالم، متوخياً في كتابه صراحة الصدق وجمال الحقيقة.

وتلا هذا الإهداء كلمة المؤلف وهو نفسه حيث أنه اعتبرها مسامرة ألقاها في قاعة «الخلدونية» في العشرين من شعبان 1348هـ 1929م) وقدمها للطباعة دون تنقيح، ثم جاءت مقدمة الأستاذ زين العابدين السنوسي وهو صديق الشاعر وقد تحدث فيها عن نهضة أدبية في أواخر القرن التاسع عشر، وجاءت هذه المقدمة في نحو سبع صفحات تحدث فيها عن الكتاب ثم عالج قضية النقاد الذين تعرضوا إلى الأدب القديم وأخيراً تحدث عن المحاضرة التي ألقاها أبو القاسم والتي أطلق عليها «المسامرة لأول مرة» والتي ظهرت فيها جرأة أبي القاسم الذي كان أول خطيب يُسمع تونس مثل هذه اللهجة - الجرأة - على منبر عمومي تحضره طبقات مختلفة من الثقافات والمدارك المتباينة وصارح الحضور بنقد الأدب العربي.

وكان **الفصل الأول من الكتاب عن الخيال**. نشأته في الفكر البشري وانقسامه، وقد ذكر صاحب الكتاب أنه تلبية لطلب من جمعية قدماء الصادقية، وقد صادف من نفسه هوى نازعته إليه، ومما جاء فيه رأيه في الخيال فتحدث عن ثلاث نقاط:

أولاها: كان الخيال للإنسان ضرورياً كالنور والهواء والماء والسماء، ضروري لروح الإنسان ولقلبه ولعقله ولشعوره وان هذا الخيال نشأ في النفس بحكم هذا العالم الذي عاش فيه الإنسان وبدافع الطبع والغريزة وما دام هو كذلك فهو حي خالد.

أما الثانية: تحدث فيها عن الخيال عند الإنسان الأول واستعمالاته، بعيداً عن المجاز. وضرب لذلك أمثلة كقولهم: «ماتت الريح» أو «أقبل الليل» ووضح كلامه عن هذه المسألة بأن الإنسان الأول كان يعتقد أن الريح ماتت فعلاً وأن الليل قد أقبل حقاً بألف قدم وألف جناح وهذا ما جاء في أساطير الأولين بأنهم كانوا يؤمنون بألوهية الريح والليل.

أما النقطة الثالثة: فقد قسم فيها الخيال إلى قسمين:

قسم اتخذه الإنسان ليتفهم به مظاهر الكون وتعابير الحياة، وقسم اتخذه لإظهار ما في نفسه من معنى، ومن هذا القسم تولد قسم آخر ولدته الحضارة في النفوس وارتقاء الإنسان وهذا ما سماه الخيال اللفظي الذي يراد به تجميل العبارة. لكن القسم الأول في رأيه هو الأقدم نشوءاً في النفس.

وقد وضح رأيه بأن الإنسان شاعر بطبعه لأنه يهتاج عند المنظر الساحر والمشهد الخلاب، وإن كان ذلك يتفاوت بين الناس بتفاوت إدراك الجمال والشعور به. وقدم أمثلة ببعض الكلمات على غريزة الإنسان في ذلك لتكون دليلاً على حديثه، لأن الخيال في نظره يعتبر حقيقة في بدايته ثم تطورت النظرة إليه بتطور النظرة إلى الحياة.

ثم أصبح الإنسان بحاجة إليه لأنه وإن احتكم إلى العقل فإنه يحتكم إلى الشعور وسيظل كذلك لأن الشعور هو العنصر الأول من عناصر النفس، فهو النهر الجميل المتدفق في صدر الإنسانية منذ القدم. ومن هذا النهر تتولد خرائد الفكر وبنات الخيال كما نشأت «فينيس» من أمواج البحار وعلى ضفافيه يرتلن للبشر ترانيم الحياة.

وكذلك فإن اللغة بحاجة إليه مهما قويت، لأنها لن تستطيع النهوض دون الخيال الذي يرهقها به الإنسان، وأنه يمد هذه اللغة بالقوة التي ما كانت تجدها لولاه. ومن وراء الخيال نلمح فلسفة الفكر وهدير الحياة، وهو الذي تندمج فيه الفلسفة بالشعر ويزدوج فيه الفكر بالخيال، ومنه ألفت فيه كتب البلاغة على اختلافها وهذا ما سماه (بالخيال الفني) الذي تنطبع فيه النظرة الفنية التي يلقيها الإنسان على العالم الكبير، وكذلك هناك ما سماه (الخيال الشعري) لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم الشعور. ثم هناك ما سماه (الخيال الصناعي) لأنه ضرب من الصناعات اللفظية وهذا ما سماه (الخيال المجازي).

الفصل الثاني وعنوانه: الخيال الشعري والأساطير العربية.

تحدث في بداية هذا الفصل عن تاريخ الخيال الشعري في الأساطير العربية وأوضح أن هذا التاريخ لم يحفظ إلا شيئاً يسيراً من الأساطير العربية لا يستطيع الباحث أن يطمئن إليه بمفرده، ولم يجمع في كتاب خاص كما هو في أساطير الأمم الأخرى، وهو عبارة عن نبذ متفرقة بعضه متصل بعقائد العرب قبل الإسلام وبعضه متصل بعاداتهم وبعضه متصل بتاريخهم القديم. وبين أن الرواة لا يحملون وزر هذا. وأن العرب لم يقيموا لهذا

الفن وزناً، وقد تغنى به شعراء الجاهلية في أشعارهم كما تغنى به شعراء اليونان والرومان قبل مجيء المسيحية.

وقد قسم الشابي هذا التاريخ إلى قسمين:

القسم الأول: الأساطير الدينية، ويندرج تحته ما كان من عادات العرب وهي عقائد متحجرة بمفعول الزمن، وهو ما اقتصر الحديث عنه، ذلك أنه يتحرى الخيال الذي يتعرف به على حقائق الكون الكبرى، ولأنه يتحرى معرفة حظها من الخيال الشعري، وهذا غير متوفر في الأساطير التاريخية الذي يندرج تحت القسم الثاني الذي يرتبط بالتاريخ العربي القديم. ولذلك لم يتعرض لأخبار عمرو بن عدي وشق وسطيح وطسم وجديس، ولكنه بحث في الأساطير الدينية وما متّ إليها بسبب متين.

أما الأساطير الدينية عند العرب، فقد قدم رأيه فيه بأن لها وضاءة الفن وإشراق الحياة، فمن المحال أن يجد الباحث فيها ما يقع عليه في أساطير اليونان والرومان من خصب الخيال الجميل ومن تلك العذوبة الشعرية التي تنفجر منها الفلسفة الغضة الناعمة، فالآلهة العربية لا تنطوي على شيء من الفكر والخيال أو تمثل عاطفة من عواطف الإنسان، وإنما هي أنصاب بسيطة ساذجة شبيهة بلعب الصبية وعرائس الأطفال، وهي لا ترمز لمعنى من المعاني السامية وإنما هو أقرب إلى الوهم.

فقد عبد العرب أرباباً متفرقة، وآلهة كثيرة، ولم يعبدوها بعد تفكير عميق وإنما عبدوها لأحد أمرين: إما تأليه الأجداد أو تقليد غيرهم من الأمم وبعبارة علمية أنهم عبدوها لا لتشخيص ما فعلوا وإنما كانت عبادة الأموات على الأكثر ولذلك خلت أساطيرهم من الخيال الشعري باستثناء أسطورة النجوم فإن عليها شيئاً من وضاءة الشعر ونضارة الخيال.

عبد العرب أساف ونائلة واللات والعزى ومناة ويغوث ويعوق وسواع ونصرا، وكانت لهم فيها نظرات خاصة ومختلفة وقد نصبوها حول الكعبة لقوم من صلحائهم بعد موتهم على سبيل الذكرى فانقلبت الذكرىٰ إلى عبادة بطول الزمن.

كما عبدوا الشمس فقالوا عبد شمس وعبدوا المشتري فقالوا عبد المشتري وسموها آلهة وزعموا أنها تهب الإنسان جمالاً وحسناً، وأنهم أخذوها عن الآشوريين كما أخذوا

عبادة ثالب وأضر وهبتون وعشتر. وكان إذا أثغر صبيتهم أخذ سنه بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس قائلاً يا شمس بدليني بسن أحسن ولتجر في ظلمها آياتك. قال طرفة:

أسقته إياة الشمس إلا لثاته أسفاً ولم تكدم عليه بأثمد

وقال غيره:

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الأشر

ثم تحدث الشابي عن أساطير العرب التي آمنوا بصحتها، مثل: الغول وهي حيوان خرافي يزعمون أنه كريه المنظر شنيع الخلقة يضلل الناس ويلهو بالجماجم. وقد ادعى أبطالهم أنهم شاهدوها وحاربوها فانتصروا عليها، وقد أولع تأبط شراً بوصفها في شعره فقال:

وإني قد لقيت الغول تهوي يسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها: كلانا نضوأين أخو سفر فخلي لي مكاني
فشددت شدة نحوي فأهوى لها كف بمصقول يماني
فاضربها بلا دهش فخرت صريعاً لليدين وللجران

ومن أساطيرهم أيضاً: الصدى أو الهامة وهي طائر خرافي زعموا أنه يخرج من رأس القتيل الذي طُلّ دمه ويقف على قبره هاتفاً: «اسقوني فإني صدية» وما يزال حتى يؤخذ بثأر القتيل فيختفي هذا الطائر فقال الشاعر:

له هامة تدعو إذا الليل جنها بني عامر هل للهلالي ثائر

وكان منها شياطين الشعراء، حيث كان الاعتقاد أن لكل شاعر شيطانه الذي يوحي له بالشعر، فكان صاحب امرئ القيس لافظ بن لاحظ، وصاحب عبيد بن الأبرص هبيد ابن الصلادم، وصاحب الأعشى مسحل السكران بن جندل... وهكذا يعدد بعض الشعراء ويعدد معهم أصحابهم - شياطينهم - .

ومنها أيضاً أسطورة النجوم، وهم على خلاف فيها، ومؤداها أن «سهيلاً» انحدر إلى ناحية اليمن بعد أن خاض نهر المجردة فتبعته إحدى أختيه فسميت «العبور» وبقيت الأخرى مكانها فبكت لفراق أختها حتى غمضت فسميت «غميضاء» ومنهم من فسّر الأمر على نحو آخر فقال: بأن سهيلاً، كان فارساً جميلاً ساحراً، فخانه الحظ فسقط صريعاً

وراء المجرة فراع منظر الدماء أختيه، فعبرت إليه إحداهما، وظلت الأخرى واجمة فسميت الأولى «عبوراً» والثاني «غميضاء».

ثم أكمل حديثه هذا فجاء على أساطير الأمم الأخرى كما حددها الشابي فكانت على خلاف أساطير العرب، لأنها كانت مشبعة بالروح الشعرية الجميلة زاخرة بفلسفة الحياة الفنية الراقصة في ظل الخيال.

وقد أخذ اليونانيون أساطيرهم عن الآشوريين مثل العرب، ولكنهم طبعوها بطابع حياتهم فكانت رشيقة ساحرة وضرب الشابي أمثلة فتحدث عن «عشتروت» التي أخذها العرب فعاملوها معاملة أنصابهم التي لا ترمز إلى فكر ولا تمثل عاطفة، في حين أن اليونان اتخذوا لها اسماً آخر هو: «أفروديت» وزعموا أنها خلقت من أمواج البحار، واتخذوا لها ابناً هو «إيروس» وتخيلوا أن له جناحين ذهبيين، وأنه يحمل دائماً سهاماً حادة ومشاعل تلتهب، فكان إلهاً للحب عندهم.

وراح يسرد في محاضرته عن آلهة اليونان وأساطيرهم بما يتعانق فيها الفكر والجمال ويصف أفروديت وطفلها، وقدم تساؤلات كثيرة حتى وصل إلى أن كل آلهة رمز لفكرة أو عاطفة أو قوة من قوات الوجود، فجعلوا للحب إلهاً وللجمال آلهة كما جعلوا للحكمة آلهة وللشعر والموسيقى إلهاً ولمظاهر الكون أرواحاً وحياة تحس وتشعر، بمعنى أنهم ينظرون إلى الوجود من خلال أساطيرهم نظرة فنية تحس بتيار الحياة. ومما اعتقدوه أن الصدى جنية من بنات الجبال والأودية، فمرت بها يوماً «هيرا» زوجة «زفس» التي كانت ذاهبة لتفاجئ زوجها مع بعض عشيقاته، فاستهواها صوتها وفاتت عليها فرصة المفاجأة، فغضبت وسلبتها قوة الكلام إلا إعادة ما تسمع. وهكذا كانت أسطورة اليونان عن الصدى، أما العرب، فإنهم لم يألفوا ذلك رغم أنهم سموا الصدى «ابنة الجبل».

أما أساطير الإسكانديناف (سكان جزيرة سيلاند الأقدمون) فكانت الحياة عندهم شجرة راسخة تضرب بعروقها في مملكة الموت وتنتشر فروعها في آفاق السماء، وعند أصلها في مملكة الموت يجلس الأمس واليوم والغد، يروون جذورها من البئر المقدسة، فتورق دائماً وتزهر ثم تثمر، ثم يهوي ما عليها إلى مملكة الموت عندما يجف ما عليها، حيث يجلس الأمس واليوم والغد. فهل نظم الشعراء وكتب الكاتبون أعمق خيالاً وأصدق تصويراً للحياة من هذه الأسطورة.

الفصل الثالث: الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي:

علق الشابي في هذا الفصل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: أثر الطبيعة في الإنسان والأمة، وقد قدم عدة تساؤلات عن الخروج في أيام الربيع إلى بعض ضواحي المدينة حيث البرية والغابات الجميلة الغناء، وقد تنقل البلبل الأنيق بين أغصان الأشجار بأغاريده الشجية، وكذلك القبرة المتخطرة بين الأشجار ومسارب الحقول بأناشيدها العذبة، أو تلك الفراشة وهي ترفرف في ضحوة النهار حول الأعشاب البليلة أو تلك النحلة المهاجرة بين الزهور السكرى، أو تلك النسمات الوادعة في ظلام الغاب.

كما تساءل عن الذي حرك هذه كلها، ويجيب نفسه، أليست هي الروح الإلهي الذي يبصره الإنسان في السماء والماء والنور والفضاء؟ أليس هو الجمال الخالد الذي أحس به أهل بابل في عشتروت أو ما شعر به اليونان فقدسوه في أفروديت، واستفز قلوب الرومانيين في فينيس؟

وأكد بأن الجمال هو الذي نبه الطائر وأيقظ الفراش واستخف النحلة وهو أيضاً نفسه الذي أنطق الشعراء بأناشيدهم الخالدة وهو أيضاً الذي مهد للإنسانية هذا السبيل ولولاه لاتخذت الإنسانية سبيلاً آخر حرم العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول.

هذا الجمال الطبيعي هو القسطاس العادل الذي توزن به نفسيات الأمم وشاعريات الشعوب، ليعلم ما هي عليه من قوة وضعف ومن صحة أو فساد وأن الوسط الطبيعي هو الذي يؤدي إلى شاعرية خصبة في الأمة، لأن الجو العبوس المتجهم لا ينتج إلا الكزّ اليابس. وأن للوسط الطبيعي أثره في تكوين نفسيات الأمم، وطبعها على غراره.

كما بيّن أن الأمة العربية عاشت في أرض محرومة من هذا الجمال، لا يعترض النظر إلا إلى الموامي المقفرة الموحشة والصحاري الضامية المترامية، ولذلك جاءت شاعريتها قريبة من هذه الأرض، ومع ذلك فقد عرفت هذه الأرض أدواراً أربعة هي: الجاهلي والأموي والعباسي والأندلسي، مما أدى إلى تغير في الطبيعة وبالتالي شاعرية الأمة الدارجة عليها.

المحور الثاني: ويتمثل هذا المحور في أدوار الأدب العربي التي قررها الشابي.

1 - **الدور الجاهلي والدور الأموي**: يبين الشابي بأن هذين الدورين كانا خاليين أو كالخاليين من هذا الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ومفاتن الوجود إلا القليل منه، الذي أشعل خيالاً وحساً لأنه أتى به ماء السيل وفيض الكلام المستطرد وسوق الحديث وإلا لما ذكر. ثم قدم أمثلة على ذلك فقال:

الأعشى استعار الطبيعة لوصف محبوبته في قوله:

ما روضة من رياض الحسن معشبة ... خضراء، جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزراً من عميم النبت مكتهل[1]
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ... ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

أو كُثيِّر عزة حين قال:

فما روضة، زهراء طيبة الثرى ... يمج الندى جثجاثها وعرارها[2]
بأطيب من أردان عزة موهناً ... إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

كما أورد أبياتاً لعنترة في ملاهي الربيع في قوله:

ولقد مررت بدار عبلة بعدما ... لعب الربيع بربعها المتوسم
جادت عليه كل بكر حرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم
سحاً وتسكاباً بكل عشية ... يجري عليها الماء لم يتصرم

أو قول ابن أبي ربيعة:

قالت لجارتها عشاء إذ رأت ... نزه المكان وغيبة الأعداء
في روضة يممنها مولية ... ميثاء رابية بعيد سماء[3]
في ظل دانية الغصون وريقة ... نبتت بأبطح طيب الثرياء

ومع ذلك فهذه الصور وغيرها من صور البرق والرعد والسحاب لا نحس فيه روح الشاعر الملتذة المعجبة وإنما هي صور متتابعة يعرضها الشاعر عرضاً أميناً. وقد فعل مثل هذا امرؤ القيس في قوله:

---

(1) يريد بالكوكب هنا: النبات الطويل، والمؤزر: الملتف كامل الطول.
(2) الجثجاث والعرار: نبتان بريان مزهران.
(3) المولية: المطورة غب المطر، والميثاء اللينة غير الرملية.

ديمـــــة هطـــــلاء فيهـــا وطـــــف طبـــــق الأرض تحـــــرى وتـــــدر

والأبيات طويلة ومثل ذلك في قول أوس بن حجر أو كما يقول ملحة الجرمي:

أرقـت وطـال الليـل للبـارق الـومض حبيـــا سرى مجتـــاب أرض إلى أرض

فالطبيعة مع هؤلاء ليست موضوعاً للشغف والخشوع بل مادة للقصّ، وما يُرى يُنقل من دون أن يخلع عليه الشاعر حلّة من شعوره، والسبب أن أرضهم المجدبة لم تحرك في قلوبهم وشائج الحسّ أو تفتحها لتذوّق ألوان الجمال.

هذا ما قاله الشابي عن هذين الدورين، ولكن الحقيقة في رأيي غير ذلك وأنا أقدر أدب الشاعر والأديب، فالشاعر في هذين العصرين قد تملكه شعور الحياة والطبيعة، فجادت قرائحهم بهذه الأشعار، وإلا فكيف كان وصفهم إلا إذا كانوا يرونه بعيونهم؟ وتتجلى لهم في العقول وتأخذهم القلوب؟ ونحن نرى أنهم يصفون حالة واقعة بينهم، وقد جاء الشابي بالرد على هذين الدورين من أشعارهم وأثبتها في محاضرته.

2- **الدور العباسي**: اصطبغت الحياة الإسلامية بصبغة قوية مشتركة من حضارات عديدة متباينة، تكونت منها حضارة جديدة مهلهلة ناعمة بتجمع الفرس والروم والمسلمين، فكان لذلك أثر غير يسير على النزعة العربية الجافية. ثم سكن نبغاء العرب العواصم فعاشوا في أوساط جميلة غير تلك الصحارى. فنظموا الشعر بأمزجة غير الأمزجة العربية وأذواق غريبة. وفي هذا الوسط نشأ أبو تمام الذي يقول في بعض قصائده:

دنيـــا معـــاش للـــورى حتـــى إذا جـــاء الربيـــع فـــإنما هـــي منظـــر
أضـحت تـصوغ بطونهـا لظهورهـا نـــوراً تكـــاد لـــه القلـــوب تنـــور
مـــن كـــل زاهـــرة ترقـــرق بالنـــدى فكأنهـــا عـــين إليـــك تحـــدر
مـــصفرة محمـــرة فكأنهـــا عـــصب تـــيمن في الـــوغى وتمـــضر
في فـــاقع غـــض الـــشباب كأنـــه درر تـــشقق قبـــل ثـــم تزعفـــر
أو ســـاطع في حمـــرة فكـــأنما يـــدنو إليـــه في الهـــواء معـــصفر

ونجد البحتري يقول: والقول أيضاً للشابي في محاضرته:

أتـــاك الربيـــع الطلـــق يختـــال ضـــاحكاً مـــن الحـــسن حتـــى كـــاد أن يـــتكلما
وقـــد نبـــه النـــيروز في غلـــس الـــدجى أوائـــل وردٌ كُـــنَّ بـــالأمس نوّمـــا

يفتقهـا بـرد النـدى فكأنـه ينـث حـديثاً كـان قبـل مكـتما
ومـن شـجر رد الربيـع لباسـه عليـه كـما نـشرت وشـياً منمنما

ومثل ذلك قول ابن الرومي:

إذا شـئت حيتنـي بـساتين جنـة عـلى سـوقها في كـل حـين تـنفس

ويكمل الشابي سرد الأبيات وهي كثيرة يعاين فيها جزئيات الجمال في النور والضياء والنسيم، كما أورد من أشعار ابن الرومي روائع ولوحات تنهض من خلالها الطبيعة بكل إنسانيّ ساحر.

هذا ما أورده الشابي في محاضرته عن العصر العباسي، والواقع أن الأبيات التي أوردها ترد عليه، فقد عرفوا البساتين والرياض والأزهار وعيون النَّوْر والندى وغناء الطير وريح الصبا وانعكاس الشمس على الورود، كما عرفوا فضل الربيع وترقرق المياه بعد فصل الشتاء، أليس هذا كله كافياً أن يكون من إنتاج الخيال الشعري والطبيعة في الأدب العربي. نحن نعرف أن الشابي عاش في تونس ولم يتنقل في دمشق وضواحيها أو بغداد وما حولها، فكان يرى بيئة تونس ويتحفنا بخياله في طبيعة تونس، لكن شعراء المشرق أيضاً أحسوا بالطبيعة من حولهم، فجادت قرائحهم بما شاهدوه وما أحسوه ليصوروا بخيالهم الطبيعة التي عاشوا فيها. والشعراء في هذا العصر هم امتداد للشعراء الذين سبقوهم وما جادت به قرائحهم.

3- **الدور الأندلسي**: تفشى هذا الأدب الطبيعي في البلاد الأندلسية تفشياً عظيماً حتى كاد يسيطر على غيره من فنون الشعر.

غير أن لي - القول للشابي - في الأدب الأندلسي وبالأخص في الطبيعي منه رأياً جديداً ربما لا توافقونني عليه ولكنني قائله لكم:

(لكن الأدب العباسي في الطبيعة أبعد نظراً وأعمق خيالاً وأدق شعوراً منه في الأدب الأندلسي، رغماً عن أن الأدب الأندلسي أحفل بهذا الفن من الأدب العباسي وغيره، ورغماً عن أن الأدب الأندلسي أنصع ديباجة وأرقى أسلوباً وأدق تصويراً، ورغماً عن أن البلاد الأندلسية أشد جمالاً وأعظم روعة من البلاد الشرقية التي أنبتت ذلك الأدب العباسي الجميل).

والسبب انغماس النفوس في الأندلس بحمأة الشهوات انغماساً أماتت بها العواطف الهائجة، فجاء الشعر الأندلسي رقيقاً، لكنه قليل الحظ من عمق الشعور.

وهنا يعود الشابي إلى قول أبي تمام والبحتري في شعورهم الصادق الذي يحس بروح الحياة السارية في عروق الكون. ويقرر في أبياتهما عمق الخيال ودقة الإحساس ما لم يظفر بمثله في الأدب الأندلسي ثم يقول:

وقد صدمتني هاته الحقيقة لأول وهلة.. كادت تزعزع إيماني بصحة تلك النظرية التي قلتها من قبل: نظرية (الوسط الطبيعي) ثم قدم أمثلة على الأدب الأندلسي حيث يقول ابن خفاجة:

لله نهــر ســال في بطحــاء ... أشــهى وروداً مــن لمــى الحــسناء
متعطــف مثــل الــسوار كأنــه ... والزهــر يكنفــه مجــر سـماء
قــد رق حتــى ظــن قرطــاً مفرغــاً ... مــن فــضة في بــردة خــضراء
والــريح تعبـث بالغـصون وقـد جـرى ... ذهَــبَ الأصــيل عــلى لجـين المــاء

ويقول:

وصــقيلة الأنــوار تلــوي عطفهــا ... ريــح تلــف فروعهــا معطــار
عــاطى بهــا الــصهباء أحــوى أحــور ... ســحاب أذيــال الــصبا ســحار
والنــور، عقــد والغــصون ســوالف ... والجــزع زنــد والخلــيج ســوار
بحديقــة ظــل اللمــى ظــلاً بهــا ... وتطلعــت شــنباتها الأنــوار

«على هذا النحو كل ما قاله ابن خفاجة في جمال الطبيعة، براعة في الوصف وجمال في الأسلوب، دون أن تجد خيالاً قوياً أو شعوراً دقيقاً، وإن أعجب فلطائفه تسمى ابن خفاجة شعر الطبيعة...» ويرى الشابي أن في نفسه ميلاً إلى الطبيعة شغلته اللذة واللهو عن الإفصاح عنه وأن في قلبه شغفاً بالوجود كفكفه المجون.

وابن زيدون، ذكر الحبيبة وهو في مدينة الزهراء وسط الرياض فاستعاد بالذكرى أيام وصاله المنصرفة، هذا وقد تمثل الشابي بأبيات ابن زيدون حين يقول:

إني ذكرتــك بــالزهراء مــشتاقاً ... والأفـق طلـق ووجـه الأرض قـد راقـا
وللنــسيم العليــل في أصــائله ... كــأنما رق لي فاعتــل إشــفاقا

والـــروض عـــن مائـــه الفـــضي مبتـــسم ... كـــما حللـــت عـــن اللبـــات أطواقـــا

وشاعرة أندلسية وهي الشاعرة حمدة بنت زياد[1] في وادٍ ترى حدب الدوح كحنو المرضعات على الفطيم فتقول:

وقانـــــا لفحـــــة الرمـــــضاء واد ... ســـقاه مـــضاعف الغيـــث العمـــيم
نزلنـــــا دوحـــــة فحنـــــا علينـــــا ... حنـــو المرضـــعات عـــلى الفطـــيم
وارشـــــفنا عـــــلى ظمـــــأٍ زلالاً ... ألـــذ مـــن المدامـــة للنـــديم
تـــروع حـــصاه حاليـــة العـــذارى ... فـــتلمس جانـــب الـــدر النظـــيم

ثم ابن سهل الأشبيلي ينتهب في الوسط الطبيعي لحظته العابرة مقبلاً على الدنيا قبل الرحيل الأخير، وقد استشهد الشابي بأبيات منها:

اغـــنم زمـــان الوصـــل قبـــل الـــذهاب
فـــالروض قـــد وافـــاه دمـــع الـــسحاب
وقـــد بـــدا في الـــروض سر عجيـــب
ورد ونـــسرين وزهـــر الأقـــاح
كالمـــــــــــسك فـــــــــــاح
والطـــير شـــاد بـــاختلاف النـــواح

وعلى هذه السنّة التي رأيتموها يسعى الأدب الأندلسي كله: ديباجة غضة ناعمة وتعابير عذبة ناصعة ووصف دقيق جميل، لكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة أو إحساس عميق»[2].

المحور الثالث: وهذا محور مقارنة بين العرب والفرنجة لتوضيح الفرق بين الرنة العربية والرنة الغربية العميقة الداوية. وقد أثبت الشابي على مسامع الحاضرين كلمتين الأولى لـ «لامارتين» الشاعر الفرنسي والثانية لـ «جيتي» الشاعر الألماني ليبين ما يريد توضيحه عما يجب أن يكون عليه وصف الطبيعة والخيال الشعري الحقيقي.

(1) يوسف الطريفي، شعراء المغرب والأندلس، ص339، وأثبت هذا لأن الشابي لم يذكر اسمها.
(2) وضعت هذا موجزاً عن هذه الأدوار، وبإمكان الباحث العودة إلى كتاب الخيال الشعري عند العرب لأبي القاسم الشابي ليرى الصورة كاملة كما وضعها الشابي.

يقول لامرتين: «إن الطبيعة أكبر قساوسة الله وأمهر مصوريه وأقدر شعرائه وأبرع مغنيه، وإنك لتجد في عش العصفور تتناغى فيه أفراخه تحت رفرف الهيكل الدارس، وفي أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشِرَع وأنين الأمواج وغناء الصيادين، وفي الزهور ينتشر أرجها في الفضاء وينتثر ورقها على القبور وفي صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير، تجد في كل هذا من التقى والروعة والتأثير ما كان في هذا الدير منه وهو في إبان عهده وعنفوان مجده!».

ويقول جيت: «أرى كل شيء حولي ينبت ويزهر، وحينما كنت أبصر هذه الجبال مغطاة بأشجار الدوم من أسفلها إلى أعاليها، وتلك الأودية المظللة مجانيها بالغابات الأنيقة، وذلك النهر ينساب هادئاً بين نغمات القصب المهتزة، وتترآى في جوانبه تلك السحب الجميلة المزجاة في جو السماء بنسيم المساء، وأسمع الأطيار تحيي بأغاريدها موات الغابة جمعاء، وخشارمة الذباب ترقص طربة مرحة على أشعة الشمس الغاربة، وأرمق الأرض ببصري فأرى الأشنان يمتص غذاءه من الصفاة الصلدة، والرتم ينبت فوق سفح الأكمة القاحل المرمل فيكشفان لي عن ذلك النبع المقدس وتلك الحياة القوية في باطن الطبيعة، أقول حينما كنت أرى وأسمع هذه الأشياء أشعر كأن قلبي يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوة، وكنت أشعر أني أقرب ما أكون إلى التأله بما يفيض في قلبي من الشعور والحس ويخيل إليّ أن صور العالم الجميلة الفخمة تتحرك في نفسي فتملؤها حياة جديدة.

... آه كم تمنيت في ذلك الزمن أن أقطع أجواز الفضاء على جناحي ذلك الكركي الذي يطير فوق رأسي فأبلغ ساحل ذلك البحر الأعظم الذي لما ينكشف سره للإنسان لأشرب من اللانهاية كأساً دهاقاً تبسط القلوب وتنعش المشاعر !

وأشعر لحظة واحدة، على قصوري وضعفي، بنقطة تجري في دمي من سعادة ذلك الموجود الذي يخلق كل شيء في ذاته بذاته».

ثم يتساءل الشابي عن أي النظرتين إلى الطبيعة أعمق؟ وهل عندنا في العربية مثل هاته الروح القوية الشاعرة؟

ثم يتحدث عن كلمة جيت فيقول: هي الأغنية الخالدة التي ترددها النفوس الشاعرة في أعماقها كلما شاهدت بهجة الكون وجلال الوجود.

ثم يردف إلى أن يقول: أما شعراء العربية فلم يعبروا عن مثل هاته الإحساسات الشعرية العميقة لأنهم لم ينظروا إلى الطبيعة نظرة الحي الخاشع إلى الحي الجليل، وإنما كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى رداء منمق وطراز جميل ولم ينتهوا لتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة، ولذلك خلا شعرهم من الخيال الشعري الجميل.

الفصل الرابع: الخيال الشعري والمرأة في رأي الأدب العربي

وهذا النوع هو (المرأة) هو هذا اللغز الجميل الذي يفتننا بسحره ويختلبنا بجماله.

ثم تحدث عن النفس الإنسانية، وماهيتها وجمالها إلى أن يصل إلى قوله:

... أما العرب فقد حرموا هذا الجمال السماوي الذي يجد عنده القلب لذة الحس وسعادة الشعور، ولم يكن لديهم من مظاهر الجمال على اختلاف فنونه غير فن واحد هو «المرأة»، وفي المرأة وحدها استطاعوا أن يجدوا ذلك الينبوع السحري المتفجر من قلب الحياة...، وكان حديثه هذا رداً على تساؤلاته عن رأي الفلاسفة بأن النفس البشرية جبلت من عنصر الحسن ولذلك تشعر بلذة سامية كلما شاهدت مرآى جميلاً، فالنفس فلذة خالدة من هذا الجمال العبقري الذي يتفجر من قلب الحياة.

ثم يستمر في قوله: المرأة هي النصف الجميل الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة وسلسبيل المحبة، وهي الطيف السماوي الذي هبط الأرض ليؤجج نيران الشباب ويعلم البشرية طهارة النفس وجمال الحنان.

لكن العرب تجاوزوا في التغني بالمرأة كل حد، حتى أصبحت هي اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد، وهي الكلمة السحرية التي تنفتح لها كنوز الشعر، حتى أصبحت عندهم كآلهة الشعر عند قدماء اليونان. ومع ذلك لم يبوؤا المرأة منزلة سامية إلا للتحدث عن ملهاة ساحرة بجسدها، أو للتفاخر على تصبي قلوب النساء والعبث بهن ليس غير ! فجاءت نظرتهم دنيئة منحطة إلى أقصى قرار من المادة. ولم تزدوج نظرتهم إلى ذلك الشغف التي تعتبر سمة الفن عند الشعراء الآريين.

والشاعر العربي في رأي الشابي لم يحاول أن يحس بما وراء الجسد عند المرأة من روح جميلة ساحرة تحمل بين جنبيها سعادة الحب ومعنى الأمومة وهما أقدس ما في هذا الوجود، بل تحدث عن هذا الجمال المتهدل (الذي يوزن بالرطل والقنطار من الشحم

واللحم) كأنما الجمال جسد ومادة. لم يتحدث عنها كما يقول تاغور، واستثنى الشابي من ذلك ابن الرومي ومن لف لفه وهو نفر قليل، لأن ابن الرومي في رأيه تحدث عن جمال المرأة كشيء مستقل عن الجسد مصدره النفس الخالدة كما في قوله:

ليـــت شـــعري - إذا أدام إليهـــا   كـسرة الطـــرف مبـــدئ ومعيـــد -
أهـــي شيء لا تـــسأم العـــين منـــه   أم لهـــا كـــل ســـاعة تجديـــد؟
بـــل هـــي العـــيش لا يـــزال متـــى استحـــ   ـــدث يبـــدي غرائبـــاً ويفيـــد

لقد تحدث الشاعر العربي وأجاد عن قدِّ المرأة الممشوق وعن طرفها اللامع الوسنان وعن وجهها المتورد وعن غير ذلك من أوصاف مادية يراها الجميع، ويحس بها كل الناس، تحدث عنها بإحساس لا تظهر معه مزية على غيره في الالتفات إلى رصانة التعبير وجمال الديباجة وخلابة الأسلوب، وهل هذه وظيفة الشاعر وغايته في الحياة؟ ليست رسالة الشاعر ألفاظاً منمقة وعبارات مرصعة وكلاماً مرصوصاً.

وقد يكون من الغريب أن بعضاً من هؤلاء الشعراء يؤمنون بالحب إيماناً سامياً ويضمرون عنه في نفوسهم، حتى إذا أرادوا التحدث عن المرأة لم يتحدثوا إلا بما يتحدث به الفاسق الفاجر من تلك الأوصاف الجسدية السافلة.

وظلت النظرة إلى المرأة في الأدب العربي بسيطة، لم تتأثر بما اعتور الحياة الإسلامية من جزر ومد، ومن نور وظلمة، وسبب بقاء هذه النظرة تدور حول ما يلي:

أولاً: فكرة جائرة استحوذت على العالم العربي كله، مفاده أن المرأة مثل الغدر واللؤم وخساسة الطبع ... والفكر الذي يعتقد ذلك في المرأة لا يمكنه أن يبصر وراء جسدها من عذوبة وسحر وعالم شعري جميل.

ثانياً: المرأة لم تنل في جميع الأعصر العربية قسطاً من الحرية الحقة تتمكن معه إظهار مواهبها التي تجبر الرجل على أن يحترمها ويبدل فيها رأيه، فيطلع على ما خلف الجسد من لج زاخر وبحر عميق، ثم يبين: أن هذه الحرية الموهومة التي نسمع عنها ليست هي الحرية الحقة لأنها ضرب من الحرية متهتك خليع، يعبث بالفضيلة، ويسخر بكل شيء، وما أجدره أن يسمى انحطاطاً خلقياً، فيدنس هذه الكلمة الإلهية الظاهرة. ومن تمتع بهذه الحرية هو قسم من الإماء المتجنيات على الرجال المتهافتات على اللذة المتهالكات على

الفجور، تهالكاً يأباه الدين والعقل. هذا الضرب الذي يتحدث عنه أبو نواس، وهو ما نجده عند خلعاء الأندلس ومجانها.

ثم قدم شواهد على رأيه من قول امرئ القيس في قوله:

ويـا رُبَّ يـوم قـد (لهـوت) وليلـة   بآنـسة كأنهـا خـط تمثـال

ويقول:

كـأني لم أركـب جـواداً للـذة   ولم أتـبطن كاعبـاً ذات خلخـال
ولم أسـبأ الـرزق ولم أقـل   لخيلي (كـري كـرة) بعـد إجفـال

ويقول:

وبيـضة خـدر لا يـرام خباؤهـا   (تمتعـت) مـن (لهـو) بهـا غـير معجـل

ثم استشهد أيضاً بقول طرفة بن العبد:

ولـولا ثـلاث، هـن مـن عيشة الفتـى   وجـدّك لم أحفـل متـى قـام عـودي
فمـنهن سـبق العـاذلات بـشربة   كميـت متـى مـا تعجـل بالمـاء تزبـد
وتقصير يـوم الـدجن والـدجن معجـب   ببهكنـة تحـت الخبـاء الممـدد[1]

ومن ذلك ما استشهد به من قول أوس بن حجر:

وهـل (لهـوت) بمثـل الـرئم آنـسة   تـصبي الحلـيم، عـروب غـير مكـلاح

ثم قول عبدالله بن عجلان النهدي قتيل الصبابة:

وحقـة مـسك، مـن نـساء لبـستها   شـبابي وكـأس بـاكرتني شـمولها
جديـدة، سربـال الـشباب كأنهـا   سـقية بـردي نمتهـا غيولهـا

ويتابع الشابي حديثه مما قاله الشعراء، وهذا أبو نواس يقول:

(ألـه) بـالبيض المـلاح   وبقينـات، وراح
لا يـصدنك لاح   هـو عـن سـكرك صـاح

ثم قول أبي تمام:

---

(1) البهكنة: الشابة الغضة الشباب.

مـــن كـــل ممكـــورة ذاب النعـــيم لهـــا ذوب الغـــمام فمنهـــل ومنـــسكب[1]
كانـــت لنـــا (ملعبـــاً) (نلهـــو) (بزخرفـــة) وقـــد يـــنفس عـــن جـــد الفتـــى اللعـــب

ثم قول البحتري:

قـــد أطـــرق الغـــادة الهيفـــاء مقتـــدراً عـــلى الـــشباب فتـــصيبيني وأصـــبيها
في ليلـــة مـــا ينـــال الـــصبح آخرهـــا علقـــت بـــالراح أســـقاها وأســـقيها
عاطيتهـــا غـــضة الأطـــراف مرهفـــة شربـــت مـــن يـــدها خمـــراً ومِـــنْ فيهـــا

وقد عقد من خلال نقده مقارنة بين هذه الأقوال: ففي شعر طرفة وسيلة لتقصير يوم الدجن، وعند ابن عجلان خليلة فراش وساقية وعند أبي نواس جليسة غناء وخمرة، ولدى أبي تمام وسيلة أو أداة لعب وترويج وعبث ومثل ذلك كان عند البحتري.

كما تحدث الشابي في كتابه ومحاضرته عن أوصاف المرأة عند العرب، وبأي تعبير يعبرون عنها.

ففي الجاهلية وصدر الإسلام، وصفها امرؤ القيس ببيضاء غير مسترخية اللحم، تتقن أساليب الإغراء، لها جيد كجيد الرئم وشعر كقنو النخلة. وكشح مخصر وساق كقصب البردي ورائحة مسكية، وقد استشهد بأبيات شعرية يدلل بها على نظرته:

مهفهفـــة بيـــضاء غـــير مفاضـــة ترائبهـــا مـــصقولة كالـــسجنجل[2]
تـــصد وتبـــدي عـــن أســـيل وتتقـــي بنـــاظرة مـــن وحـــش وجـــرة مطفـــل
وجيـــد كجيـــد الـــرئم لـــيس بفـــاحش إذا هـــي نـــصته ولا بمعطـــل
وفـــرع يغـــشي المـــتن أســـود فـــاحم أثيـــث كقنـــو النخلـــة المتعثكـــل[3]
وكـــشح لطيـــف كالجـــديل مخـــصر وســـاق كـــأنبوب الـــسقي المـــذلل
وتـــضحي فتيـــت المـــسك تحـــت فراشـــها نـــؤوم الـــضحى لم تنتطـــق عـــن تفـــضل[4]
إلى مثلهـــا يرنـــو الحلـــيم صـــبابة إذا مـــا اســـبكرت بـــين درع ومجـــول[5]

---

(1) ممكورة: مملوءة الساق.
(2) السجنجل: المرآة.
(3) أثيث: كثيف، قنو النخلة: أول طلعه، متعثكل: مضموم إلى بعضه مرتباً.
(4) نؤوم الضحى: كناية عن الترف والنعيم.
(5) أسبكرت: استقامت في مشيتها، المجول: الدرع الصغير.

وهذا الأعشى يتغنى بعشيقته فيصفها بأنها بيضاء طويلة الشعر ترفق في مشيتها، مرتجة الأرداف، ممتلئة الجسم، يمشي معها المسك.

غـــراء، فرعـــاء، مـــصقول عوارضـــها تمشي الهوينـا كـما يمـشي الـوجي الوجـل
كـــأن مـــشيتها في بيـــت جارتهـــا مـــر الـــسحابة لا ريـــث ولا عجـــل
إذا تقـــوم يـــضوع المـــسك أصـــورة والزنبـــق الـــورد في أردانهـــا شـــمل[1]
يـضاحك الـشمس منهـا كوكـب شرق مـــؤزر بعمـــيم النبـــت مكتهـــل
يومـــاً بأطيـــب منهـــا نـــشر رائحـــة ولا بأحـــسن منهـــا إذ دنـــا الأصـــل

أما طرفة فقد وصفها بأنها غزال متخلف عن قطيعه، وثغرها كالأقحوان المنير، وأضاءت عندما ألقت الشمس رداءها على وجهها:

وفي الحـي أحـوى يـنفض المـرد شـادن مظـــاهر ســـمطي لؤلـــؤ وزبرجـــد
خـــذول تراعـــي ربربـــاً بخميلـــة تنـــاول أطـــراف البريـــر وترتـــدي
ووجـه كـأن الـشمس ألقـت رداءهـا عليـــه نقـــي اللـــون لم يتخـــدد

أما كعب فقد وصف سعاد، غُنَّة هيفاء، جميلة (حلوة) الثغر:

ومـــا ســـعاد غـــداة البـــين إذ رحلـــوا إلا أغـــن غـــضيض الطـــرف مكحـــول
هيفـــاء مقبلـــة، عجـــزاء مـــدبرة لا يـــشتكي قـــصر منهـــا ولا طـــول
تنفـــي الريـــاح القـــذى عنـــه وأفرطـــه مـــن صـــوب غاديـــة بـــيض يعاليـــل

وعلى مثل هذه السنّة كان النابغة، وعنترة ولبيد وعمرو بن كلثوم وأوس بن حجر والمرقش وزهير وغيرهم من شعراء الجاهلية الذين لم يختلفوا إلا في كيفية التعبير.

أما في العصر الأموي فقد قدم أمثلة على شعر عمر بن أبي ربيعة في قوله:

خـــود تـــضيء ظـــلام البيـــت صـــورتها كـــما يـــضيء ظـــلام الحنـــدس القمـــر[2]
مجدولـــة الخلـــق لم توضـــع مناكبهـــا مـــلء العنـــاق، ألـــوف جيبهـــا عطـــر
ممكـــورة الـــساق مقـــصوم خلاخلهـــا فمـــشبع نـــشب منهـــا ومنكـــسر
هيفـــاء لفـــاء مـــصقول عوارضـــها تكـــاد مـــن ثقـــل الأرداف تنبـــتر

---

(1) أصورة: وعاء المسك.

(2) خود: الصبية.

تفتر عن واضح الأنياب متسق　　عذب المقبل مصقول له أشر
كالمسك شيب بذوب النحل يخلطه　　ثلج بصهباء مما عتقت جدر

وصفها بأنها فتاة تضيء الظلام، غير مسترخية اللحم، مكتنزة هيفاء، ضخمة الفخذين، منيرة الثغر، ثقيلة الأرداف وبرائحة المسك.

ثم يقول: لعلكم تقولون: إنه فاسق يأخذ من المرأة ما هو أقرب إلى حسه، فماذا تصنعون مع المجنون الذي يقول:

ومن أين للشمس المنيرة بالضحى　　بمكحولة العينين في طرفها فتر
وأنى لها من دل ليلى إذا انثنت　　بعين مهاة الرمل قد مسها العذر
تبسم ليلى عن ثنايا كأنها　　أقاح بجرعاء المراصين أودر
منعمة لو باشر الذر جلدها　　لأثر منها في ترائبها الذر
إذا أقبلت تمشي تقارب خطوها　　إلى الأقرب الأدنى تقسمها البهر

وهو لا يخالف في هذه الأبيات عمر بن أبي ربيعة، ومثل ذلك قال جميل الذي لم يشك أحد في وجوده وقد رأى قوام بثينة قناة من المرّان أو غزالاً بمقلتها والجيد، وكشحها السابري، وحدبتها فدرٌ فضلاً عن جال ساقيها وضمور بطنها:

قناة من المران ما فوق حقوها　　وما تحته منها نقي يتقصف
لها مقلتا ريم وجيد جداية　　وكشح كطي السابرية أهيف

ولم يكن العصر العباسي غير ما سبقه فهذا أبو نواس يقول:

سربلها الدل ثوب بهجته　　أزرها الشكل ثم رداها
للدعص من ردفها تراكمه　　وللقضيب الرطيب أعلاها
فالسحر والغنج في محاجرها　　والحسن وقف على محياها

فالمرأة عنده ذو دلال وغنج، وردفها كثيب الرمل وجسدها كالسيف أو الغض اللدن.

أما عند أبي تمام فهي مكتنزة الساقين، وخد كالورد وهي ناعمة ومع أنها مهاة فإنها لا تصيد إلا الصيادين:

وهي كالظبية النوار، لكن　　ربما أمكنت جناة السحوق

أو قوله:

بيضاء يصرعها الصبا من نعمة خود كخوط البانة الأملود[1]
وحشية ترمي القلوب إذا اغتدت وسنى فما تصطاد غير الصيد

ويكمل الشابي: ثم اسمعوا ما يقوله المتنبي:

كل خمصانة أرق من الخمـ ـر بقلب أقسى من الجلمود
ذات فرع كأنما ضرب العنبـ ـر فيه بماء ورد وعود
حالك كالغداف جثل دجوجـ ـي، أثيث جعد بلا تجعيد
تحمل المسك من غدائرها الـ ـريح وتفتر عن شتيت برود

فهي عند المتنبي أرق من الخمر، هيفاء بقلب أقسى من الصخر، تنتشر منها رائحة العنبر والورد.

أما البحتري فالمرأة عنده:

بيضاء أوقد خديها الصبا وسقا أجفانها من مدام الراح ساقيها
في حمرة الورد من تلهبها وللقضيب نصيب من تثنيها

ويقول مهيار الديلمي:

سقى بالحمى الأعين النابلات من دم أحشاي ما تشرب
وحيا الحيا أوجهاً لا تغش لجين الجمال بها مذهب
وما نطفة حضنتها السماء بأرعن مرقاه مستصعب
ولا مسكة طاف عطارها بدارين ينخل ما يجلب
بأطيب من فم ذات الوشاح سحوراً بلى فمها أطيب

ويعلق الشابي: فهل رأيتم من تطور بين العصر العباسي والعصرين قبله من حيث نظر الشعر إلى المرأة ومنزلتها منه، أليست المرأة التي تحدث عنها شعراء العصر الجاهلي وما تلاه هي نفس المرأة التي تحدث عنها شعراء العصر العباسي، وإذا كان هذا في هذه العصور فكيف كان في العصر الأندلسي؟ يتساءل الشابي: هل أثرت عظمة الطبيعة واختلاف التربية والوسط والمناخ على النظرة الشعرية إلى المرأة؟

(1) الأملود: الناعم اللين.

هذا ابن خفاجة يقول:

فتــــق الـــــشباب بوجنتيهــــا وردة في فـــرع أســـحلة تميـــد شـــبابا[1]
وضــحت ســـوالف جيـدها سوسـانة وتـــــوردت أطرافهـــــا عنابـــــا
بيــضاء فــاض الحـسن مــاء فوقهــا وطفـــا بـــه الـــدر النفـــيس حبابـــا

ويقول أيضاً:

هــي الظبـي طرفــاً أحـوراً وملاحظـا مراضــاً وجيـــداً أتلعـــاً ونفـــارا
أفاضــت عــلى عطــف القـضيب مــلاءة ولفـــت عـــلى ظهـــر الكثيـــب أزارا

ولابن خاتمة دمٌ في خدها، وريق أو رحيق في ثغرها وأقاح في ابتسامها وضياء وخمر في لحاظها:

دمــــاء فــــوق خـــدك خلـــوق وريـــق مـــا بثغـــرك أم رحيـــق؟
ومــــا ابتــــسمت ثغـــور أم أقـــاح ويكنفهـــــا شـــــفاه أم شـــــقيق؟
وتلـــك ســـناة قـــوم مـــا تعاطـــت جفونـــك أم هـــي الخمــر العتيـــق؟
لقـــد أعـــدت معاطفـــك انثنـــاء وقلبــــي ســــكرة مــــا أن يفيــــق
جمالـــك خمـــرتي وهـــواك راحـــي وكـــأسي مقلتـــي فمتـــى أفيـــق؟

أما ابن سهل فالمرأة عنده ثغر نضده أقحوان لا يفيق من سكرته، وشعر فاحم وشفاه معسولة وغنج ساحر ووجه يخذل الشمس مبتسماً:

مـــا رأينـــا قـــط ثغـــراً نـــضده أقحـــوان عـــصرت منـــه رحيـــق
أخـــذت عينــــاه منـــه العربـــده وهــــو مــــن ســــكرته مــــا أن يفيــــق
فـــاحم اللمـــة معـــسول اللمـــى ســـاحر الغـــنج شـــهي اللعـــس
وجهــــه يتلــــو الـــضحى مبتـــسماً وهـــو مـــن إعراضـــه في عـــبس

ويعلق الشابي على كل ما سبق من شعر النوابغ، ويؤكد أنه لم يتحدث عما وراء جسد امرأة من شعور سماوي رقيق وعاطفة ندية ساجية وأحلام عذبة مستحبة، ولم يتغن أحد من هؤلاء بحنو المرأة، وهي معبد الحب في هذا الوجود كما يتحدث الخاشع المتعبد عن

---

(1) أسحلة: نوع من الشجر يستاك به كالأراك.

بيت من بيوت الله، كما يتحدث مثلاً جبران خليل جبران في أجنحته المتكسرة.. فقد كان إحساس الشاعر قاصراً وخياله محدود لا يتجاوز الظواهر ولا يطمع في ما وراء المرئيات.

ويلخص في نهاية فصله: إن المرأة في الأدب العربي لم تظفر بنصيب من الخيال الشعري ولو كان يسيراً، لأن النظرة لا تتعدى النظرة المادية التي لا عمق فيها ولا ضياء. وأما الفارق بين العصور، فقد كان الشاعر في العصرين الجاهلي والأموي صادقاً في ميله إلى المرأة وشغفه بها وإن لم يتحدث عنها إلا من الوجهة الجسدية، أما الشاعر العباسي والأندلسي فقد قضت المدنية الفاجرة على منبع الرجولة فيه فأصبح أكثر حديثه عن المرأة كاذباً لا تحس فيه حرارة الحب ولا صدق الهوى بالرغم عن أنه جميل الرنة، خلاب النسق.

الفصل الخامس: الخيال الشعري والقصة في الأدب العربي

لا يعجز الباحث في الآداب العربية أن يجد شيئاً من القصص الرائع الفخم الجميل، وأن يجد في تلك القصص خيالاً عذباً مشرقاً بالروح والحياة. وخاصة ما نسب إلى ابن أبي ربيعة شاعر الشبيبة الغزلة والجمال المدل. وكذلك امرؤ القيس ذلك الشاعر الشقي بشعره المضحاك الفروح، وهذا لا ينكره أحد.

ولكن هل نجد في تراث العرب قصصاً حقيقياً يجدر تسميته قصصاً كفن مستقل؟ هل نجد هذا القصص الذي يسبر جراح النفس البشرية؟ وهل نجد في الأدب العربي شيئاً من هذا القصص الذي يتصل بالخيال الشعري؟

ثم طرح سؤالين هما: هل القصص العربي مستقل بنفسه؟ وهل كان القصص العربي من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص ويسبر ويحلل؟ والجواب عن السؤال الأول: أن الشعر العربي لم يستقل بنفسه استقلالاً يؤهله لمنزلة القصص الحقيقي أو ما يقاربه إلا في شعر عمر بن أبي ربيعة، وكذلك يوجد عند غير ابن أبي ربيعة ولكنه غير مستقل بنفسه، فقد نجد للمنخل اليشكري هذا القصص الصغير الجميل الذي يصف موقفاً من مواقف الحب كقوله:

ولقد دخلت على الفتـ ... ـاة الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر ... فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها، فتدافعت ... مشي القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست ... كتنفس الظبي الغرير

ودنـــت فقالـــت: يـــا منخـــ ـــل! مـــا بجـــسمك مـــن حـــرور
مـــا شـــفّ جـــسمي غـــير حبـــ ـــك فاهـــدأي عنـــي وســـيري

وهذا قصص لكنه جزء من قصيدة فخر للشاعر، وقد نجد مثل هذا عند امرئ القيس في معلقته حين يقول:

وبيـــضة خـــدر لا يـــرام خباؤهـــا تمتعـــت مـــن لهـــو بهـــا غـــير معجـــل

وقد سبق أن تحدثنا عن القصيدة في فصل سابق، وبإمكانك الرجوع إليها، والشابي يقول إن الشاعر لم يزد على صاحبه وإن تصرف فيها كثيراً.

كما يذكر الشابي أننا نجد مثل هذا عند النابغة في قصيدته (يا دارمية) وفي معلقته، ونجده عند شعراء عرب غيرهم. ولكننا لا نجده مستقلاً وربما هذا ما كان في العصر الجاهلي، لكن خير من يمثل نظرة الشابي في هذا الفصل عمر بن أبي ربيعة في العصر الأموي، الذي قال عنه جميل بن معمر: «هيهات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سجيس الليل، والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد».

ثم سرد الشابي قصيدة عمر بن أبي ربيعة ليوضح طريقة السرد القصصي كمثال لاستهواء العذارى والشباب حتى حرّم الكبراء رواية شعره على فتيانهم والقصيدة طويلة بإمكانك الرجوع إليها ومطلعها:

راح صـــحبي ولم أحـــي النـــوارا وقليـــل لـــو عرجـــوا أن تـــزارا

ويقوله الشابي إنها نوع من القصص لا عهد للأدب العربي بمثله قبل ابن أبي ربيعة، لا عند امرئ القيس ولا النابغة ولا الأعشى، وابن أبي ربيعة جدير بأن يسمى أبا الشعر القصصي.

أما في النثر العربي فقد ظفر القصص إلى حد ما بما لم يظفر به في الشعر من الاستقلال والحياة، لكنه لم يظهر في العصر الجاهلي لندرة النثر، ولأنه كان قاصراً على الخطب والمحادثات، ولم يدون منه إلا اليسير. ولم يعرف النثر إلا في أواخر العصر الأموي عندما ترجمت قصص (ألف ليلة وليل) ومع ذلك لم يبعث هذا الكتاب شيئاً من الحياة القصصية في النثر العربي فظل على حاله الأولى.

ثم كان فجر العصر العباسي، وإذ ذاك ترجم ابن المقفع بعض كتب قصصية عن الفارسية، فكانت فتحاً جديداً في النثر العربي والتي كان منها «كليلة ودمنة» والتي بعثت

روحاً قصصية لم تكن في الأدب العربي من قبل ثم نشطت أقلام بعض الكُتّاب كان منهم ابن فارس الذي ألّف المقامات ثم جاءت مقامات الهمداني والحريري لينحط بعدها هذا الفن. ثم جاء بعد ذلك المعري برسالته «رسالة الغفران» وفيها يجد الباحث ما لا يجده في غيرها من الصور الشعرية والجمال الفني.

وجواباً عن السؤال الثاني: أن القصص العربي لم يكن من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص وإنما كان أحد أنواع ثلاثة: إما قصص يقصد به اللذة والإمتاع وهذا ما نجده عند ابن أبي ربيعة، وإنما قصص يراد منه الحكمة وضرب المثل وهذا ما يمثله «كليلة ودمنة» وإما قصص يقصد للنكتة الأدبية والنادرة اللغوية ويمثل هذا فن المقامات.

وخلاصة حديثة، فإنه لم يكن نصيب للقصص العربي من الخيال الشعري، لأن الخيال الشعري لا يضطر إليه إلا من أراد خوض ظلمات الحياة، وإنفاقها، واستطلاع ما في خفايا النفوس من صور ورسوم، والقصص العربي لم يجشم نفسه ركوب هذه السبل الغامضة المتعرجة، بل اتباع تلك الطريق المنبسطة الواضحة، تلك الطريق اللاحبة العارية التي سارت عليها أساطير العرب وآدابهم.

الفصل السادس: فكرة عامة عن الأدب العربي

قدم الشاعر لهذا الفصل بقوله: قد انتهى بي البحث في الأدب العربي وتتبع روحه في أهم نواحيه إلى فكرة شائعة فيه لا يشذ عنها قسم من أقسامه ولا ناحية من نواحيه، وهاته الفكرة هي أنه أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تشوف إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق، والباحث لا يسمع فيه إلا هدير العواطف بين جنبيه، وخرير المياه في عروق الكون، فيعييه البحث ويطلحه السعي ثم لا يجني من وراء ذلك غير الألم المرهق واليأس العقيم.

وهو لا ينكر أن الأدب العربي قد أجاد فيما تخصص فيه من وصف المظاهر البادية وما بينهما من تخالف أو تشابه أو تنافر، بل ربما فاق كثيراً الآداب الأخرى في هذا الصدد، والأدب العربي ليس جامداً ميتاً، بل كان في كل العصور حياً صحيحاً فياضاً بكل ما تصبو إليه آمال الشعوب من صور الحياة ومثلها المختلفة.

فكان في الأدب الجاهلي بدوياً محضاً تسمع فيه رنة الصوت البدوي الأجش بكل ما فيه من عزة وادعاء، وكان في الأدب الأموي على قسمين: الأول يصور الحياة العابثة

المخلة إلى البطالة واللهو، والثاني قسم يمثل الحياة الجادة العابسة التي تتلقفها الأهواء السياسية والدعوات الحزبية المتباينة. أما الأدب العباسي فكان لاهياً ماجناً خليعاً في عنفوان المجد العباسي، ثم حائراً متشككاً مضطرباً في أواخر القرن الثالث وما بعده. وكان الأدب الأندلسي مستهتراً مسرفاً في اللذة والمجون، لأن الأمة الأندلسية كانت صبية لاعبة تمرح بين الرياض والجداول.

وهذه الصفات تلائم الأذواق في عصورها، ولكنه لا يلائم روحنا الحاضرة ومزاجنا الحالي ورغائبنا في هذه الحياة وما نريده الآن، أدب قوي عميق يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة، بما فيها من شوق وأمل.. ولهذا فلا ينبغي لنا إلى الأدب العربي كمثلٍ أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون، ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعده كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها، وأن لا نعجب به إلى درجة التقديس، والعبادة، لأن لكل عصر حياته، ولكل حياة أدبها. وعلينا أن نتخذ لنا أدباً قوياً فيه الحياة الحاضرة بما فيه من عمق الفكرة وسعة الخيال ودقة الشعور، أما أن نتخذ الأدب العربي الذي عرفنا خلوه من هاته الأمور فذلك هو الخمول وذلك هو الموت الزؤام.

لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة. أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت، وانضاء القبور الساخرة.

ولا خير في أمة عارية تكتم فقرها، ولا خير في شعب جائع يظهر الشبع، وشر من كل ذلك أمة تقتني أثوابها من مغاور الموت ثم تخرج في نور النهار متبجحة بما تلبس من أكفان الموتى وأكسية القبور.. !

إن الشابي في حديثه هذا جريء، أعلن رأيه بكل صراحة وجرأة وهو رأي خاص به، ومهما كان لنا من تحفظات على رأيه، فإنه يعلن بعد ذلك أنه لا يغض من هذا الأدب الذي لم يخلق لنا والحديث يوجهه الشابي «منا معشر التونسيين» ولم نخلق له غذاء لأرواحنا وحريقاً لقلوبنا لا نترشف غيره، وهو يقول ذلك ويعلم أنه سيغضب طائفة كبيرة ممن يؤثرون الحياة في أكناف الدهور الغابرة. ويعلن أيضاً أن حسبه يعلن هذا وقد أرضى نفسه به، ويطلب أن يخبره الغاضبون من حدثهم عن تلك المعاني العميقة من تلك

الأعمق من الموت والأشد سعة من الحياة، كما يتساءل: هل تجدون في العربية من يستطيع أن يحدثكم عن هذه العواطف العنيفة التي تهز أسس الحياة هزاً؟ أو أي شاعر عربي يستطيع أن يحدث حديثاً مغرياً جميلاً عن الحب؟

وأي شاعر عربي يستطيع أن يحدث حديثاً صادقاً عن نشوة الحب وسكرة المشاعر؟ أو أي شاعر يحدث عن الأمل؟ وأي شاعر عربي يستطيع أن يحدث حديثاً مغرياً جميلاً عن الحب؟ وأي شاعر عربي يقتدر أن يصور معنى الأمومة الحانية الرؤوم؟ وبعد أن طرح تساؤلاته يجيب: كلا، لأن الأدب العربي أدب مادي محض لا يعرف من عالم الخيال إلا أضواءه الأولى وغيومه الناشئة.

ثم قدم الشابي شواهد من آداب الأمم الأخرى وأشار بمثال عن «لامارتن» وهو يتحدث عن نشوة الحب الشاملة، وتغمره سعادة الحب وغبطة القلب مما جعله يستغرق في هذا العالم الرائع استغراق الصوفي الصميم في ربه، ثم يقارن بينه وبين شعراء العرب أمثال المجنون أو قيس بن ذريح أو جميل أو عمر بن أبي ربيعة وغيرهم من الشعراء، مع أنهم تذوقوا الحب كما تذوقه لامارتن، ولكن الروح العربية روح مادية تقنعها النظرة العجلى التي تعلق بالسطح دون الجوهر واللباب، والأدب العربي تحدث عن الحب من خلال أغراضه ولوازمه وتحدث بوهم عن الأمل، وقدم شاهداً في قول الشاعر:

هـل الحـب إلا زفـرة بعـد زفـرة ... وحـر عـلى الأحـشاء لـيس لـه بـرد
وفـيض دمـوع العـين يـا مـيُّ كـلما ... بـدا علم مـن أرضـكم لم يكـن يبـدو

كما مثل على ذلك من شعر ابن الفارض الذي سار على سنّة الأقدمين في قوله:

هو الحب فاسلم بالحشا والهوى سهل ... فـما اختـاره مـضنى بـه ولـه عقـل

وعن الأمل في قول الطغرائي:

أعلـل الـنفس بالآمـال أرقبهـا ... «ما أضيق العيش لـولا فسحة الأمـل»

وعلق على القول: إن الطغرائي تحدث عن أثر الأمل ولم يتحدث عن الأمل نفسه وكأن الشاعر العربي في كل ما تحدث عنه استفز شعوره فعمد إلى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله وشبهه بالمصور الفوتوغرافي ولا يهمه إلا التقاط الصور وإظهارها كما هي، تاركاً للمشهد وحده أن يثير في نفس الناظر ما يثير.

أما الشاعر الغربي فإنه يفتح أمام القارئ مغاليق نفسه ليريه ما أهاجه من المنظر من عاطفة راكدة ووجدان كمين، ويجعله يلمس بقلبه ذلك الوتر الذي اهتز في أعماق نفسه بعد أن وصف المنظر، وسبغ عليه من الخيال الجميل حلة ضافية مشبوبة متأججة، وهذا الذي يجعلنا أن نحس من الصوت الغربي قوة وبعد رنين أقوى من الصوت العربي الخافت الضعيف لأن مصدر هذا الصوت هو الشكل واللون والوضع.

ويستمر الشابي في مقارناته فيؤكد: أن الشاعر العربي يبسط الفكرة في بيت فرد أو جملة واحدة ثم يتابع أفكاره بحيث تتكون القصيدة من كل لون أو وصف ومن كل فئة وقبيل، فتنبت الأفكار في صعيد واحد متماسك. أما الشاعر الغربي فإنه يعرض أمام النفس الصورة والأسباب والعوامل التي تحرك في النفس ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية ثم يلقيها في حلة ضافية من الشعر والخيال.

ويستمر في الدفاع عن وجهة نظره فيوضح الفرق بين الطريقة العربية والطريقة الإفرنجية في تناول الأشياء والنظر إليها، فيقارن بين قصيدة ابن زريق البغدادي الذي يقول في أولها:

لا تعذليــــه فــــإن العــــذل يولعــــه   قــد قلــت حقــاً ولكــن لــيس يــسمعه

وبين الشاعر الاسكتلندي (أسيان) ليوضح أن ابن زريق يصف بؤسه وشقاءه وقد ركز في القصيدة على يوم الوداع ليبين أن الشاعر العربي يستعيد ذكراه الأليمة وهي كل ما بقي له من ماضيه الجميل سواء من الوداع أو تشبث الحبيب به والدموع المنهلّة.

أما الشاعر (أسيان) فيصف تلك الذكريات المتفجعة بذكر أمسه الذي تلقى فيه أمضى سهم من سهام القدر وهو يقول على لسان (أزمين) لما تذكر مصرع ولديه، حين ينادي رياح الخريف لتهب وتعصف فوق سهول الخلنج العابسة لتصدم العواطف في رؤوس السنديان في موقف وداعي فيسمع بكلماته النارية زفير القلوب وشهيق الأرواح البائسة على عكس ابن زريق الذي يستقصي كل شيء بينما أسيان يوجز في البيان، وبينما يذهب ابن زريق إلى بث أوجاعه وحسراته هينة كأنفاس طفل نائم تساوره الأحلام المزعجة حتى ينتهي نفس القصيدة في صوت خافت يبعث به اليأس والأمل والموت في مثل قوله:

عــلى الليــالي التــي ظنــت بفرقتنــا   جــسمين تجمعنــي يومــاً وتجمعــه

فإن أسيان يكاد يسمعك صوته من خلال صعقات الحزن وآهات الأسى، فهو يكلم أرواح الموتى من فوق الهضبة ومن أعلى الجبل ويلخص قوله في نهاية الفصل بسطرين مفادهما: هكذا كانت الروح العربية متكتمة لا تسمح للنور أن يلامس أحلامها، ولا للظلمة أن تعانق آلامها، وأما الروح الغربية فهي متبسطة تلقي بأفراحها وأتراحها تحت أقدام الليل وفوق أجنحة الرياح ...

الفصل السابع: الروح العربية

إن كل ما أنتجه الذهن العربي في مختلف عصوره كان على وتيرة واحدة، والروح السائدة في ذلك هي النظرة القصيرة الساذجة التي لا تنفذ إلى جواهر الأشياء وإنما تنصرف إلى الشكل والوضع واللون والقالب. وتتحدث عن الطبيعة بألوانها وأشكالها، ولا يهمها من المرأة إلا الجسد البادي، وهي في القصة لا تتعرف إلى طبائع الإنسان وآلام البشر، أما في الأساطير فلم تعبر عن فكر سام وخيال فياض، هذا ما عرض له الشابي في الفصول السابقة.

والسؤال الآن: ما هذه الروح وما هو طبعها الخاص؟

الروح العربية خطابية مشتعلة ومادية محضة لا تستطيع الإلمام بغير الظواهر مما يدعو إلى الاسترسال مع الخيال، ومن هاتين النزعتين، كان لها ذلك الطبع الشبيه بالنحلة المرحة لا تطمئن إلى زهرة حتى تغادرها إلى أخرى، تلك هي الروح العربية وذلك هو طبعها. وكان لهاتين النزعتين الأثر الكبير في إضعاف ملكة الخيال الشعري في النفسية العربية، لأن الخيال مصدره الشعور، وكلما كان الشعور دقيقاً، كان الخيال فياضاً قوياً، ولا يمكن أن تجتمع الخطابة ودقة الإحساس في نفس إلا ندوراً، لأن الخطابة تعتمد المزاج الناري والنظرة البسيطة، ودقة الإحساس تستلزم المزاج الهادي والنظرة الطويلة والإحاطة الشاملة ولهذا كان الخطباء المصاقِع والفصحاء المصاليت.

وكان لهاتين النزعتين أثر في نظرة العرب إلى الشاعر، حيث كانوا لا يفرقون بينه وبين الخطيب، حتى أنهم جعلوا لشعرائهم أرواحاً تملي عليهم الشعر ليست بأرواح الملائكة أو الآلهة كما كان في أساطير غيرهم، وإنما جعلوها شياطين تصقل لسان الشاعر وتجعله أدنى إلى بلاغة القول وجزالة الخطاب، وما ذلك إلا لأنهم لا يرون في الشاعر إلا خطيباً ينظم ما يقول.

وقدم أمثلة على فكرته حين بين أن من هذه الخطب الشعرية قصائد عمرو بن كلثوم ومجمهرة بشر بن حازم وأمية بن أبي الصلت وملحمة الفرزدق والأخطل وجرير والراعي، وهناك أمثلة كثيرة في الشعر العربي الذي لا فرق بينه وبين الخطابة إلا في الوزن والقافية يضيق المقام عن ذكرها في رأيه، ثم قدم مثالاً كشاهد من قصيدة الحارث بن عباد التي قالها لما قتل المهلهل ابنه بحيرا وقال له: «بوء بشسع نعل كليب» يستفز الحمية في قومه لخوضه غمرات الحروب، يقول الحارث بعد أن بكى ابنه وأمر أمه أن تطيل عليه النحيب:

لهف نفسي على بحير إذا ما ... جالت الخيل يوم حرب عضال
يا بحير الخيرات لا صلح حتى ... نملأ البيد من رؤوس الرجال
وتقر العيون بعد بكاها ... حين تسقي الدما صدور العوالي

ويكمل الشابي في كتابه القصيدة بما فيها من بكاء واستنهاض للهمم والثأر والافتخار بشجاعته وقوته على طريقة بدوية، يدوي فيها الصوت ليظهر براءته ويظهر تغْلِب بمظهر الباغي، وأنهم إن سكتوا حملوا سبة الدهر وذلة الأبد:

قتلوه بشسع نعل كليب ... إن قتل الكريم بالشسع غال

حتى إذا تيقن من صبوة قومه إلى الحرد، هدد تغلباً وافتخر بقومه ليؤجج حماسهم وينفخ في قلوبهم روح البطولة صاح قائلاً:

قربا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حيال

وظل هكذا بين رنة الحزن إلى صيحة الانتقام ومن لهجة المسكنة إلى صرخات الجبابرة، فانقلب إلى فارس فاتك يلهج ببأسه:

رب جيش لقيته يمطر المو ... ت على هيكل خفيف الجلال

ثم عاد يرتجل أغاني المجد القديم ويعيد أناشيد الفوز والانتصار:

سائلوا كندة الكرام، وبكرا ... واسألوا مذحجاً وحي هلالا
إذا أتونا بعسكر ذي زهاء ... مكفهر الأذى، شديد الصيال
فقريناه حين رام قرانا ... كل ماضي الذباب غصب الصقال

وفي رأي الشابي أن هذه القصيدة إنما هي خطبة رائعة ألقاها خطيب مفوه، وهذه تذكر بخطبة (أنطونيو) التي ألقاها على شعب روما يطالبهم بالانتقام لقيصر.

ثم قال: وكان لكثرة المترادفات في اللغة العربية أثرها الكبير في النزعة الخطابية التي تؤثر الفصاحة على أي شيء آخر، ومن تلك الآثار ميل العرب إلى الإيجاز الذي يعدونه روح البلاغة، وهاتين الخاصيتين - الفصاحة والإيجاز - هي التي فرضت في الشعر العربي وحدة البيت، فكانت القصيدة العربية لا تدور على محور واحد تحيط به من جميع النواحي وإنما هي كون صغير تحشر فيه الأفكار حشراً وترص فيه المعاني رصاً...

وكان سبب هذا، أن العرب نشأوا في رقعة من الأرض ساهمة واجمة لم تجر عليها الطبيعة ريشة الفن، ولا ضربت عليها سحر الجمال، فظلت محرومة من ذلك الجمال الإلهي الذي يغمر النفس بما يفيض عليها من سعادة الحس ونشوة الشعور، فقد شب العرب تحت سماء ضاحية صاحية، لا يحجبها سحاب مركوم ولا ضباب كثيف، وليس تحتها غير الصحراء الأبدية الصامتة، فكان لهم من ملامح الصحراء الشاحبة ومن طبيعة الأرض القاحلة، هذا النحو من الحياة الذي لا يعرف رغد العيش ولا روح السلام ولا يفقه دعة الحياة ولا غبطة العيش، إنما هو ثورة جامحة كالرياح لا ترتوي ولا تشبع ولا تسكن إلى راحة ولا تخلد إلى سكون. فكان لهم تلك الروح الخطابية الثائرة التي تعصف بكل شيء.

أما المادية فقد تكونت في أنفسهم لأن العرب - كما سبق - لم يكونوا من خفض العيش الجميل وغضارة الحياة الناعمة وطلاقة الطبيعة الفاتنة على شيء يبعث في أنفسهم تلك النزعة المفكرة التي تتوغل في دخائل الأشياء وأسرارها دون ملل أو فتور، وكذلك تكونت المادية في أنفسهم بسبب طبعهم العجول والمتسرع في أرضهم المغبرة الكالحة، وأن من عاش بين مثل هذا الطبع الجموح وتلك الطبيعة العارية بمستغرق في الفكر أو متعمق في الشعور.

وهكذا تضافرت طبيعة الأرض ولون الحياة على خلق الروح العربية مطبوعة بطبائع الخطابة، مصبوغة بصبغة مادية خالصة.

ويكمل بحثه بقوله: حريّ بعدئذ أن تقولوا: إن هاته العوامل لا يمكن أن تؤثر إلا في العصر الجاهلي، أما العصر الأموي والعصر العباسي فهي بمعزل عن مثل هاته العوامل التي ألقت على الروح العربية ذلك الرداء، حيث تغيرت هاته العصور وتغيرت الأوساط التي عاش فيها العرب وألفوها، ثم يتساءل عن السبب الذي ظلت تسود روح واحدة في هاته العصور. ويجيب الشابي نفسه: إن هذه العصور الثلاثة قد أثرت على آدابها عوامل أخرى قربت بينها وبين الأدب الجاهلي في الروح والفكر والخيال وهذه العوامل هي:

أولاً: الوراثة: فقد كان العصر الأموي عصراً عربياً في طبعه ومنزعه وشعوره، ولم تختلط فيه الأمة العربية بغيرها، فظلت لذلك حافظة لميراثها الروحي، وظلت آداب هذا العصر شبيهة كل الشبه بآداب الجاهلية الأولى، لا أثر للتجديد فيها إلا في الشعر القصصي الذي انفرد به ابن أبي ربيعة وإلا في الشعر السياسي الذي أدخله الزعماء إدخالاً وأوجدته حال الأمة العربية لأسباب التنافس والأحقاد. على أن هذا الغرض كان موجوداً في العصر الجاهلي ومنشؤه تنازع القبائل على الشهرة بين العرب.

ثم جاء العصر العباسي، واختلطت الأمة العربية بغيرها من الأمم وامتزج الدم العربي بغيره، واستوطن كثير من الأعراب المدن والأمصار فظهرت في الأدب العربي ظاهرة جديدة هي الشعر الطبيعي الذي لم يعرفه الأدب الجاهلي والأدب الأموي إلا قليلاً، لكن المزاج العربي طبع هذا النوع من الأدب بطابعه الخاص المادي فكان حسياً لا يتحدث عن اللون والشكل.

أما الأدب الأندلسي فقد تأثر بذلك المزاج العربي وبالأدبين الأموي والعباسي وخاصة في أول الأمر عند دخول الأندلس، لكن امتزاج هذا الشعب العربي بالعنصر الأندلسي، ودخول هذا العنصر في الإسلام واتخاذه اللغة العربية أداة للتعبير، واختلاف بلاد الأندلس عن جزيرة العرب في الهواء والمشهد وطبيعة الأرض، عملت عملها فأثرت في الأسلوب الأندلسي وطبعته بطابع تلك الأرض الجميلة وصقلته بصيقل ذلك الوسط فأصبح رشيقاً، خاصة عندما ضعف المزاج العربي الموروث أحست الأمة إحساساً غامضاً بالحاجة إلى التعبير عن روحها الأصلية المستوحاة من طبيعة الأندلس فجددوا في الأوزان ولم يجددوا في الروح وتفننوا في الأساليب ولم يتفننوا في الجوهر واللباب.

ثانياً: ما كان يفهم من الأدب عند نَقَدَةِ الإسلام، فإن هؤلاء النقدة كانوا لا يفهمون الأدب على حقيقته من أنه صوت الحياة وبمعنى أوضح، رأوا أن الشعر لا يقصد لنفسه كفن جدي من فنون الحياة له روحه وأطواره ونزعاته، أما القدماء كعمرو بن العلاء وطبقته فقد نظروا إلى لأدب كوسيلة من وسائل الدين، لأنهم درسوه ليتفهموا غريب القرآن والسنّة وهذا جعلهم لا يفهمون الأدب إلا أنه ألفاظ وتراكيب وجمل وأساليب تساعدهم في فهم إعجاز القرآن، فتعصبوا للشعر الجاهلي، واستشهد دليلاً على ذلك بالأصمعي الذي جالس عمرو بن العلاء ثماني حجج واعتبروا الخير في اتباع العرب

كالاستهلال بالنسيب ووصف الرحلة والأطلال ولو كانوا من سكان الحواضر، وهذا المذهب اللفظي أو الديني الذي انقلب عليه أبو نواس في معظم قصائده واستشهد بقوله:

راح الشقي إلى دار يسائلها ... ورحت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد ... ثكلت أمك قل لي من بنو أسد
ومَنْ تميم؟ ومن بكر سقوا مهلا ... ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ... ولا شفي قلب من يصبو إلى وتد

ويقول:

لا تبك رسماً بجانب السند ... ولا تجد بالدموع للجدد
ولا تعرج على حمى عرج ... والنوء كالحوض بالملا الجلد
وعد عنها إلى دساكركم ... تربط بها خيمة إلى وتد

ومع ذلك فكثيراً ما كان يسترضي السلفيين لكي يقبلوا على قصائده.

أما الطائفة الثانية من النَقَدَةِ فقد رأت أن الأدب وسيلة من وسائل اللهو وعلى عهدهم انتشرت تلك الأفكار المسمومة التي لا تفهم من الشعر إلا أنه نوع من الشحاذة وضرب من الاستجداء ومن أئمة هذا المذهب ابن رشيق، ومن أثر هؤلاء أصبح لا يعني الأدب العربي إلا باللفظ وما مت إليه من مجاز واستعارة وجناس ومقابلة وإن كثرت ثروته اللفظية وقلت ثروته المعنوية

ثالثاً: لم يطلع العرب في جميع العصور الماضية على آداب الأمم الأخرى، مع أنهم ترجموا من مختلف العلوم العقلية، فترجموا فلسفة اليونان وحكمة فارس وعلومها. أما آداب اليونان والرومان فلم يترجموا منها شيئاً، ظناً منهم أن فيها نزعة وثنية، ويقرر الشابي أن سبب ذلك هو الغرور، فقد كان العرب معتزين بأدبهم ويحسبون أنه كل شيء، ولذلك لم يجدوا حاجة تدفعهم إلى ترجمة الآداب الأخرى، وظل المثل الأعلى الذي تحتذيه العصور الإسلامية في روحه وأسلوبه هو الشعر الجاهلي.

ولعدم اطلاع العرب على تلك الآداب ظلت آدابهم على حالها في جميع الأجيال زيادة على تلك الدعايات المتكررة التي قام بها طوائف النقدة في جميع العصور. وخلص الشابي في نهاية حديثه إلى القول: تآلفت هذه العوامل الثلاثة على إبقاء المزاج العربي

الصميم في نفسيات الأمم الإسلامية وعلى طبع آدابها بالطابع الذي انطبع به الأدب الجاهلي من قبل.

هذا ما قدمه الشابي وباختصار شديد عن الخيال الشعري عند العرب، وقد أثبته في الكتاب للاطلاع على رأيه ووجهة نظره دون التدخل أو النقد، لأن كتابنا هذا في حياته وشعره، وبإمكان من يريد الاستزادة الرجوع إلى الكتاب بعنوان «الخيال الشعري عند العرب» لأبي القاسم الشابي والاطلاع عليه كاملاً لزيادة المعرفة الكامنة فيه.

شخصية الشابي

عاش الشابي حياة قصيرة من 1909-1934، وعانى من المرض معاناة شديدة، ورغم هذه الحياة القصيرة فقد صدر عدد من الكتب تتحدث عن حياته، وكتبت مقالات عديدة عن أدبه، كما أُلفت عناوين متنوعة عنه، فكان شاعر الحب والحياة، وشاعر الحياة والموت وشاعر الحب والثورة، كما صدر ديوان أغاني الحياة، ثم صدرت مؤلفاته عن حياته وعن أدبه، وكثرت الردود على هذه الإصدارات التي تعكس نفسية الكُتّاب والأدباء سواء من كانت تربطهم رابطة القطر والوطن أو من كانت تربطهم به علاقة الشعر والأدب أو من كان لديه حب البحث والعرض، ومن هؤلاء الأدباء من عارض الشابي في فكره ورأيه كما وجد من وافقه وأثنى عليه، ورغم ذلك فإننا نقول إن الشابي كان شاعراً فذاً سواء اتفقنا أو اختلفنا معه، وهذا مما جعلنا نتبين عناصر شخصية هذا الشاعر التونسي الذي أصدرت عليه أحكام كثيرة، فما هي هذه العناصر التي كونت شخصية الشابي؟

كان أبو القاسم الشابي منذ صغره ضعيف البنية، نحيف الجسم، مديد القامة، ذكياً حاد الذهن سريع الانفعال، ومع ذلك فقد كان رضياً بشوشاً قانعاً متواضعاً خجولاً كثير التسامح، رقيق الطبع لطيف المعشر خافت الصوت قليل التكلف في حياته الخاصة والعامة[1]، وكانت تعلو وجهه دائماً مسحة من الكآبة والوجوم رغم محاولته اصطناع المرح في معظم أوقاته وهذا ما بينه الحليوي أحد أصدقاء الشاعر وكان في زيارة له بينما كان الشابي يصارع الموت: «وهل كان ذلك الذي اقتبلنا هاشاً باشاً حتى جعلنا نُسَرُّ من حالته ونحسب شفاءه كأنه أمر محقق، وما درينا أن الرجل يصارع الموت ويغالب آلام النزع ليقوم بواجب ملاطفتنا وإيناس وحشتنا».

ويقول أبو القاسم محمد كرو: «إن حياة الشابي مليئة بالشقاء والألم، عامرة بالأحزان والأتراح، طافحة بالحرمان والتعاسة مغمورة بالكآبة والأسى، ولسنا نعرف شاعراً في مثل بيئة الشابي وأجوائه تجمعت عليه مثل هذه من ضروب العذاب وألوان الشقاء، ففجرت في فؤاده الأغاني، وألهبت قلبه بالحب وقادته إلى حياة صوفية سامية تميزت بتبرمه

(1) عمر فروخ: الشابي شاعر الحب والحياة، ص116.

العنيف وثورته الجارفة»[1]، وليس من شك في أن للبيئة أثراً كبيراً واضحاً في حياته وشعره وتشكيل شخصيته. حيث عاش الرجل في فترة سياسية عصيبة، حين كان الوطن العربي يعيش أياماً حالكة السواد تحت ظلم المستعمر الغاشم، ويعاني أهل وطنه فقراً وظلماً وقهراً اجتماعياً وسياسياً وثقافياً، لأن المحتل لم يكن يحرص على نشر التعليم في البلاد المحتلة حتى لا تتعرض مصالحه للخطر أو المقاومة، وما فعله المحتل للبلاد العربية آنذاك من إرسال البعثات أو فتح مدارس الإرساليات إلا لخدمة أغراضه الخبيثة التي يقصدها، ومع ذلك فقد خرجت مجموعات قليلة عن أُطر ما رسمه المحتل فقامت حركات الإصلاح والتجديد واستمدت قوتها من الآداب العربية القديمة، وكان الشابي واحداً من هؤلاء التي تهيأت له الظروف إذا ما عرفنا أنه من أسرة الشابية التي شهد لها سجل تونس أنها صاحبة باع طويل في القلم والسيف.

كان والد الشاعر، وهو الشيخ محمد بن بلقاسم عالماً، درس في الأزهر ثم في جامع الزيتونة واشتغل بالقضاء وتنقل في أماكن متعددة مما أتيح للشاعر فرصة التعرف على القطر التونسي من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه ثم ليتعرف على طبائع مختلفة في قطر واحد. فكانت رحلته الأولى في العلم والمعرفة، ثم حفظ القرآن وهو في سنواته الأولى قبل العاشرة من عمره، وكأنه كان يسابق الزمن حتى حصل على شهادة «التطويع» مع أنه مال إلى الأدب والأدباء ولم يعمل قاضياً مثل والده، إلا أنه أظهر عبقرية أصيلة وشاعرية فذة فكانت أولى قصائده وهو في سن الرابعة عشرة، وهذا ينم عن شاعرية مبكرة تظهر نضجاً شديداً تدل على تجارب كثيرة، وإن لم ترَ ضوء النهار، ولم يتذوق حلاوة العيش إلا مدة قصيرة لتقصفها المنية في بداياتها. ومع ذلك فقد «سجل الشابي في شعره كل همسة بينه وبين نفسه الكبيرة، ولأنه كان صادقاً في شعره، وتحدث عما يشعر به فقد بدت مواقفه متناقضة أحياناً ... لأن الحياة نفسها متقلبة كالأنواء»[2].

لقد استيقظ الشابي من طفولته الأولى مشدوداً إلى حاجات يومية في حياته، وقد عشق الحياة حراً بدون قيود اجتماعية، فصبا إلى ذلك، ولكنه لم يتحقق، فقد مات والده،

---

(1) الشابي، أبو القاسم محمد كرو، ص35.

(2) مع الشابي في ديوانه، حلمي محمد عبدالهادي.

وجعله مضطراً إلى الانغماس في تكاليف الحياة مما حرمه من الراحة والسعادة، فراح يشكو في قصائده قائلاً:

ليت لي أن أعيش في هذه الدنـ ـيا بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الغا بات بين الصنوبر الميّاد
ليس لي من شواغل العيش ما يصـ ـف نفسي عن استماع فؤادي

هذه أمنيات كان يتمناها الشاعر ويصبو إليها، ولكن هل جاءت من فراغ؟ وهل انبثقت شاعريته من نعيم كان يحياه؟ إن واقع ما قرأناه عن حياته يدلنا على أنه بائس ومتشائم بسبب مرضه الذي رافقه في حياته.

فبعد أن مات والده راح يصارع الحياة ليضمن العيش لأسرته ويرعاها ويدبر شؤونها ليكفيها حياة الكفاف، دون أن يسعى إلى ذلك بشعره، فلم يلج باباً من أبواب الارتزاق من المناصب الحكومية، بل رضي بحياة بسيطة، وهذا ما عناه بعض معارفه: «كنا نرى في نفسه الزكية مثال القناعة في أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه»[1].

وقد وصف الشابي نفسه وحياته مع أسرته ورعايته لإخوته وأعباء الحياة التي حملها بعد وفاة والده في قصيدة «قيود الأحلام» جاء فيها:

وأود أن أحيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
إلا إذا قطّعت أسبابي مع الدنيا وعشت لوحدتي وظلامي
وأعيش عيشة زاهدٍ متنسك ما إن تدنسه الحياة بذام
فأعيش في غابي حياة كلها للفن، للأحلام للإلهام
لكنني لا أستطيع فإنّ لي أُمّاً يصد حنانُها أوهامي
وصغار إخوان يرون سلامهم في الكائنات معلقاً بسلامي

فقدوا الأب الحاني فكنت لضعفهم كهفاً يصد عنهم غوائل الأيام.

هذه هي الحياة التي أشغلته عن دنياه وعن عالمه، وهذه هي الأيام التي حلم أن يعيش فيها حراً، نجده مكبلاً، لأنه ضحى بأحلامه من أجل أسرته التي تركها له والده

(1) الشابي، محمد كرو، ص76.

إرثاً يحمله على عاتقيه، فقد هجمت عليه الدنيا بأهوالها، من غير إنذار فتحطمت نفسه على شواطئ رحبة عميقة، وتأججت آلامه، فيقول:

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظمأ للحياة وأحتسي من كأسها المتوهج النشوان

أضف إلى ذلك ما عاناه الشابي من المجتمع والبيئة من حوله التي تضافرت عليه قوى الشر من المستعمر الفرنسي، الذي رآه بأم عينه يستغل كل إمكانيات وطنه ويستأثر بها ويسلب خيراته وثماره ويحول بين مجتمع الشاعر وبين كل حركة انطلاق، ليعيش الشعب في الفقر والمرض والجهل، ويقيم العراقيل أمام المخلصين من أبناء وطنه. رأى الشابي كل ذلك مما أثر في شخصيته وولدت عناصر هذه الشخصية.

ومما أثر في شخصيته وشكل عناصرها، مرضه الذي عانى منه والذي كان سبباً في تشكيل اتجاهاته في الحياة وفي شعره، فقد منعه هذا المرض من ملذات الحياة ومسراتها فجاء كثير من شعره متشائماً ناقماً على ما يجري حوله، حيث بدأ تأثيرها على تفكيره وشعره في السنوات الست الأخيرة من عمره وهي السنوات التي أخصبت في إنتاجه الشعري وقد نصحه الأطباء حينذاك بعدم القيام بجهد يتعب الجسم والعقل، فأثر عليه ذلك خاصة عندما استرق همسات أولئك الأصحاب فانفجر بمثل قوله: «سأعيش رغم الداء والأعداء» وقد وضح ذلك الدكتور محمد فريد غازي بقطعة من يوميات الشابي في قوله:

«... ما شرعت أكتب، وكلفت ابن عمي الصغير بأن يسخن سحورنا على البابور حتى اضطربت حركاته وتلعثم لسانه، فلم يستطع أن يبين. فقلت له:

- ماذا؟
- لم أجد بابوراً !
- أنسيته خارج البيت؟
- كلا أدخلته.
- وكيف فُقد إذن؟ أسرقته الشياطين؟ إنك نسيته خارجاً، يا مجنون!
- كلا، بل أدخلته !
- لا تقل أدخلته، يا كلب ! وهل سرقته الجن؟ ولو كنت صادقاً اذهب وابحث عنه خارجاً لعلك تلفيه.

فخرج الصبي، وقد أعمى النوم والخوف بصره، فلم يجده، فعاد والخيبة تغشى وجهه. فسألته:

- هل وجدته؟ فقال بانكسار
- كلا، ولكني أدخلته، والله.
- اسكت، يا كذاب ؟

وظل صامتاً وظِلِلْتُ أفكر، ثم اندفعت عليه ضرباً وشتماً في ثورة من الغضب العنيف، ثم أفاق أخو الخطيبة فأعطيته حقه من الشتم والتقريع ثم سكت سكوت الغاب بعد العاصفة، وظللت كذلك حيناً».

هذا المقطع من يوميات الشابي يدلنا على أنه كان كئيب النفس وقد صرح بذلك في قوله: «تطغى على نفسي كآبة الملل فأصدف عن الكتب والناس ويوصد قلبي عن جمال الوجوه»[1].

وفي حياته مقالات كثيرة تدل على مثل قوله هذا، فقد تحدث صديقه محمد الحليوي عن ثلاثة أدوار لتشاؤم الشابي، فكان الطور الأول طور التشاؤم القائم، نحى فيه منحى جبران وفي هذا الطور لم يكن سبباً محدداً لتشاؤمه، أما الدور الثاني فكان تشاؤماً مصحوباً بالتعليل والتساؤل: ما نحن؟ ما الحياة؟ ما الممات؟ من أين جئنا وإلى أين نذهب؟ أما طوره الثالث فقد تبدد في كآبة عينيه لتشرق ومضات من الأمل، ويعزى ذلك إلى المناظر الجميلة التي شاهدها في «عين دراهم» التي اصطاف فيها عام 1932 ولأثر شعر «لامارتين».

ومن هذه المؤثرات التي أثرت في شخصيته وانعكست على شعره، مطالعاته الواسعة، وتأثره بما قرأه عن الآداب القديمة وهذا واضح في بعض قصائده التي نظمها على نمط شعراء العصر الجاهلي، وهذا واضح في كتابه «الخيال الشعري» من العصر الجاهلي إلى العصر الأندلسي، فقد صرح الشاذلي بو يحيى عنه فقال: «إذا رنت قيثارته أتاك منها أنين اللزوميات للمعري». كما أننا نلمح عنده شيئاً من آراء محيي الدين بن عربي حين قال مقطوعته «قلب شاعر».

---

(1) هذا المقطع من كلام الشابي في إحدى رسائله إلى محمد الحليوي.

كــــل مــــــا هـــــبّ ودبّ ومــــــا قـــام أو جـــام عـــلى هـــذا الوجـــود
مــــن طيـــور وزهـــور وشـــــذا وينـــــابيع وأغـــــصان تميـــــد
وبحـــــــار وكهـــــوف وذرى وديـــــار وبـــــراكين وبيـــــد
وضـــــياء وظـــــلال ودُجـــــى وفـــصول وغيـــوم ورعـــود
كلهـــا تحيـــا بقلبـــي حـــرة غـــضة الـــسحر كأطفـــال الخلـــود

كما تأثر تأثراً عميقاً بالأدب المهجري، ومن الترجمات العربية عن غيرها من اللغات لأنه لم يكن يحسن لغة غير العربية، كما تأثر برباعيات الخيام «التي شقت أمامه طريق التنويع في القافية وعدد الأشطر، إلا أن يكون قد تأثر في ذلك أيضاً بالموشحات الأندلسية»[1].

وقد أوضح أبو القاسم محمد كرو أن الشابي قد تأثر كثيراً بالأدب المهجري، حيث ملك عليه تفكيره وأدبه، فقد أكثر من القراءة لأدباء شعراء المهجر وحفظ كثيراً من نثرهم وشعرهم منذ أيام طفولته. ويقول خليفة التليسي في معرض حديثه عن الشابي وجبران «وينعقد الإجماع على أن الشابي كان تلميذاً للمدرسة المهجرية» وقد عقد التليسي فصلاً كاملاً بعنوان «الشابي وجبران». ومن قصائده الخالدة في ذلك قصيدة «إرادة الحياة» التي مطلعها:

إذا الـــشعب يومـــاً أراد الحيـــاة فـــلا بـــد أن يـــستجيب القـــدر

وإذا كان هذا التأثر بحماسة شعراء الجاهلية أو بالمتنبي أو بالأدب المهجري أو بما قرأه من الآداب المترجمة عن الفرنسية والأمريكية وربما اليونانية فإنما كان لها تأثير في تشكيل عناصر شخصيته والتي ظهرت واضحة في أشعاره. لكن مرضه ووفاة والده وفقدانه لحبه الأول بموت حبيبته وحياته المادية، كلها تضافرت معاً لتجعل من هذه الشخصية قصيرة العمر شخصية فذة، أنتجت شعراً وأدباً لم تنتجه أعمار طويلة، شكلت عبقرية رجل قوي الشخصية، تصرف ذهن الباحث عن تأثره إلى ميدانه الشعري.

(1) د. عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، ص126.

فلسفته وشاعريته

عاش الشابي في فترة كانت تهب رياح التغيير على الفكر والآداب العربية، حيث بدأت تظهر في عالمنا العربي الحركة الرومانطيقية، وقد اطلع الشابي عل مؤلفات جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة من أدباء المهجر وعلى مؤلفات العقاد والمازني وأبي شادي من جماعة «أبولو». كما درس المؤلفات الرومانطيقية المترجمة عن الأوروبيين، فكان من الطبيعي أن يتأثر بهذه المؤلفات وأن يخط لنفسه طريقاً داخل هذا الاتجاه. فدعا إلى التجديد في الشعر العربي وصاغ آراءه في كتابه «الخيال الشعري عند العرب». وقد أقام مقارنة بين الشعر العربي القديم وبين الشعر الأوروبي القديم والحديث حتى خلص إلى قوله: «لقد أصبحنا نتطلب أدباً جديداً نضيراً يجيش بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور».

سيطرت على الشابي مشاعر وأحاسيس كثيرة، ربما تعود إلى مثاليته الروحية التي ترى الحق والصدق أقدس ما في الوجود، فاستعان بالطبيعة ذات المناظر الخلابة من أجل جلاء الصور الشعرية التي تجتمع مع جوهر أفكاره ومشاعره التي يريد التعبير عنها.

فأنت حين تعود إلى قصائده تجد أنه أكثر من التمثل بالطبيعة، فصور لليل قلب ينبض، وجعل للزهر جفن فقال:

فلعـــل قلـــب الليـــل أرحـــم بـــالقلوب الباكيـــة
ولعـــل جفـــن الزهـــر أحفـــظ للـــدموع الجاريـــة

كما جعل للنهار لساناً، وللزنبقة قلب يخفق، وربما كان كل ذلك رموز يصور بها ظلمة الحياة ليبحث بعد ذلك عن الحرية وعن الضياء، فالحرية عنده هي الحياة وهذا مبدأ من مبادئ الرومانتيكية التي تسعى دائماً إلى الغاية المطلقة، يقول الشابي في قصيدة «أراك»:

أراك فتحلـــو لـــدي الحيـــاة ... ويمـــلأ نفـــسي صـــباح الأمـــل
وتنمـــو بـــصدري ورود عـــذاب ... وتحنـــو عـــلى قلبـــي المـــشتعل
أراك فـــأخلق خلقـــاً جديـــداً ... كـــأني لم أبْـــلُ حـــرب الوجـــود
ولم أحتمـــل فيـــه عبئـــاً ثقـــيلاً ... مـــن الـــذكريات التـــي لا تبيـــد

فهو في أبياته كما نراه يسعى إلى حب مثالي، نحس به، فهي عذابات ربما لا تتحقق وسعادته بعيدة المنال، فأمانيه ورود تخفف الآلام، تنمو في صدره، وتحنو على قلبه

المشتعل، فهو عندما يراها يشرق عليه صباح الأمل، ليُسيِّر دلالة اللفظ مع المعنى الذي يحتاجه، لكنه أمل غير ثابت وغير مستمر، لأنه يسير مع دورة الصباح الذي لا يلبث أن تغيب عنه الشمس حتى يخيم الظلام، فيكنني بالأماني التي أحبها بالورود التي تتنامى بالضياء والماء، وتتجدد برؤية الحبيب.

لقد أبدع الشابي صوراً فتانة من خياله وتفكيره وإحساسه، فألف بين الصور المتعددة حتى كوّن إبداعات جديدة تطلع بها إلى درجات سامية كالتي شكلها في قصيدة «صلوات في هيكل الحب» أو «في ظل وادي الموت» وجاء بالمعاني النادرة حين يقول:

أنت ... ما أنت ؟ أنت رسم جميل　　عبقري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وسحر　　وجمال مقدس معبود
أنت روح الربيع تختال في الدنيا　　فتهتز رائعات الورود
وتهب الحياة سكرى من العطر　　ويدوي الوجود بالتغريد

فالشاعر يخرج إلى الطبيعة، فهي رسم عبقري فيها الغموض والسحر والجمال خاصة عندما تأتي روح الربيع وتتمايل الورود الرائعة من تلك النسمات. تشخيص عجيب «روح الربيع» هي روح الشباب ونضارته، فتقدم للحياة عطراً فوّاحاً تتشابك فيه أغاريد الطيور صورة ناصعة، وسريرة بيضاء لا يشوبها أخطار، عالم تفتح أمامه فنظر إليه بعينيه، لكن قلبه وفكره سرّبا الصور إلى عقله الباطني، فأخرجها مترجمة برؤيته الشعرية وخياله الفذ وإحساسه المندفع المتدفق، ليكون في النهاية بموهبته التي استغلها قصيدة ترسم صوراً قوية في ذهن السامع أو القارئ:

أنت تحيين في فؤادي ما قد　　مات في أمسي السعيد الفقيد
بعد أن عانقت كآبة أيامي　　فؤادي وألجمت تغريدي

هذا ما يحس به، شعور لا يستطيع أن يتجاهله لأن شاعريته تكشف عن كوامن صدره:

في فؤادي الغريب تخلق أكوان　　من السحر ذات حسن فريد

هذه كلها كامنة أراد أن يخرجها بتلك الشموس الوضاءة والنجوم المنتشرة في الفضاء المديد والربيع الذي شخصه كأنه حلم الشاعر في سكرة الشباب، وتلك الرباة في الحلك الداجي والطيور المتناغية بالأناشيد الحلوة، كل هذا استمده من الطبيعة، التي كان

يلجأ إليها إذا ما ضاق صدره ليعيد البسمة إلى حياته ويشد عزمه ليخرج من تلك الكآبة التي سلطها المرض أو ثقل الحياة عليه.

وهذا هو أيضاً في «ألحاني السكرى» تلك القصيدة التي استطاع بها نقل القارئ بقوة الابتكار وروعة التجديد في المعنى، وتلك الرمزية التي طاف بها وهي تدوي بأغاريد الشباب ليصور المحبين كالطائر في الأفق الساجي:

نحن مثل الربيع نمشي على أر ... ض من الزهر والرؤى والخيال
فوقها يرقص الغرام ويلهو ... ويغني في نشوة ودلال

وبينما هو كذلك في أبياته وفي خياله كالروض في شبابه يرقِّص الغرام ويلهو به ويغني في مرح وسرور وسعادة ودلال، تأتي روح الثورة والتمرد على كل ما في الوجود ولكنه تمرد الساخر:

أيها الدهر، أيها الزمن الجاري ... إلى غير وجهة وقرار
أيها الكون أيها الفلك الدوا ... ر بالفجر والدجى والنهار
أيها الموت أيها القدر الأعمى ... قفوا حيث أنتم أو فسيروا

صرخة مدوية في آذان الدهر، في آذان الكون بل وفي آذان الموت، صيحة هازئة بكل ما حوله، ولكن لم كانت هذه الصيحة وتلك السخرية، لأنه بجانب حبيبته فيقول:

دعونا هنا تغني لنا الأحلا ... م والحب والوجود الكبير
وإذا ما أبيتم فاحملوها ... ولهيب الغرام في شفتينا
وزهور الحياة تعبق بالعطر ... وبالسحر والصبا في يدينا

في هذه الأبيات تحد قوي وشديد للدهر والكون والموت، ويهتف بهم جميعا أن يتركوه لتغني الأحلام والحب والوجود، ثم يتراجع تدريجياً ليصرح من جديد إن أبوا أن يتركوه مع الحبيبة في وحدتها «ولهيب الغرام في شفتينا» أو والزهور تعبق بالعطر والسحر والصبا، لأنه يملكها جميعها في يديه ويرى الغرام أسمى هبة للشاعر.

ثم نراه بعد ذلك يعرض علينا صورة نفسه، وقد رغبت هذه النفس عن المجد وما يشغلها وهو ما زال في أول شبابه ينعم بالرضا والأمل الباسم، ومع ذلك فهو يبكي، ولكن ما الذي أبكاه؟، الشابي نفسه يقدم لنا الجواب فيقول:

إنـــما أبكيــــك للحـــب الــــذي كــــان بهـــاه
يمـــــلأ الـــــدنيا فـــــأنى سرت في الــــدنيا أراه
فـــإذا مــــا لاح فجـــر كــــان في الـــشدو صــــداه
وإذا مـــا ضـــاع عطـــر كـــان في العطـــر شـــذاه
وإذا مـــــا رف زهـــــر كـــــان في الزهـــــر ضـــياه

هذه هي نظرته إلى الحياة، نظرة فيلسوف يجمع فيها بين اللذة والنواح من الألم، فيهتف من أعماق قلبه مستصرخاً الجراح الدامية، لتكف عن النواح والأنين، وهل تسمع هتافه وصرخاته؟ استمع إليه يقول:

اســــكتي يــــا جــــراح   واســــكني يــــا شــــجون
مــــات عهــــد النــــواح   وزمــــــان الجنــــــون
وأطـــــل الـــــصباح   مــــن وراء القــــرون

هذه ليست صرخات شاب يافع، إنها صرخات شيخ أكل الدهر عليه وشرب، كأنه عاش دهراً وتمرغ في التجربة زمناً، فقد حوى قلبه الخافق بمعاني الحب والجمال، وتفنن في رسم الشباب السعيد والآمال العريضة، أعجبته زينة الماضي فزيّن يد السحر، فطلب من الجراح أن تهدأ أو تسكت وطلب من الشجن السكون، وتتجلى الصورة عنده بموت عهد النواح، وفوات زمان الجنون، ليطل الصباح ومن أين وكيف؟ يطل الصباح من وراء القرون.

هذا هو الشابي وهذا خياله وتفكيره وبالتالي هكذا جاء نظمه، ولكن هل بقيت هذه الصورة الكاملة المتكاملة وهو يقول:

في فــــــؤادي الرحيــــــب   معبــــــــد للجــــــــمال
شـــــــيدته الحيــــــــاة   بــــــالرؤى والخيــــــال

ومرة أخرى يتحدى الزمن، ويتحدى الدهور، بقلبه العامر بالحياة الذي شيده بالرؤى والخيال، ليعود بالتدريج فيقول:

فتلـــــوت الــــــصلاة   في خــــــشوع الظــــــلال
وحرقــــــت البخــــــور   وأضــــــاءت الــــــشموع

صور شكّلها بخياله متشابكة، وكأنه أحس بقدوم القدر وقرب المنية، وأن رحلة حياته قد ركبت سفينة أخرى إلى شواطئ أخرى بعيدة فيصفها بألم حاد شديد:

الــــــــــوداع الــــــــــوداع يـــــــا جبـــــال الهمـــــوم
يـــــا ضـــــباب الأســـــى يـــــا فجـــاج الجحـــــيم
قـــــد جـــــرى زورقــــي في الخـــــضم العظـــــيم
ونـــــــشرت القـــــلاع فـــــــالوداع الـــــــوداع

هذا ضرب من الشعر، رثاء للنفس وهذا يذكرني بنهاية حياة إبراهيم طوقان ذلك الشاعر الذي مات شاباً في الثلاثينيات من عمره حين أحس بقرب منيته، فرمى برأسه على صدر أمه، وها هو الشابي يودع الطبيعة حتى في مماته، ليرسم صورة الهموم التي علت عمره وكأنها الجبال، ليعود إلى مرضه في ضباب مآسيه وفي فجاج جحيمه، فيلجأ إلى زورقه ويخوض هذا البحر العميق وينشر قلاعه وهو يراها فيرفع يديه «الوداع الوداع».

صور كثيرة في شعر الشابي، تنم عن تجربة شعرية عميقة، ينفثها من صدره وخياله في وقتها، وكأنه رسم لنفسه طريقاً لا تنتهي، فهو ينتقل من قصيدة إلى أخرى وكأنها تتابع قصص تأتي الواحدة تلو الأخرى فهذه قصيدة «قلب الأم» التي تمتلئ بالعاطفة الجياشة المتفجرة في رثاء طفل صغير يبكي مصرع الإنسانية، حين تركه أقرانه وقفلوا إلى لهوهم فتلاشت ذكراه وأسدلت الستائر عليه، لكن قلباً واحداً لم ينسدل عنه ولم يستطع أن ينساه، إنه قلب الأم. هذا الطفل صرعته الحياة حين انقض عليه الدهر وأنشب أظافره فألقى به مضرجاً في غياهب الزمن فتأتي صرخة الشاعر على لسان أمه فيقول:

يـــصغي لنغمتـــك الجميلـــة، في خريـــر الـــساقية
في أنـــة المزمـــار في لغـــو الطيـــور الـــشادية
في ضـــجة البحـــر المجلجـــل في هـــدير العاصـــفة
في لجـــة الغابـــات، في صـــوت الرعـــود القاصـــفة
في آهـــة الـــشاكي وضوضـــاء الجمـــوع الـــصاخبة
في شـــهقة البـــاكي يؤججهـــا نـــواح الناديـــة
في فتنـــة الـــشفق الوديـــع وفي النجـــوم الباســـمة
في رقـــة الفجـــر البـــديع وفي الليـــالي الحالمـــة
في رقـــص أمـــواج البحـــيرة تحـــت أضـــواء النجـــوم
في ســـحر أزهـــار الربيـــع وفي تهاويـــل الغيـــوم

أي عبقرية هذه التي يحملها صدر الشابي، يصف الحدث بكل دقائقه، وما أظنه إلا يرثي نفسه بقلب مفجوع، يرى صورة الفقيد في كل مكان في خرير الساقية، في أنة المزمار في موج البحر في لغو الطيور «الشاردة» في عمق الغابات، في الشفق والنجوم، في الورود الذاوية ليأتي في نهاية الصورة العجيبة التي شكلها فيقول:

أعرفـــت هـــذا القلـــب في ظلـــماء هاتيـــك اللحـــود
هـــو قلـــب أمـــك الـــسكرى بـــأحزان الوجـــود

هذا هو الشاعر الذي يعمد إلى خياله وتفكيره وتصعيده للمواقف فيؤلف بين أشتات الصور، التي تتحد لإبداع صورة جديدة.

ربما أحس الشاعر بدنو أجله، فخال نفسه وقد ذوى شبابه، فغيب في باطن الأرض وهو ما يزال شاباً فوصف بإبداعه الأم الحزينة السكرى بأحزان الوجود، هذا الطفل تركه الأتراب والمشيعون وعادوا إلى لهوهم وبقي قلب الأم حزيناً مترعاً بالأحزان وسط الغابات في الطبيعة التي يلجأ إليها كثيراً في خياله وكهوف أفكاره.

أما في قصيدة «الدموع»، فهو يبوح بنوع من الشقاء الوجودي الصرف، أو أنه يعترف بتنازعه بين قوى الخير والشر، فهو يقتنص السعادة دون أن يبذل في سبيلها كرامته، والظلم والشر ربما لا يأتيان من الناس فقط، بل من الدهر الذي يوهم الإنسان بالنجاح والفرح، والشاعر الشابي كان يبحث عن الحق الضائع ويتحراه ولكنه لا يجده، فيعود إلى نفسه ليبحث عما يريد، وربما تكون هذه التجربة في هذه القصيدة «الدموع» مكررة إلا أننا نجده يصفها وكأنه يعاني للمرة الأولى فيقول:

ينقـــضي العـــيش بـــين شـــوق ويـــأس
وينـــي بـــين لوعـــة وتـــأسي
هـــذه ســـنة الحيـــاة، ونفـــسي
لا تـــود الرحيـــق في كـــأس رجـــس

انظر إليه وهو ينظر إلى الحياة بين الشوق واليأس، فالدهر قلب، أو كما يقول بين اللوعة والتأسي، ثم يرفع الراية البيضاء وهو يعترف بأنها سنّة الحياة، وأن نفسه لا تقبل الشر ثم يكمل الصورة:

مُلـــيءَ الـــدهر بالخـــداع فكـــم قـــد

ظلّـــلَ النـــاس مـــن إمـــام وقـــسّ

إذن هو لا يبغي اليأس ولا الكآبة وإنما يتصورها مفروضة عليه لأنه يعلن:

كلـــما أســـأل الحيـــاة عـــن الحـــق

تكـــفّ الحيـــاة عـــن كـــل همـــس

والشاعر نفسه يذهب في قصيدته «ظل وادي الموت» إلى فلسفة الحياة والموت في صورة أعمق، بشواغل وهموم وتساؤلات تجول في أذهان المفكرين والفلاسفة منذ القدم، لكنه يأتي بصور أشد وأعمق، فهو يصور الموت كالرياح التي تقتلع الأطواد الشامخة، وهذا ربما بسبب مرضه الذي زلزل حياته واجتثها مبكراً، ولنقرأ ما جال بخاطره في مثل هذه الأمور:

نحـــن نمـــشي وحولنـــا هاتـــه الأكـــوا ... ن تمـــشي لكـــن لأيـــة غايـــة

نحـــن نـــشدو مـــع العـــصافير للـــشمس ... وهـــذا الربيـــع ينفـــتح نايـــه

نحـــن نتلـــو روايـــة الكـــون للمـــو ... ت ولكـــن مـــاذا ختـــام الروايـــة؟

هذه الحياة في فلسفته كأنها رواية، يمشي البشر حولها إلى أين؟ وهم ينشدون كالعصافير أو كالربيع ينفتح نايه، إذن هي آمال مبعثرة:

قـــد رتعنـــا مـــع الحيـــاة طـــويلاً ... وشـــدونا مـــع الـــشباب ســـنينا

وعـــدونا مـــع الليـــالي حفـــاة ... في شـــعاب الزمـــان حتـــى دمينـــا

وأكلنـــا الـــتراب حتـــى مللنـــا ... وشربنـــا الـــدموع حتـــى روينـــا

أهي صحوة الشباب؟ أم هي مقدمة لنهاية حياة؟

هاتـــه فـــالظلام حـــولي كثيـــف ... وضـــباب الأســـى مُنـــيخ عليـــا

هاتـــه يـــا فـــؤاد إنَّـــا غريبـــا ... ن نـــصوغ الحيـــاة فناشـــجيا

وهل يستطيع أن يصوغ حياته مع قلبه المريض كيفما يشاء؟ ولنسمعه ماذا يقول:

في ظـــلام الفنـــاء أدفـــن أيّـــا ... مـــي ولا أســـتطيع حتـــى بكاهـــا

وزهـــور الحيـــاة تهـــوي بـــصمت ... محـــزن مـــضجر عـــلى قـــدميا

جـــف ســـحر الحيـــاة يـــا قلبـــي البـــا ... كـــي ... فهيـــا نجـــرب المـــوت هيـــا

فالأبيات كما تراها تطل علينا بحالة نفسية يطول شرحها، فالشاعر فيها صاحب حكمة عريضة، فيلسوف يبكي حظه كإنسان، وقد أورد الشابي غير هذه القصيدة في فلسفته للحياة مثل قصيدة «شكوى ضائعة» هجا فيها القدر، وقد قرن فيها الليل بالوحش الخفي والعدو المستور، الذي ينوه به عن وجه الظلم والقهر، وقد تغلبت فيها الحقائق على الذات فهو يقول:

يــا ليــل ! مــا تــصنع الــنفس التــي ســكنت
هــذا الوجــود ومــن أعــدائها القــدر
تــرضى وتــسكت ؟ هــذا غــير محتمــل
إذاً فهــل تــرفض الــدنيا وتنتحــر
وذا جنــون لعمــري كلــه جــزع
بــاكٍ ورأي مــريض كلــه خــور

يخاطب الليل ويبحث عن النفس التي وجدت والقدر يلاحقها، وترضى بما يفعله وتسكت رغم احتمالها، وان رفضها لا ينفع، ومخاوف هذه النفس البشرية بكاء ومرض وضعف.

إذن هي نظرة فلسفية يراها الشاعر فيقصدها ليصور منها قصيدة ملتاعة بالصمت حيناً أو القهقهة حيناً آخر:

وعــاد للــصمت يــصغي في كآبتــه ... كالفيلــسوف إلى الــدنيا ويفتكــر
وقهقهــة القــدر الجبــار ســخرية ... بالكائنــات تــضاحكُ أيهــا القــدر

إلى أن يصل بالصورة الفلسفية في قوله:

تمــشي إلى العــدم المحتــوم باكيــةً ... طوائــف الخلــق والأشــكالُ والــصور
وأنــت فــوق الأســى والمــوت مبتسم ... ترنــو إلى الكــون يُبْنــى ثــم ينــدثر

إذن هو حديث عن الخلق والوجود بأكمله، يولد الإنسان ويحيا ولكن المصير المحتوم معروف لكل الخلق، ومع أن الناس يعرفون هذا المصير المحتوم إلا أنهم مبتسمون فرحون يأملون بالعيش فيبنون ثم يموتون.

وفي قصيدة أخرى أجرى الشاعر حديثاً أو قل حواراً فلسفياً حول الحياة والموت والخلود والكمال في قصيدة «حديث المقبرة» الذي صور فيها صوتان: صوت الشاعر

المتشائم، وصوت الفيلسوف الذي يظهر حكمة الوجود، والصوتان يجسدان الثنائية والتنازع، وربما هي صورة تتردد في أشعاره التي تفيض بالصور والانفعالات، مثل قصيدة «فلسفة الثعبان المقدس» التي تمثل فلسفة القوة والتي تعتبر دليلاً على مذهب الشابي، حيث اتخذ من الثعبان رمزاً للشر والطغيان، فبعد أن يصف لنا ما كان ينعم به الإنسان، نجد أن الثعبان قد عز عليه أن يرى هذا الإنسان متنعماً فينقضّ عليه دون ذنب اقترفه، فكأن هذا الشر يرى أن سعادة هذا المسكين جريمة فيقول:

كان الربيع الحي روحاً حالماً ... غض الشباب معطر الجلباب
يمشي على الدنيا بفكرة شاعر ... ويطوفها في موكب خلاب
والكون من طهر الحياة كأنما ... هو معبد والغاب كالمحراب
الشاعر الشحرور يرقص منشداً ... للشمس فوق الورد والأعشاب

هكذا يصف الحياة الهادئة الوادعة، يهنأ فيها الإنسان، ثم يأتي الشاعر بأغانيه ويصف هذه الحياة السعيدة ثم لا تلبث أن تنقلب بفعل هذا الشرير الذي جاء ليسلب هذه السعادة:

ورآه ثعبان الجبال فغمَّه ... ما فيه من مرح وفيض شباب
وانقض مُضطغناً كأنه ... سوط القضاء ولعنة الأرباب

انظر كيف بخياله الواسع وبراعته في تشكيل المناظر، يرسم هذه الصور ليقدمها في حوار متماسك بين ضدين:

وتدفق المسكين يصرخ ثائراً ... ماذا جنيت أنا فحق عقابي
لا شيء إلا أنني متغزل ... بالكائنات مغرد في غابي

هذا هو ذنب ذلك المسكين، أنه انطلق بحرية ينشد ويغني داخل الغابة الرحبة في أحضان طاهرة يبث إليها حبه الصافي، لكن سعادة الضعفاء جريمة يستحقون عليها العقاب الشديد من القوي، فهو يتحدث بحكمة الشاعر الفيلسوف الذي أحب الحياة والحرية والانطلاق فيها، وهذا قول حق في زمن التيه والغفلة، أوطان تحتل وتستغل ثرواتها والقوي يفرض ما يريده وما على الضعيف إلا القبول والاستسلام، وأظن لا شيء أكثر من هذا في إهدار كرامة الإنسان، رغم كل التنازلات التي قدمها هذا المسكين الضعيف.

وســـعادة الـــضعفاء جـــرم مـــا لـــه ... عنـــد القـــوي ســـوى أشـــد عقـــابي
لا أيـــن، فالـــشرع المقـــدس هـــا هنـــا ... رأي القـــوي وفكـــرة الغـــلاب

ثم يصرخ صرخة أخرى ليشهد الدنيا على نفسه فيقول:

ولتـــشهد الـــدنيا التـــي غنيتهـــا ... حلـــم الـــشباب وروعـــة الإعجـــاب
(أن الـــسلام حقيقـــة مكذوبـــة ... والعـــدل فلـــسفة اللهيـــب الخـــابي)

هذا حديث الشاعر عن فلسفة واقعية يراها بعينيه، وجعلها حواراً بينه وبين ذلك الثعبان الذي يعيش في الجبل ليصور نتيجة حتمية يقولها الشاعر وغيره.

لا عـــدل إلا إن تعادلـــت القـــوى ... وتـــصادم الإرهـــاب بالإرهـــاب

قول قديم قاله الشاعر ليستعيره المحدث بأن ما أُخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، فالعدل لا يعود إلا بين طرفين متعادلين، ومقابلة الإرهاب بإرهاب مثله وأشد منه أحياناً ليزول الخنوع والظلم عن هذا الإنسان الضعيف، حكمة قالها الشابي في وسط الثلاثينيات من القرن الماضي، وكأننا ما قرأنا حكمة ولا تعلمنا من أدب أو شعر ثم يقول على لسان الثعبان:

إني إلـــه طالمـــا عبـــد الـــورى ... ظـــلي وخـــافوا لعنتـــي وعقـــابي
وتقـــدموا لي بالـــضحايا مـــنهم ... فـــرحين شـــأن العابـــد الأواب
وســـعادة الـــنفس التقيـــة أنهـــا ... يومـــاً تكـــون ضـــحية الأربـــاب

فالظلم في الأبيات إله، ونحن نخاف هذا الإله فلا نعصيه، وهذا تحريض واستفزاز من الشاعر على مقاومة الظلم والوقوف أمامه بكل ما يحمل الإنسان من قوة ليقاوم طغيانه، لا أن يقدم المقهور القرابين لضمان سكوت الظالم وكسب رضاه، لأنه لن يسكن ولن يرضى، وهذا أسلوب بديع على تحفيز الهمم وإثارة الحمية في نفوس المظلومين يصوره الشابي وينطبق على أزمان متعددة، ولماذا نذهب بعيداً ونحن وبعد أكثر من سبعين عاماً يتكرر المشهد؟ فقد عاش الشاعر هذه المعاني، ونعيشها نحن اليوم لأن السعادة فقط مقصورة على الأقوياء، وإذا ما حاول الضعيف أن يسري عن نفسه فإن العقاب هو جزاء محاولته.

على أن روعة التعبير تكمن في تلك الحكم التي يسوقها الشابي ليحصل الإنسان على سعادته من أخيه الإنسان:

أفـــلا يـــسرّك أن تكـــون ضـــحيتي   فتحـــل في لحمـــي وفي أعـــصابي
إني أردت لـــــك الخلـــود مؤلهـــا   في روحـــي البـــاقي عـــلى الأحقـــاب
فكّـــر لتـــدرك مـــا أريـــد وإنـــه   أســـمى مـــن العـــيش القـــصير النـــابي

هذا هو مذهب الشابي وهذه هي فلسفته وحكمته، فهي لم تكمن في الرومانتيكية ولا في محاولة التجديد، وإنما تكمن في صوره الرائعة وألوانه المتميزة ودعواته الصريحة في إنقاذ المظلوم التي انبثقت من مواجع الشاعر الروحية والنفسية والاجتماعية التي أدت إلى مواجعه الجسدية.

أحب الشابي الحياة رغم المرض الذي نغص عليه عيشه، فرثى لنفسه حين شعر بدنو أجله، وحرض أهل شعبه للقيام من رقدته حين رأى الظلام يكتنف وطنه، وناصر المظلومين والمقهورين بصرخات متتابعة مدوية، فكان شعره صوت كل مظلوم. وكان معلماً لكل من يسعى للحرية والاستقلال، ونبّه في قصائد متعددة أن ذلك لا يكون بالأمنيات ولا بالدعوات ولا برفع الشعارات، ولكن بالقوة التي يعتبرها سبباً للنصر، وقد وضح أنواع القوة ومن بينها التخلص من الجهل الذي هو سبب كل تخلف وخنوع فقال:

يـــا قـــوم عينـــي شـــامت   للجهـــل في الجـــو نـــارا
تتلـــو ســـحاباً ركامـــاً   يتلـــو قتامـــاً مثـــارا
تلفـــي الـــشديد صريعـــاً   تبقـــي الأديـــب حمـــار

هذه صورة من الصور التي يوضح من خلالها بلاء الأفراد والشعوب، والذي يجعل الشعوب بدون سلاح العلم وقوته تحت وطأة القوي الظالم وأهدافه:

وكـــذلك تتخـــذ المظـــالم منطقـــاً   عـــذباً لتخفـــي ســـوءة الآراب

بكل هذه المعاني يظل الشابي مدافعاً عن المظلومين والمقهورين، وهو يتصور أنه واحد منهم، وتبقى قصائده نغماً عذباً على شفاه الشعوب ولكن هذا الصوت وتلك الصرخات لم تكتمل، فقد اختطفه القدر مبكراً في ميعة الشباب، ولو أمد الله في عمره لجادت هذه القريحة بالكثير من المعاني والصور، ولكن شعره يظل مدوياً ويبقى شعره يملأ الآفاق بالآمال العريضة التي تستنير بها الشعوب المظلومة والمقهورة حتى تنال حريتها.

هذا وقد كان للشابي موقفاً فكرياً خاصاً به يهدف إلى التجديد في الحياة كلها، وكان يسعى إليه دائماً بكل ما أوتي من قوة، تجديد في النواحي الأدبية والاجتماعية والسياسية

والفكرية، وهذا واضح من خلال حديثه في مقدمته لكتاب «الخيال الشعري عند العرب» حين قال: «لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة؛ أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة». وهذا ما جعله يتعاطف مع جماعة «أبولو» التي هدفت إلى تطوير الشعر العربي وتحريره من القيود والقوالب والموضوعات التقليدية التي عرفت في العصور السابقة، وخاصة في العصر الجاهلي، وكان الشابي ينشر قصائده في مجلة أبولو، ويتلقى ردود الفعل عليها حتى اشتهر وذاع صيته في بلاد المشرق. وكانت بعض هذه الردود قاسية، حيث اتهم بالمغالات والتطرف حينذاك، لأنه انتقص من آداب الأجداد على رأي مختار الوكيل، وهو من جماعة أبولو، لتقريره في كتابه الخيال الشعري قوله: «إن كل ما أنتجه الذهن العربي في مختلف عصوره، كان على وتيرة واحدة، ليس له من الخيال الشعري حظ ولا نصيب» وقد خلص إلى ما يخدم مذهبه في التجديد بقوله: «ينبغي لنا أن لا ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعدّه كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها، ليس غير...».

وقد وصل الشابي في وقت ما إلى الإحباط من بعض النقاد حين تنكر الجمهور له أثر التحريض، حين لم يجد أحداً في النادي أثر محاضرته عن الخيال الشعري «أثر مسامرته الأولى» مما عكس ذلك شعوراً محزناً لدى الشابي وهذا أوحى له قول قصيدته «النبي المجهول» ومطلعها:

أيها الشعب ليتني كنت حطاباً　　فأهوي على الجذوع بفأسي

إلى أن يقول:

أيها الشعب أنت طفل صغير　　لاعب بالتراب والليل مغسي
أنت في الكون قوة لم تسسها　　فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها　　ظلمات العصور من أمس أمسِ
والشقي الشقي من كان مثلي　　في حساسيتي ورقة نفسي

وربما جاءت آراء وأفكار الشابي بسبب المقارنة بين الآداب العربية والآداب الغربية سواء في التفكير أو أسلوب العرض أو الاستنتاج، ولم يخطر ببال الأدباء التونسيين

حينذاك أن الأدب عبارة عن وظيفة فكرية اجتماعية تتعاطى مع الحضارة في البيئات أو العصور، فالشاعر أو الأديب لا يقارن إلا بمن عاصره، وفي الإطار الحضاري الذي نشأ فيه. ومع ذلك فقد أخذ الجيل الذي تلا الشابي برأيه واقتدى به وسعى إلى تحقيق حياة قوية مشرقة، ولكن هل وقف الشابي عند الظواهر التفصيلية للأدب «القديم»؟ وهل استطاع أن ينفذ إلى جوهر الإطار الذي انبعثت منه حضارة العرب وعنه انبثقت اتجاهات الأدباء والشعراء الإنسانية العامة؟

حقيقة إن الشابي كان مفتوناً بالشعر، مولع بالدفاع عنه، ويظهر هذا الاندفاع في قصائد متعددة منها: «يا شعر» التي يقول فيها:

يـا شـعر أنـت فـم الـشعور وصرخـة الـروح الكئيـب
يـا شـعر أنـت صـدى نحيـب القلـب والـصبِّ الغريـب
يـا شـعر أنـت مـدامع عَلِقَـتْ بأهـداب الحيـاة
يـا شـعر أنـت دم، تفجـر مـن كلـوم الكائنـات
يـا شـعر يـا قيثـارة الأحـلام يـا ابـن صـبابتي
لـولاك مـت بلـوعتي وبـشقوتي وكـآبتي
فيـك انطـوت نفـسي وفيـك نفخـت كـلّ مـشاعري
فاصـدح عـلى قمـم الحيـاة بلـوعتي يـا طـائري

وفي قصيدة أخرى «شعري» يقول:

شـعري نفاثـة صـدري   إن جـاش فيـه شـعوري
لـولاه مـا انجـاب عنـي   غـيم الحيـاة الخطـير
ولا وجـدت اكتئـابي   ولا وجـدت سروري
بـه تـراني طروبـاً   أجـر ذيـل حبـوري

وكان عفيفاً في شعره غير متكسب أو ناظراً إلى نوال أو عطايا وإنما كان يقصد الشعر ليروي به فكره وعقله وهو في هذا يقول:

لا أنظـم الـشعر أرجـو   بـه رضـاء الأمـير
بمدحـة أو رثـاءٍ   تهـدى لـربِّ الـسرير
حـسبي إذا قلـت شـعراً   أن يرتـضيه ضـميري

كان ينظر إلى الشعر على أنه حبيب أو صديق أو عشيق، يشخصه ويجسمه ويتحدث إليه، ينظر إليه على أنه وسيلته التي ينفث إليها ما في صدره وها هو يقول: «قلت للشعر»:

أنــت يــا شــعر فِلــذة مــن فــؤادي		تتغنــى وقطعــة مــن وجــودي
فيــك مــا في جــوانحي مــن حنــين		أبــديّ إلى صــميم الوجــود
فيــك مــا في خــاطري مــن بكــاء		فيــك مــا في عــواطفي مــن نــشيد
أنــت يــا شــعر قــصة عــن حيــاتي		أنــت يــا شــعر صــورة مــن وجــودي
أتحــساه في الــصباح لأنــسى		مــا تقــضى في أمــسيَ المفقــود
وأناجيــه في المــساء ليلهينــي		مــرآه عــن ظــلام الوجــود
فيــك مــا في الوجــود مــن نغــم		حلــو ومــا فــيهم ضــجيج شــديد

واستجابة لفكرته وإيمانه وإحساساً بمذهبه الأدبي، راح يقدم فكره هدية لغيره، فقد خاطب الجمهور بشرائحه وخاطب الفنان بشعوره فقال في قصيدته «فكرة الفنان»:

عــش بالــشعور، وللــشعور فــإنما		دنيــاك كــون عواطــف وشــعور
شــيدتْ عــلى العطــف العميــق وإنهــا		لَتَجِــفُّ لــو شــيدتْ عــلى التفكــير
وتظــل جامــدة الجــمال كئيبــة		كالهيكــل المتهــدِّم المهجــور
وتظــل قاســية الملامــح جهمــة		كــالموت مُقفــرة بغــير سرور
واجعــل شــعورك في الطبيعــة قائــداً		فهــو الخبــير بتيههــا المــسحور
وافــتح فــؤادك للوجــود وخلِّــه		للــيمِّ، للأمــواج، للــدَّيجور
فتعــيش في الــدنيا بقلــب زاخــر		يقــظ المــشاعرِ حــالم مــسحور
في نــشوة صــوفيَّة قدســيَّةٍ		هــي خــير مــا في العــالم المنظــور

هكذا كان الشابي في فلسفته وفي عناصر تفكيره، نشوة صوفية قدسية، لها علاقة بأحلام الروح وآلام الجسد، وهكذا كان الحب عنده يسمو في نفسه إلى حد القداسة، لا تتنازعه شهوة بل يقتصر على النشوة، يستمده من المرأة والطبيعة، فالحب عنده كمال الطبيعة والنفس وهو الزهرة المتفتحة وهو النسمة التي يتضوع منها العبير وهو الجمال والخير والفن وهو يستدعيه ليدرك به سعادته:

كــبلي يــا سلاســل الحــب أفكــاري وأحــلام قلبــي الــضليل

كبليني بكل ما فيك من عطر وسحر مقدس مجهول
كبليني فإنما يصبح الفنان حراً في مثل هذه الكبول

حبه في شعره عذري، حب أحلام وأماني يحمل في طياته نشوة وذهول وحنو وخفوق، يتحدث عنه من بعيد:

ليتني كنت زهرة تتثنى بين طيات شعرك المصقول
أو فراشاً أحوم حولك مسحوراً غريقاً في نشوتي وذهولي
أو غصوناً أحنو عليك بأوراقي حنو المدلّه المتبول
أو نسيماً أضم صدرك في رفق إلى صدري الخفوق النحيل

فهو يتحدث عن الحب في توحد الوجود وائتلاف عناصر الحياة من جمال وسعادة وامرأة وطبيعة وغناء، وتراه في قصيدته «تحت الغصون» يقفز إلى الطبيعة بألوانها وأشكالها ليعبر عن حبه برومانسية يبتدع فيها أشواقه وأحلامه في عالم متحرر من قيود الحاجة والداء والضرورة، وتراه لشدة إغراقه بالطبيعة فإنه يتغنى بالعبير والربيع كما يراهما:

للعبير الذي يرفرف في الأفق ويغني مثل المنى في سكون
للربيع الذي يؤجج في الدنيا حياة الهوى وروح الحنين

ويتعرض إلى عيون الحبيبة فيغرق في التداعي والتخيل بعذوبة شديدة فيقول:

أيّ دنيا مسحورة أي رؤيا طالعتني في ضوء هذه العيون
زمرٌ من ملائك الملأ الأعلى يغنّون في حنو حنون
في فضاءٍ مورّدٍ ساهٍ أطافت به عذارى الفتون

ويسير في وصف عالم الحب ليصف الطبيعة بمعبد الحب فيقول:

معبداً للجمال والحب شعرياً مشيداً على فجاج السنين
تحته يزخر الزمان ويجري صامتاً في سبيله المحزون
وتمر الأيام والحزن والموت، بعيداً عن ظلّه المأمون

وهكذا نراه يضيف بُعداً وجودياً جديداً يتنازع فيه مصيره وإحساسه، مفجوعاً بالزمن وهموم البقاء والفناء.

الشابي وأقرانه من الشعراء

وُلد الشابي في العقد الأول من التسعينيات في تونس، وقد تركت هذه الفترة من التاريخ العربي أثراً واضحاً في شعرنا الحديث، مرحلة بعث جديدة ازدادت مع الأيام قوة حتى أصبح اليوم تياراً يسوق القارئ نحو آفاق تختلف عن العصور التي سبقته، وقد كان لهذا التيار ظروفه السياسية والثقافية والاجتماعية، ولعل أهم ما جدّ على شعرنا الحديث هو التجديد في المفهوم والتعبير، وربما كان هذا التجديد ناتجاً عن الاتصال المباشر بالغرب أو البعثات العلمية ونشاطاتها أو دخول المطابع إلى البلاد العربية وحركة الترجمة ونشوء الصحافة.

عاصر الشابي ثلة من الشعراء على امتداد الوطن العربي، والذين تأثروا بالأحداث الجارية وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فاستجابوا لحاجات الأمة في إذكاء العواطف الوطنية وناهضوا المحتل من الدول الأجنبية والغريبة للرحيل عن الديار العربية، وكأنهم وضعوا نصب أعينهم تحريض الجماهير العربية على التسلح بالعلم وقهر الجهل والتمسك بأسباب القوة، وجاءت جل أشعارهم على هذا المضمون، ومقابل ذلك فقد اهتموا بشكل القصيدة متأثرين بالثقافات الأخرى، وكان من أهم ذلك هو تغيير بنية القصيدة العربية.

ثم قامت معارك أدبية حادة بين فصائل الشعراء فمنهم من دعا إلى إحياء التراث القديم أمثال محمود سامي البارودي وبين دعاة التغيير والتجديد والإصلاح، وكان كتاب الدكتور طه حسين «في الأدب الجاهلي» مثالاً على ذلك.

ومن الذين عاصروا الشابي من شعراء الوطن العربي فوزي المعلوف وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران من أدباء المهجر، كما عاصره أديب مظهر وأبو شبكة من لبنان، وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه من مصر، وفهد العسكري من الكويت. أما من الأردن فقد عاصره مصطفى وهبي التل ومن فلسطين كان إبراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود ونتجاوز بعض السنين فنقول بدر شاكر السياب من العراق، وهناك عدد غير قليل أيضاً عاشوا في نفس الفترة الزمنية.

وكان بين هؤلاء تشابهاً في بعض جوانب حياتهم، مع أن كل واحد منهم يعيش في بلد من بلدان الوطن العربي، لكنه كان يجمع بينهم حس قومي ووطني واحد، وهو دعوة الشعب إلى النهوض لنيل الحرية من المحتل الجاثم على أرض الوطن العربي.

لم يعش الشابي فترة طويلة فقد وُلد عام 1909 وتوفي عام 1934 وقليل هم الشعراء الذين عمّروا كثيراً، وقد شهد تاريخنا العربي ثلاثة شعراء قضوا في ميعة الشباب، وأعني أنهم ماتوا وأعمارهم لم تصل الثلاثين ربيعاً وكان أقدمهم طرفة بن العبد ثم أبو فراس وثالثهم شاعرنا أبو القاسم الشابي، الذي فاق أقرانه رغم قصر حياته، وليس من باب الصدفة أن يلتقي هؤلاء الشعراء في مجمل إنتاجهم الشعري على الإقبال الشديد الحار المتوثب على الحب وعبادة الجمال أو نشدان الحياة العنيفة أو الإحساس بالفراغ والألم وباختصار ... في الرومانطيكية[1].

كما ويلتقي الشابي مع إبراهيم طوقان في قصر العمر حيث وُلد طوقان عام 1905 وتوفي عام 1941، وكان الشابي مريضاً بالقلب بينما كان طوقان مريضاً بالمعدة التي أنهكت قواه ورافقه مرضه حتى وفاته وكان كل منهما مهزول الجسم ضعيف البنية متألماً حزيناً بسبب هذا المرض وقد بدأ كل واحد منهما شاعريته صغيراً يعبر بها عن صباه. ويلتقي مع السياب أيضاً في بداياته الشعرية ومصاحبة المرض له فترة الحياة القصيرة التي عاشها.

وأنا في هذا الكتاب لا أريد المقارنة بين هؤلاء الشعراء، وإنما هي عبارة عن مدخل لرؤية أبي القاسم وعلاقته مع أقرانه في فترة زمنية من حياة كل واحد منهم. ولنخلص في باب آخر إلى تأثره بغيره وقد دعا كل واحد منهم إلى قضايا وطنه، متبرماً من السياسيين داعياً إلى الأخذ بأسباب القوة من أجل الخلاص، وكان كل واحد يتراوح بين التشاؤم والأمل.

لقد كان التشابه بين الشابي وطوقان شديداً فكلاهما ساير التطور في الثقافة، محاولاً تجديد الموضوعات والبناء محاكين الآخرين من خلال المذهب الرومانسي الذي يساير الشباب فتشابها في الشعور والطبع ورقة الشمائل، مع أن طوقان في وطنياته كان أقرب إلى مجتمعه والشابي أطلق العنان لشاعريته وشعوره من خلال الطبيعة والتأمل

بين الشابي وجبران

كانت مطالعات الشابي واحدة من عناصر شخصيته التي طبعت نفسه وشعره، مما أدى إلى تأثره الشديد بأدب المهجريين أمثال جبران خليل جبران، والحديث هنا ليس

(1) عبداللطيف شرارة، الشابي، دراسة تحليلية.

مقارنة أو توازناً بين الشابي وغيره من الشعراء، وإنما هو حديث لمعرفة اتجاه وفكر الشاعر لأن الشابي ربما يكون أشعر من الذين حذا حذوهم. يقول أبو القاسم محمد كرو في كتابه الشابي قوله: «حيث عرف عن الشابي أنه كان يكثر من قراءة الأدب المهجري وحفظ أشعاره وليس من شك في أن النفس البشرية تتأثر أشد ما تتأثر في طفولتها»[1].

فقد علق ما قرأه وطالعه في ذهنه وفكره وبكل صوره في الوجدان، وطبع ما حفظه وهو دون الخامسة عشرة. فبقيت عالقة بألوانها وصورها في بداية حياة الشابي مما قاد خياله وحسه إلى معابد الطبيعة وهياكلها الغريبة، فاستمع لأغانيها الناعمة وكشفت له عن مواطن الجمال والفتنة واستراح لرحيق الأزهار المتنوعة، فهام بحب الحياة الراقصة كالأمواج وسنابل القمح، فردد أنغام السماء على مسامع الكون، فإذا بشعره أنشودة ساحرة خالدة حتى كان شعره «أعمق من جبران وأصدق تعبيراً».

وقد أنصف الشابي تونس في شعره، فحث قومه على الرقي فعده أبو القاسم محمد كرو نموذجاً للكفاح والبطولة وهذا واضح في شعره.

وتتفق معظم الدراسات على تأثير جبران في الشابي، ووصفوا الشابي بأنه تلميذ جبران ولذلك جاء التأثر واضحاً، في الخصائص الفنية وفلسفة الحياة، فكيف كان هذا التأثير؟

قامت فلسفة جبران في حياته على الحب والحرية والتمرد، وهذه العناصر هي التي شكلت مضمونه الأدبي التي انبثق عنها رؤية الحياة في المشرق، وحددت أهدافه في الحياة المشرقية التي كانت غارقة آنذاك تحت وطأة الجمود والتخلف عن الركب الحضاري بعوامل استعمارية، فنشط الأدباء يبينون أسباب هذا الجمود ويثورون لنيل الحرية والاستقلال، ومن هؤلاء جبران الذي ظهر كالثورة العاصفة في أدبه داعياً إلى النهوض حتى بلغت أحياناً إلى العنف، ثم انتهى به الأمر إلى الثورة على كل قديم وآمن بأن بلية الأبناء هو ميراث الآباء، لأنه كان يرى أن الشرقيين يعيشون في الماضي ويرفضون المبادئ والتعاليم الجديدة التي تنبههم من رقادهم العميق. كما ظهرت دعوات في أدبه إلى احترام وتقديس الحب وارتفع بالمرأة عن الحدود المادية، وابتعد في غزله عن الجسد لأنها أم وكان

---

(1) الشابي، أبو القاسم محمد كرو، ص97.

يقول: «... ولكنهم للآن لم يفهموا أسرار قلبها ومخبآت صدرها، لأنهم ينظرون إليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يرون فيها غير الضعف والاستسلام».

كما تمرد على الكهانة والرجعية الدينية، فكان يرى جبران «أن الكهانة هي الحرفة الأولى التي ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داع طبيعي لها»[1]. وهو بذلك كان يريد إعادة كرامة الإنسان وتحريره من تلك القيود، ثم يسلط نيران غضبه على رجال الدين الذين - باعتقاده - كانت تصور جميع صور الاستغلال ومحاربة التجديد، وهذا ما كان يراه بلية الشرق، وقد اتهم جبران نتيجة ذلك بالخروج عن الدين كما اتهم الشابي بالتطرف، وهذا ما كان له أثره البالغ في إحساسهما بالغربة فكان جبران يقول: «أنا غريب في هذا العالم، وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة، غير أنها تجعلني أفكر أبداً بوطن سحري لا أعرفه... أنا غريب وليس في الوجود كله من يعرف كلمة نفسي. أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة، وأنثر ما تنظمه، ولهذا أنا غريب. وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني».

كما أحس الشابي بالغربة في بلده لأنه يعتقد أن الجمهور لم يفهم أناشيده التي يظهر فيها حائراً متردداً حين يقول:

إني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطلعاً بأحزان الشبيبة والمشيب
يا صميم الوجود كم أنا في الدنيا غريب، أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي
فالشابي كما تراه يشكو غربته.

ورغم ذلك فقد انطوى هذا التمرد عند الاثنين على معاني تقديس الطموح والدعوة إلى التطور، حتى نصب جبران نفسه حفاراً للقبور كما لخص فلسفته في قصة (البنفسجة الطموح) في قوله: «إنما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود» وقد قصد من ذلك محاربة الخضوع والاستسلام لفلسفة القضاء والقدر التي تعيق البشر عن اليقظة.

---

(1) دراسة للأستاذ خليفة التليسي.

والشابي كان يؤمن بالطموح ويسعى إليه بالبحث في شعبه ويتطلع إلى ما وراء الوجود ومن هنا كانت صرخته:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أي يستجيب القدر

فهو يعلن أن الطموح حبيب الحياة وروح الظفر. وشعر الشابي حافل بهذه المعاني فهو شاعر الحب والثورة وشاعر الحب والحياة، الداعي إلى نور المستقبل الثائر على العيش في ظلام القديم.

والشابي وجبران يتشابهان في مصادر هذه الوطنية التي انطلقت من الاصطدام بالاستسلام إلى الجمود.

أما التشابه في الخصائص الفنية، فقد اتضح ذلك بينهما في تمجيد الفن والسمو به، حيث اتخذ جبران من الفن رسالة بعث وإحياء، فراح ينتقد التقاليد الأدبية التي تعنى بزخرفة الألفاظ والبديع، وقد آمن بأن نجاح الشاعر يحدده رصيده الفني وملكته الشاعرية، حتى ذهب إلى القول بأن قوة الابتكار، إنما تكمن في لسان الشعراء المخلصين لأنفسهم وفنهم.

تفرد جبران بقوة الإيحاء وبساطة التعبير والانفعال الحاد وصدق الشعور وانتزاع صوره من الطبيعة، وقد أسعفه إلى ذلك ملكته على خلق صور رائعة وهناك أمثلة كثيرة على ذلك تبين تأثر الشابي بجبران، فهذا جبران يقول:

من يهوى النور فالنور يهواه

والشابي يقول:

ومن ناجت النور أحلامه يباركه النور أنى ظهر

وهذا الشابي يقول أيضاً «أضاع الرشاد في ملعب الجن فيا بؤسه أصيب بمس» عبارة قالها الشابي متأثراً بجبران حين أومأ رهط من الشيوخ قائلين: «هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان».

كما يظهر أثر جبران واضحاً في قصائد الشابي ومنها قصيدة «النبي المجهول» التي حملت أفكار التمرد الشابية والتي استوحاها من جبران، فقال الشابي:

في صباح الحياة ضمخت أكوابي وأترعتها بخمرة نفسي

ثـم قـدمتها إليـك، فأهرقـت رحيقـي ودسـت يـا شـعبُ كـأسي
فتألمـت .. ثـم أسـكت آلامـي وكفكفـت مـن شـعوري وحـسي
هـا أنـا ذاهـب إلى الغـاب يـا شـعبي لأقـضي الحيـاة وحـدي بيـأسي

وليس بالضرورة أن نؤكد ما تغنى به جبران بنغمة الغاب والعيش بين طيور وأشجار الغابة مفكراً في أسرار الوجود.

لقد قدس الشابي يقظة الإحساس، وجعله كل شيء في حياته، فاليقظة عند جبران تجعل منه بطلاً غريباً بين الناس لا ينقاد إلى تعاليمهم وتقاليدهم، لأنه يحس بنفسه ويشعر بذاته. وهذه اليقظة أيضاً هي التي شعر بها الشابي حين قال: «ومن شعر بنفسه حق الشعور احترمها وسما بها عن مواطن الضعة والحقارة، ومن شعر بالحياة حق الشعور لم يستطع أن يكون بوقاً يردد صدى غيره».

فالمشابهة بين الشابي وجبران جاءت نتيجة دراسة عميقة لأدب جبران وفكره، وهذا واضح في شعر الشابي وتأثره بجبران وبالأدب المهجري، فأسلوبه النثري كما هو واضح متأثر بأسلوب جبران، كما هو في أسلوبه الشعري أيضاً.

غير أنني أؤكد أن البحث يحتاج إلى أكثر من هذا لتوضيحه، وإنما هي فكرة موجزة وملخص يبين تأثر الشابي بجبران وبأدبه وفنه وركونه إلى الطبيعة بتعبير بسيط وشعور صادق تتلمذ فيها الشابي على جبران.

بين الشابي والتجاني

قامت دراسات متعددة تتحدث عن الشابي مع أقرانه، وكان منها دراسة للدكتور عبدالمجيد عابدين وأثبتت في كتاب دراسات عن الشابي من إعداد أبي القاسم محمد كرّو، تعرض فيها الكاتب حول ما أشيع من علاقة بين الشابي والتجاني «شاعر الجمال». واعتمد في الدراسة على ما ورد في كتيب للأستاذ أبي القاسم بدري بعنوان «الشابي والتجاني» كما اعترف الدكتور عبدالمجيد في غير هذا الكتاب. كما اعتمد في دراسته «الخيال الشعري عند العرب» ثم كتاب «الشابي حياته وشعره» وغير ذلك مما وقع بين يديه من مراجع. وقد جاءت دراسة الكاتب مستفيضة، وضع فيها رأيه وبيّن وجه الاتفاق ووجه الاختلاف بين الشاعرين. وفي بداية الدراسة قدم الكاتب لرأي الأستاذ (أبو القاسم بدري) والذي تناول وجوه الشبه بين الشاعرين في النشأة والثقافة وفي النزعات

النفسية والفلسفية، وفي النظرة القومية والاتجاه الفني، حتى أن الباحث يعتقد أن الشاعرين أخوان حيث نشآ في بيئة دينية محافظة، ونهلا من ثقافة عربية إسلامية ودرس كل منهما الترجمات الواردة من الكتب المترجمة عن الثقافة الغربية، لأنهما لا يعرفان غير اللغة العربية، ثم جاء إلى الجانب الصحي فكلاهما مريض وعاشا فترة قصيرة فكان الشابي قد قضى وهو ابن خمسة وعشرين عاماً والتجاني قضى في نفس العمر. وهما متشابهان أيضاً في نزوع كليهما النزعة الصوفية الزاهدة عن الملذات الجسدية من غير عزلة عن حياتهما الاجتماعية، وتأثرا بما يجري في بلديهما من جمود وفقر وانحطاط وجهل ومرض، ولذلك تبرما من قومهما وتشاءما من حياتهما وحاولا إصلاح المجتمع بالنقد وإن جاء من إحساس بالضعف والخضوع.

ويرى الأستاذ أبي القاسم بدري أن للشاعرين فلسفة متقاربة من روحهما بثورتهما على الأوضاع إلى جانب التقارب في النشأة والتطور. أما في المجال الشعري فقد تشابها في النظم والتعبير وتصوير الطبيعة والأحداث الوطنية والحب والجمال والعاطفة والوجدان وتصوير الحالات النفسية.

واعتبر الدكتور عبدالمجيد الدراسة بأنها تستحق التقدير، لكنه وضح بأن المقارنة بين شاعر وشاعر ليس بالأمر السهل ولا يتحقق إلا بدراسة واعية لشعر كل واحد من الشاعرين من جهة، ولحياة كل شاعر من جهة أخرى. ويرى أن مؤلف الكتاب ويعني أبا القاسم بدري رجع إلى مقالة كتبها حسن سباطة في مجلة الرسالة، وربما كانت هي المرجع الوحيد في الدراسة لأنه لم يذكر مراجع أخرى.

أما الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو فله كتاب فصل فيه حياة الشابي من خلال البيئة التي عاش فيها الشابي وأورد مجموعة من شعره، وقد وضح فيه فن الشابي ونظرته إلى الحياة بشكل يختلف عن فن التجاني ونظرته إلى الحياة، وهو يقول: «لقد حاولت جهدي أن أنشد من خلال ما كتبه الأستاذ الفاضل وجهاً واحداً من وجوه الشبه بين فني الشابي والتجاني، فلم يهدني إدراكي إلى شيء من ذلك يقنعني، وسوف أراني مضطراً إلى توضيح رأيي وهو يقوم على أن الشاعرين الشابي والتجاني مختلفان من حيث الاتجاه الفني والنزعة الفكرية، اختلافاً أساسياً».

أولاً: مسألة النظم والتعبير: وضح الدكتور عابدين أن التعبير عند الشاعرين مختلفاً في الأسلوب، فالشابي يؤثر في معظم قصائده العبارة التحليلية السهلة، فلا يوجد في شعره

معاظلة ولا تراكباً، وليس في تركيبه شيء من الغموض أو التعقيد، ويعتمد أسلوب الحكاية والسرد القصصي، ويمثل على ذلك بالأبيات:

وفي ليلة من ليالي الخريف ... مثقلة بالأسى والضجر
سكرت بها من ضياء النجوم ... وغنيت للنهر حتى سكر
سألت الدجى هل تعيد الحياة ... لمن أذبلته ربيع العمر
فلم يتكلم فؤاد الظلام ... ولم تترنم عذارى السحر
وقال لي الغاب في رقة ... محببة مثل خفق الوتر
يجيء الشتاء شتاء الضباب ... شتاء الثلوج شتاء المطر
فينطفئ السحر سحر الغصون ... وسحر الثمار وسحر الزهر

وبهذا الأسلوب الحواري يستمر الشاعر ليستفهم ويتلقى الجواب متدفقاً بعباراته في هدوء وتفصيل.

أما التجاني فيقرر الدكتور عابدين أنه يؤثر الحبكة القوية والعبارات المتراكبة المركزة باستثناء قصيدة (القمر المجنون) فكما جاء الفرق في الأسلوب الشعري بين تحليل العبارة عند الشابي والميل إلى الحكاية، فإن شعر التجاني تركيبي العبارة يميل إلى التركيز والإيحاء، ثم كان الفرق في الكتابة النثرية فالتجاني في مقالاته النثرية، يجنح إلى التماسك والحبكة ولا يميل إلى السرد القصصي، أما الشابي فقد كتب قصة (في المقبرة)، وقصة (جميل بثينة) كما كتب مسرحية «السكير». والتجاني لم يعهد له كتابة قصة أو مسرحية.

ثانياً: تصوير المناظر الطبيعية: قلما تخلو قصيدة من قصائد الشاعرين من وصف المناظر الطبيعية والمرئيات، ومع ذلك فهناك اختلاف في وصفهما، حيث اعتنى الشابي بالطبيعة والإكثار من تصويرها، وكانت ظروف حياته ومرضه تتدخل في ذلك، فقد كان الشابي مصاباً بتضخم القلب، ولذلك نصحه الأطباء بالعيش في الجبال وبين أحضان الطبيعة حيث الغابات والبساتين والأودية والأنهار، فمضى يجوبها صيفاً وشتاءً لمدة ثلاث سنوات يتغنى بأجمل قصائده وأروع نظمه فيها. ويختلف التجاني في هذا عن وصف الشابي، مع أنه قلّ أن ينظم قصيدة تخلو من وصف المناظر الطبيعية والمرئيات ورسم صور ما يراه.

ثالثاً: تصوير الأحداث الوطنية: يوضح الدكتور عابدين أن الشاعرين اختلفا أيضاً في هذا الجانب، ووجد أن التجاني له صيحات صادقة تتجه إلى بعض طبقات المجتمع

الذي يعيش فيه، أما الشابي فله مجموعة من الشعر الوطني الكفاحي تتجلى فيه نظرته إلى شعبه كله، وبين وسائل الخلاص ممن استعبد شعبه وأوجعه وقهره، وقد استمد الكاتب رأيه من المجموعات الشعرية لكلا الشاعرين.

رابعاً: تصور الحب والجمال: أوضح الكاتب أن الجمال عند التجاني كان مجاله أوسع وأكثر تنوعاً، وكانت مظاهر الجمال واضحة جلية في شعره، ويتجلى الجمال الإلهي في شعره الصوفي. أما الشابي فكان حب الطبيعة أبرز ما اتجهت إليه عاطفته، وقد وصف الجمال البشري، ويلاحظ الغزل البشري في قصيدتين هما: «الساحرة» و«تحت الغصون» ويتجلى الغزل الحسي حيث تفتنه مفاتن الجسد، وحركات المرأة وملامحها وهو بهذا يختلف عن غزل التجاني الذي يتجلى في السمو عن الجسد وينشغل بما وراء الحس.

ويُعلِّل الكاتب سبب ذلك، بأن حب الشابي للمرأة جاء في مرحلة مبكرة قد تجاوزها التجاني حتى وصل إلى الجمال الصوفي الأسمى، فحب الشابي للمرأة لم يتغلغل إلى أعماق نفسه حتى أورد أبو القاسم محمد كرّو أن الشابي لم يحب في حياته حباً عنيفاً. وقد أورد الكاتب قصيدة عنوانها «أيتها الحالمة بين العواصف» بأنها ليست غزلاً بامرأة كما جاء في كتاب الأستاذ بدري وإنما هي أبيات خاطب الشاعر بها نفسه وموهبته الفنية. وأن الشابي قد أحب إلى جانب الطبيعة فنه وموهبته وأعجب بهما فاتخذ من بعض قصائده متنفساً له في حياته الأليمة البائسة.

خامساً: التجديد عند الشاعرين: يعتبر الأدباء الشاعرين مجددين، والشعراء المجددون في عصر هذين الشاعرين كثيرون في الوطن العربي، فهل كانوا جميعاً متشابهون؟

الشابي تأثر بالأدب المهجري تأثراً مباشراً واضحاً من خلال قراءته لجبران ونعيمة وأبي ماضي، كما حفظ أشعارهم وردد حب الطبيعة الوادعة وتصوير الغابة وجمالها وتأثر بأسلوبهم السردي القصصي ووضوح العبارة.

أما التجاني فقد قرأ الأدب المهجري، لكن تأثره به كان قليلاً.

وفي ختام دراسته أوضح الدكتور عبدالمجيد عابدين أن التشابه بين الشاعرين قد اقتصر على صور وتعبيرات متناثرة هنا وهناك، «من تلك الحصيلة المشتركة التي تكاد تكون بين الشعراء المجددين على اختلاف مذاهبهم وشخصياتهم» وتبقى مشابهة أخرى بينهما في تقارب السن والمرض.

وعلى أي حال، فإن الشابي والتجاني شاعران متعاصران ومتشابهان، يفترقان في بعض الميزات لكنهما يلتقيان في كثير من المواهب. فكلاهما من أسرة عريقة لها جذور دينية وكلاهما اهتم في بداية حياته بعلوم الشريعة، وكلاهما وقفا عند اللغة العربية ولم يتعلما لغة أجنبية وكلاهما نهل من الترجمات الذي أطلق خياليهما، وكلاهما أصيب بالمرض الذي أعاق تقدمهما، فماتا في عنفوان الشباب، وكلاهما عاش وسط العقد الخامس ولم ينعما بطيب العيش ولذة الحياة، ثم تشابها بنظرتهما الفلسفية التي صبغت شعريهما التي نزعت إلى التصوف والزهد عن الملذات الجسدية والذي ظهر في التبرم والسخط على أحوال المجتمع والتطلع إلى الأحلام التي تخلصهما من واقع مرير وحاضر بائس، جراء الاستعباد والاستبداد، فأدى كل واحد منهما رسالته التي كان يرمي إليها من أجل تحرير بلده باستفزاز مشاعر الشعب بعد تصوير أحواله وتجسيم آلامه.

وباختصار: الشابي والتجاني شاعران معاصران ومتشابهان، يلتقيان في كثير من مواهبهما، ويفترقان في بعض الميزات. تشابها في وضع الأسرة والدراسة والبيئة الدينية والأخذ من الترجمات، وتقاربا في المرض، كما تشابها في الفلسفة التي صبغت شعريهما ونزوع كل منهما نزعة التصوف والزهد عن الملذات الجسدية دون أن يعيشا بمعزل عن الحياة الاجتماعية في بلديهما، كما نجد في شعريهما تبرماً وسخطاً على أحوال المجتمع والتطلع إلى مستقبل جميل بإطلاق خياليهما وكلاهما مات في عنفوان الشباب عندما بدأا يقدمان إنتاجهما المبدع وفكرهما الخلاق.

الرمز في شعر الشابي

جاء الرمز في شعر الشابي متداخلاً ومركباً، حيث كشف فيه عن صراع الأضداد، مستخدماً أكثر من رمز بدلالة واحدة، فقد ورد الليل والمساء بدلالة واحدة، أو الفجر والصباح أو الفجر والربيع أو الصباح والربيع، ثم كشف أيضاً عن تصارع الليل والحلم أو الخوف والربيع وهكذا، وتفهم هذه الدلالات من خلال القصائد الواردة فيها.

وقد عبر الشابي عن صورة الليل للظلم والحزن وقتل الأحلام واستخدمها للغربة والرهبة والضعف، كما استخدمها أحياناً رمزاً للحب والجمال وإن غلبت عليه دلالة الحزن والظلمة خاصة عندما يقول:

لست أبكي لعسف ليل طويل   أو ربيع غدا العفاء مراحه
إنما عبرتي لخطب ثقيل   قد عرانا ولم نجد من أزاحه

فقد ركب كما تلاحظ صورة الليل مع العسف الطويل والحديث في البيت عن المستعمر الذي طال بقاؤه على أرض تونس، مع وضوح ضعفه اتجاه هذا المحتل، وهو لا يملك إلا الدمعة، إذن هي رمز للظالم والظلم الذي يصرخ اتجاه بعض مظاهره.

وقد استخدم الشاعر وجوهاً كثيرة أو قل رموزاً لهذا الظلم بدلالة الحزن:

أزنبقة السفح ما لي أراك   تعانقك اللوعة القاسية
أأسمعك «الليل» ندب القلوب   أأرشفك الفجر كأس الأسى؟

فالليل يسمع ندب القلوب الحزينة الباكية المتوجعة، وأنات المقهورين:

فلربما كانت أنيناً صاعداً   في الليل من متوجع مقهور

والليل عند الشابي طيف كئيب، رهيب مريع مخيف، طويل:

إن ليل النفوس، ليل مريع   سرمدي الأسى شنيع الخلود

أو قوله:

ينبثق الليل طيفاً كئيباً   رهيباً، ويخفق حزن الدهور

كما يمثل في طور آخر الغربة كوجه من وجوه الليل:

والسعيد السعيد من عاش كالليل غريباً في أهل هذا الوجود

ومن قسوة الليل عند الشابي أنه يحمل في ظلامه الأشباح:

وكم رأى ليلك الأشباح هائمة مذعورة تتهاوى حولها الرجم

ومن قسوة الليل أيضاً أنه يحمل الألم والرهبة والبؤس:

أيها الليل يا أبا البؤس والهول يا هيكل الحياة الرهيب
أنت يا ليل ذرة صعدت للكون من موطئ الجحيم الغضوب

وفي نهاية المطاف، يفقد الأمل من هذا الليل الأسود فيخاطبه:

أيها الليل ، أنت نغم شجي في شفاه الدهور بين النحيب

هذا وجه سوداوي لليل عند الشابي، لكن الشابي في جهة أخرى يحمل الليل دلالات السحر والحب والأحلام والهدوء والسكينة، هذا الظلام الجميل يمتلئ بالأحلام، فقد بنى حوله وحبيبته معبداً للجمال، وهي صورة مخالفة للصورة السابقة وهذه هي عاطفة الرومانسي:

وبنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكون
معبداً للجمال والحب شعرياً مشيداً على فجاج السنين

وما بين هاتين الصورتين لليل، بين سخطه وحبه لليل يبني الشابي صورة ثالثة مع ليالي الخريف لتحمل دلالة أعمق وأقوى فيها الذبول وسقوط أوراق الأشجار، ومع كل هذا فهو حريص أن تبقى الأزاهير والأعشاب قوية لا تستطيع الليالي إخفاءها:

إن في الغاب أزاهيراً وأعشاباً عذاب
واخضراراً أبدياً ، ليس تمحوه الليالي

ومع ذلك فقد صور الشابي بين رموزه الكثيرة عن الليل، أنه لا بد أن ينقشع ظلامه أو قيده في صورة مركبة رائعة:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد «لليل» أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

فلا بد لليل أن يزول، كما أنه لا بد لقيد المستعمر أن ينكسر، شريطة أن يطلب الشعب الحياة فيتحرر من المستعمر الظالم، وأمام قوة الشعب وعنفوانه فلا بد أن تأتي الحرية.

وأمام صورة الليل القاتمة غالباً يبزغ الفجر في شعر الشابي وقد حمل الفجر رموزاً ودلالات، فهو مشرق وجميل وفيه آمال وحرية وهو خالد لا ينتهي، وهو يتغزل بالفجر:

وتغزلـــت بـــالربيع وبـــالفجر   فـــماذا ســتفعل الـــريح بعـــدي

ثم يقول:

غنتـــي أنـــشودة الفجـــر الـــضحوك   أيهـــــا الـــــــصداح
فروحـــاً بفجـــر الخلـــود البهـــيج   ومـــا حولـــه مـــن بنـــات النجـــوم

ثم يأتي بالضدين في بيت واحد:

في رقـــة الفجـــر الوديـــع   وفي الليـــــالي الحالمـــــة

لأن الفجر ساطع واضح في نوره لا ينتهي بل هو مستمر مع الزمان:

ولـــه فجـــر عـــلى طـــول المـــدى   ســـــاطع الأنـــــوار

والفجر في نفس الشابي هي الحياة، فإذا انقضى الفجر ضاعت الحياة:

وانقـضى الفجـر فانحـدرت في الأفـق   ترابـــاً إلى صـــميم الـــوادي

وهو رمز الخلاص من أسر الليل ولذلك فإنه يترقبه:

وأعـــده فجـــري الجميـــل، إذا أدلهـــم عـــليّ دهـــري
خـــذني فقـــد أصـبحت أرقـــب في فـــضاك الجـــون فجـــري

والفجر رمز الحرية التي تسعى إليها تونس.

وتطبق أجفانـك النيّرات عـن الفجـر ، والفجـر عـذب ضيـاء

وفي المحصلة فإن الفجر عند الشابي ربيع الحياة وأولها، وهو واهب الأمل وهو الفرحة والابتسامة ولذلك فإنه يحلم بعودته وهو دائماً يتأمل السماء ليرى مبسم الفجر المنتصر دائماً على الليل، وكان أحياناً يستخدم رمز الصباح موازياً للفجر:

وصـــبح الحيـــاة لا يـــوقظ المـــوتى   ولا يـــرحم الجفـــون الكليلـــة

والصباح يقابل النواح عند الشابي في قوله:

مـــات عهـــد النـــواح   وزمـــــان الجنـــــون

ويستخدم أحياناً النور موازياً للفجر والصباح فيقول:

يـــا أيهـــا النـــور النقـــي وأيهـــا الفجـــر البعيـــد
أيــن اختفيــت ومــا الــذي أقــصاك عــن هــذا الوجــود
آه ! لقـــد كانـــت حيـــاتي فيـــك حالمـــة تميـــد
بـــين الخمائـــل والجـــداول والـــترنم والنـــشيد

وكان الشابي يضفي على صوره الشعرية ورموزه إيحاءات قدسية كقوله:

ومــن تعبــد النــور أحلامــه، يباركــه النــور أنــى ظهــر

وكان الشابي يحلم كثيراً، وله إيحاءات جديدة في استحضار الأمل الذي يأمله، فكان الحلم عنده رمزاً من رموزه، وقد أسقط على أحلامه صفات الجمال والسحر والوداعة، لأنه المتنفس الوحيد له الذي يهرب به إلى خياله الذي يعوضه عن المرارة ولو للحظات فيقول:

تمـــشي حواليـــه الحيـــاة كأنهـــا الحلـــم الجميـــل خفيفـــة الأقـــدام

والحلم عنده بسمة تتهادى كالجداول:

يتمايـــــل الحلـــــم الجميـــــل كبـــــسمة القلـــــب الثمـــــل
قـــد كـــان لي مـــا بـــين أحـــلا مـــي الجميلـــة جـــدول

والحلم فيه سحر تبدل التعاسة إلى سعادة، وطعم الحلم يغري الحالم في تذوقه وهو أمل يحبه الناس:

مـــا قـــدس المثـــل الأعـــلى وجملـــه في أعـــين النـــاس إلا أنـــه حلـــم

فالسعادة عند الشاعر حلم، والطفولة تلك الفترة المعسولة الجميلة هي حلم، وكان الشاعر يشتاق إلى الحلم بلوعة لأنه رؤيا جميلة يصوغ بها الشاعر واقعاً جديداً وهو يحفز قلبه ويذكره بآماله ليحيا حياة جديدة:

أيـــن أحلامـــك يـــا قلبـــي لقـــد فـــات الفـــوات

أو قوله:

لا تـــرى غـــير فتنـــة العـــالم الحـــي وأحـــــلام قلبهـــــا المـــــسحور
ودعونـــا هنـــا تغنـــي لنـــا الأحـــلام والحـــــب والوجـــــود الكبـــــير

ثم يعود إلى الفجر وهو رمز من رموز الأمل المطرز بالأحلام:

كنــت في فجــرك الموشــح بــالأحلام عطـــــراً يـــــرف فـــــوق ورودك

ويعود إلى الغاب ليطرز صورة جديدة في أحلامه:

فـــأعيش في غـــابي حيـــاة كلهـــا للفـــــن ، للأحـــــلام ، للإلهـــــام

أو قوله:

ويـــوشي الوجـــود بالـــسحر والأحـــلام والزهـــــر والـــــشذى واللحـــــون

ولذلك فإنه يعتبر الحياة بدون أحلام هي موت مقيد بالسلاسل.

والحيـــاة التـــي تخـــر لهـــا الأحـــلام مـــــوت مثقـــــل بـــــالقيود

وهذه الأحلام كما نراها عند الشابي هي آمال يحيا بها لأنها أدواته وهدفه فهي ناي وهي شجرة وهي عروس وهي الثورة على الشر وهو الشباب والربيع والحب، وعلى المجمل فهي الحياة بكل نوازعها.

أما الربيع فهو دليل الخصب والنماء والجمال وواهب الحياة، وهو الفنان المفتون:

والربيـــع فنـــان شـــاعرها المفتـــون يغـــــري بحبهـــــا وهواهـــــا

فهو الفنان الذي يرسم بصورته جمال الطبيعة الساحرة الذي يحيل الأرض الجرداء إلى الحياة، لكنه في نظره ساذج غرير.

وإلا ربيـــع الوجـــود الغريـــر ورقـــص الأشـــعة فـــوق الظـــلال

ولأن الربيع ساحر وجميل فقد أشاد الشاعر به وأنشده:

نحـن نـشدو مـع العـصافير للـشمس وهـــذا الربيـــع يـــنفخ نايـــه

ثم يقول:

فسرت إلى حيث تـأوي أغـاني الربيـع وتـذوي أمـاني الخريـف

وهنا يبدأ الشابي في تعرية المستعمر، بأن ما يقدمه ليس ربيعاً وإنما هو خداع، لأن ما يقدمه من إغراءات فإن العاصفة قادمة:

رويـــــدك لا يخـــــدعنك الربيــــع   وصـــحو الفـــضاء وضـــوء الـــصباح

ثم ينتقل إلى مقارنة الربيع بضده، فيرمز بالربيع إلى الحياة كما يرمز إلى الخريف بالأسى والجمود كما هو في الشتاء:

وســــوف يمـــضي شـــتاء الأســـى ويـــأتي ربيعـــك

أو قوله:

فسرت إلى حيـث تـأوي أغـاني الربيـع وتـذوي أمـاني الخريـف

وهكذا يسير الشاعر لينتج من أشعاره رموزاً شعرية وصوراً جميلة لها دلالاتها وإيحاءاتها، فالربيع رمز التجدد والعطاء والخريف رمز الذبول والزوال وهو شاحب ملول:

فيـــك يبـــدو خريـــف نفـــسي ملـــولاً   شـــاحب اللـــون عـــاري الأملـــود

وهناك رموز أخرى متعددة، وإنما أسوق هذه كأمثلة على رمزية الشاعر وشاعريته التي تعددت فيها فنون الشابي وأغراضه المتنوعة وصوره الشعرية التي تقوم بأكثر من دور داخل القصيدة. لبناء التشكيل الجمالي وتنامي المواقف لتعكس جوهر موقفه الشعري.

خصائصه الفنية

الشابي شاعر وجداني، وهو على فترة حياته القصيرة فقد كان مكثراً مجيداً، وقد أجمع الدارسون على أنه شاعر مطبوع على المذهب الرومانسي، وقد برز شاعراً ناضجاً إذا ما قيس بأنداده من الشعراء المعاصرين له، ويرى الأستاذ مصطفى رجب أن الخصائص الرومانسية تبرز عند الشابي في اللفظ والعبارة والأسلوب والقالب والدعوة إلى الطبيعة والاستماع إلى النفس وتوسيع دائرة الشعر وابتكار الموضوعات ومسايرة روح الموضوع في النزعة الإنسانية، وكان صادق التعبير دقيقاً في التصوير، مما كان يجيش في فؤاده من حب للحياة والطموح إلى الخلود في نغمات هادئة وطمأنينة وسلام. فكان كل بيت من قصائده قطعة من قلبه ومزيجاً من العبقرية والإلهام وهو لا يتصنع ولا يتكلف، بل جاءت أشعاره أنغاماً تفيض على وجدانه وتنساب من أحاسيسه، ومشاعره، ولذلك أحبه الناس ورددوا أشعاره وتغنوا بها فكان ذلك سر خلوده وخلود شعره وانتشاره.

وقد جمع الشابي في شعره بين التمرد والتصوف بعاطفة رقيقة ودعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، كما دعا إلى التحلل من قيود الرجعية والجمود وإلى حب الطبيعة. كما ثار على عمود الشعر وأعلن تحرره على قيود اللغة والقافية، فسار بذلك في ركب شعراء المهجر، واتصل بجماعة أبولو وكان بينه وبين أبي شادي وإبراهيم ناجي رسائل جريئة في النقد الأدبي، وقد برع في عرض شعره وتصويره ومتانة أسلوبه وسعة لغته وقوة خياله وجمال تراكيبه وروعة تشابيهه واستعاراته.

وعالج في شعره الفلسفة فبحث في أعمق موضوعاتها دون أن يخشى ما حوله، لأنه كان يقصد أن يصل إلى كنه الأسرار الغريبة التي ينطوي عليها عالم ما وراء الموت، ولذلك نجده يمر في طور من أطوار حياته بحالة من الحيرة والشك والغموض. ونظر إلى الشعر نظرة قداسة فترفع عن الأغراض الصغيرة الباهتة فلم يمدح أحداً ولم يرث أحداً وإن وجدنا قصيدة واحدة هي أقرب إلى النواح فيها على الرثاء، ذلك لأنه استطاع أن يخط لنفسه منهاجاً يسير عليه خاصة في بداياته الشعرية، فكان شاعراً صادقاً شامخاً يسمو فوق كل ضعة.

وقد جرى في شعره على أسلوبين: أسلوب متين النسج خص به شعره في الحكمة والفخر، وأسلوب لين سلس في الأغراض الوجدانية الخيالية.

وكان الشابي مثل غيره من المجددين الذين ابتعدوا عن عمود الشعر العربي فتجنب بعض المفردات، ويوضح الدكتور عمر فروخ في كتابه الشابي شاعر الحب والحياة أن الشابي «من الناقمين على عمود الشعر العربي، وعلى الحياة العربية الأصيلة، أراد أن يتجنب الألفاظ الإسلامية ذات النفحة العربية الملامح ليتبدل بها ألفاظاً وثنية الأصل عامية الاستعمال وخصوصاً في طوره المتأخر»[1] وقد وضح الدكتور عمر فروخ ما يقصده بأمثلة منها مع استعمال هذه المفردات وعدد مرات استعمالها كما بين بعض الأخطاء النحوية والصرفية.

لكن التليسي ذكر في كتابه بين «الشابي وجبران» أن الشابي ذو «ثروة من الألفاظ اللونية والصوتية ... ومن قوة الإحساس هي التي تخلق ألفاظه ومعانيه المتمردة المتحررة في مواضع السخط والتمرد، وهي التي تتدفق بالألفاظ اللينة الوديعة في مواضع اللين والضراعة».

ونورد هنا هذين المثلين لنبين وجهات النظر عند الأدباء والنقاد لتوضيح الألفاظ عند الشابي.

وللإنصاف فإني أورد ما قاله الأستاذ مدحت سعد محمد الجبار في كتابه حول الصورة الشعرة عند الشابي حين تحدث عن دور التكرار في بناء الشابي لصوره الشعرية حيث وضح: أن التكرار بعدة أدوار ظاهرة موجودة عند الشابي. وتمثل الكلمة المكرورة المركز الدلالي الذي ينطلق منه الشاعر ليخلق في كل مرة علاقة لغوية جديدة أو صورة شعرية جديدة وهذا دأب الشعراء ومنهم أبو القاسم الشابي، لأن تكرار الكلمة يؤدى إلى وظيفة جمالية مختلفة ذات دلالة وإيحاء جديد في كل مرة، والتكرار يساعد الشاعر على تشكيل موقفه وتصويره. وهذا يعتبر من باب القوة لا من باب الضعف، لأن الدلالة الشعرية تنتج من علاقة قائمة بين الكلمة وما حولها، والشابي في كثير من الأحيان كان يعمد إلى تكرار الكلمة، وقد يكرر عناوين كاملة للقصائد أو يكرر مقطعاً أو يبني صورة جديدة بالتكرار. ففي قصيدته «الكآبة المجهولة» كرر كلمة كآبة أربع مرات ليخلق في كل مرة صورة شعرية جديدة، أما مادة الكآبة فقد كررها ثلاث عشرة مرة مصراً بها على إظهار موقفه وشعوره والأبيات هي:

---

(1) عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، ص180.

كآبـــة النـــاس شـــعلة ، ومتـــى مـــرت ليـــال خبـــت مـــع الأمـــد
أمـــا اكتئـــابي فلوعـــة ســـكنت روحـــي وتبقـــى بهـــا إلا الأبـــد

وكما نرى فإن التكرار هنا جاء للإضافة أو التخصيص ليبين حزنه الشديد ويقارن بين كآبة الناس وكآبته، فكآبة الناس شعلة تزول، أما كآبته فلوعة دائمة تسكن روحه. وفي موضع آخر:

ولـــيس في عـــالم الكآبـــة مـــن يحمـــل معشار بعـض مـــا أجـد
كـــآبتي مـــرة وإن صرخـــت روحـــي فـــلا يـــسمعنها الجـــسد

صورة جديدة في مقطع جديد يتحدث فيه عن كآبته بتصوره أن للكآبة عالم منفصل. وفي صورة أخرى يطرح حزنه وكآبته محاولاً التجديد للمفردة:

كـــآبتي ذات قـــسوة صـــهرت مـــشاعري في جهـــنم الألم

تجربة قاسية، لأن كآبته قاسية تصهر مشاعره في نار الألم المحرق، ولكنه يحاول أن يخفيها تحت الرماد:

كـــآبتي شـــعلة مؤججـــة تحـــت رمـــاد الكـــون تـــستعر

ومقارنة أخرى بين كآبته المؤججة وكآبة الناس شعلة تخمد مع الزمن. ثم يسير في القصيدة حتى يصل إلى الأمل المنتظر الذي يعلقه على كآبته، آملاً أن تتحول إلى فجر مضيء، ثم يكرر الشاعر نفس المقارنة السابقة لأهميتها عنده:

كآبـــة النـــاس شـــعلة ومتـــى مـــرت ليـــال خبـــت مـــع الأمـــد
أمـــا اكتئـــابي فلوعـــة ســـكنت روحـــي وتبقـــى بهـــا إلى الأبـــد

وكما نرى فإن لفظة الكآبة عنده تكررت، وفي كل مرة يرسم لنا صورة أو يُكوِّن علاقة يجعلها عاملاً مشتركاً بينه وبين الناس ومقارنة بين كآبته وكآبة الآخرين. وهذا مثال والقصائد عند الشابي فيها كثير مثل هذا، مثل كلمة الليل فيجعله مرة كئيباً ومرة جميلاً غريباً، ومثل كلمة الأمس التي كررها سبع مرات وهو يلح عليها فحياته أمست واجمة، وكل شيء جميل كان أمس، والأمس جرفته يد المنون، وظل الأمس، وزالت ظلال الأمس أو كلمة الشتاء: يجيء الشتاء، شتاء الضباب، شتاء الثلوج،شتاء المطر وربما كان يحتاج إلى مثل هذا التكرار للتفريغ والتنويع، ومثل هذا التكرار في كلمة الكون: الكون - كون شقاء، الكون - كون التباس، الكون - كون اختلاق.

أما كلمة الموت مع تجاوز ما فيها من التكرار فقد كررها مرتين في البيت الواحد وقد صوره بأنه روح جميل، وجام روي، ومهد وثير، وهذا يعكس نفسية الشابي حول الموت الذي كان يراه مخلِّصاً من عبث الحياة وهو يريد إقناع القارئ أو السامع بالتنبيه إلى الموت وفي موضع آخر يتجاوز الصور ليخصص وظيفة كلمة الموت فيقول:

واليــــأس مـــوت ولكـــن   مـــوت يثـــير الـــشقاء

فاليأس موت ولكن هذا الموت يثير الشقاء، لأنه يتصور كرهه لليأس، هذا وقد أثبت الدكتور عمر فروخ ص182 وما تلاها المفردات المكرورة عند الشابي، وربما كان تكرار بعضها لداع وربما كان لغير داع، وفي قصائد مختلفة أو جاء التكرار في نفس القصيدة.

لكن قصيدة «الدموع» جاء التكرار فيها لكلمة النفس، لنجد أن في كل تكرار صورة شعرية وانظر إليها:

لم أجــد في الحيـــاة لحنـــاً بـــديعاً   يتبنـــى ســـوى ســـكينة نفـــسي
أن في روضـــة الحيـــاة لأشـــواكاً   بهـــا مزقـــت زنـــابق نفـــسي
تتهـــاوى مـــا بـــين غـــصات قلبـــي   بـــسكون بـــين أوجـــاع نفـــسي

نفس الكلمة (نفسي) وشكلها فهي سكينة وزنابق وأوجاع وهي وعاء لأحزان الشاعر، فهي في البيت تتبنى سكينة نفس الشاعر وفي الثانية مزقت الأشواق زنابق نفسه، ولكنها في البيت الثالث تتهاوى بين غصات قلب الشاعر وتسكن بين أوجاع نفسه. هذا بالنسبة للمفردات لكن الشابي كان يكرر الحروف كالكاف أو حرف النداء أو حروف العطف وكان يكرر الضمير، وفي قصيدته (قلبي التائه) يكرر الضمير (أنت) توكيداً للمشبه ليقدم صوراً عديدة للمشبه به، وهذا يعكس حالته النفسية في لحظة من اللحظات، وهو عندما يكرر الضمير عشر مرات في لحظة واحدة وفي قصيدة واحدة فإنه يستعيد صورة محددة لخلق علاقات بين معطيات جديدة للأحزان على قلبه.

أنـــت يـــا قلبـــي قلـــب ، أنـــضجته الزفـــرات
أنـــت يـــا قلبـــي عـــشّ ، نفـــرت عنـــه القطـــاة
أنـــت حقـــل ، مجـــدب ، قـــد هـــزأت منـــه الرعـــاة
أنـــت ليـــل ، معـــتم ، تنـــدب فيـــه الباكيـــات

أنـــت كهـــف، مظلـــم، تـــأوي إليـــه البائـــسات
أنـــت صرح، شـــاده الحـــب عـــلى نهـــر الحيـــاة
أنـــت قـــبر، فيـــه مـــن أيـــامي الأولى رفـــات
أنـــت عـــود، مزقـــت أوتـــاره كـــف الحيـــاة
أنـــت لحـــن ســـاحر يخـــبط في التيـــه المـــوات
أنـــت أنـــشودة فجـــر ... رتلتهـــا الظلـــمات

الشاعر يخاطب بهذه الأبيات قلب إنسان يجسده ليعطيه الدلالات التي يحس بها فكرر المشبه وهو الضمير «أنت» ليأتي بصور المشبه به حسبما يفيض به صدره، وهو بهذا يعكس واقعه وأحاسيسه.

وقد فعل مثل هذا في قصيدته «إلى الله» التي يعدد فيها صور معاناته وعذاباته من خلال ما يعانيه البشر، من غربة القبور.

أما في قصيدته «صلوات في هيكل الحب» فتكرار الضمير يختلف عن هاتين القصيدتين، فهو يكرر الضمير في البيت الواحد، مرة بالاستفهام ومرة بالتقرير ويجعل من الضمير مساعداً لإيجاد صورة جديدة، وهو في تكراره هذا يثور ثم يهدأ ثم يعود إلى الثوران للتوكيد على المشبه بإيقاع موسيقي متغير ليستحضر بتكرار الضمير صورة المحبوبة، حتى إذا ما وصل إليه جاء مباشرة دون تكرار: (أنت روح الربيع)، (أنت تحيين في فؤادي)، (أنت أنشودة الأناشيد)، وبإمكانك الرجوع إلى القصيدة في الكتاب.

التراكيب

جاءت تراكيب الشابي على محورين: محور جاء على أساليب العرب في الترتيب والتقديم والتأخير وفي الإضمار، والمحور الآخر غاير فيه الشاعر أساليب العرب وقد وضح الأستاذ التليسي وهو صديق الشاعر ذلك بقوله: «أناقة التعبير ورصانته وأصالته هي الدعائم الأولى التي يقوم عليها أسلوب الشابي الذي امتاز ببعده عن (الركة) التي أخذت على كثير من شعراء المدرسة الحديثة وخاصة شعراء المدرسة المهجرية، فهو أسلوب يجري في عفوية وبساطة». لكن الدكتور عمر فروخ علق على قول الأستاذ التليسي بقوله: «إن بعض شعر الشابي كذلك (ويعني العبارة وأن شعره لمن الوضوح بحيث لا يحتاج إلى شرح - ولكن سائره مخالف لهذه الأحكام واستشهد بشعر من قصائد الشابي مثل قصيدة (غرفة من يم) أو قصيدة (نظرة في الحياة).

وقال: «ليست أنيقة، ولا بعيدة عن الركاكة ولا تفيض عفو الخاطر في سهولة ووضوح كما يريد التليسي» واستشهد بأبيات أخرى من قصيدة «إلى عذارى أفروديت»:

وســـبيل الحيـــاة رحـــب وأنتـــ   ـــنّ اللـــواتي تفرشـــنه بـــالورود
إن أردتُـــنَّ أن يكـــون بهيجـــاً   رائـــعَ الـــسحر ذا جمـــال فريـــد
أو بـــشوك يـــدمي الفـــضيلة والحـــب   ويقـــضي عـــلى بهـــاء الوجـــود
إن أردتـــن أن يكـــون شـــنيعاً   مظلـــم الأفـــق ميّـــت التغريـــد

يقول: «نحن نرى هنا حرف الشرط وفعل الشرط، ولكننا لا نرى جواب الشرط، ثم أننا لا نرى في هذه الأبيات أناقة ولا وضوحاً».

وأنا بدوري احترم رأي أستاذي الدكتور عمر فروخ، لكنني أجد في هذه الأبيات عفوية في مفرداته وتراكيبه، فالدكتور عمر فروخ أخذ جزئية من القصيدة، وجاءت القصيدة على شكل قصة سهلة واضحة وفيها تشبيهات وكلمات قريبة من النفوس مع تراكيب إبداعية «أو بشوك يدمي الفضيلة والحب» أو «شنيعاً» أو «ميت التغريد» وهذا ما كان يقصده الأستاذ التليسي حين تحدث عن العفوية والوضوح والبساطة بحيث لا يحتاج القارئ إلى عناء الشرح. لأن الشابي يسلك في شعره عرض تجاربه ومشاعره لإثارة الوجدان المماثل للآخرين.

أما تراكيبه النحوية، فلا تكاد تخرج عن التقديم أو تأخير ما حقه التقديم أو الفصل بالجار والمجرور بين الفعل ومفعوله، غير أن أكثر ما يلاحظ في شعره أسلوب النداء بسبب توجيه شعره إلى شعبه ومجتمعه. فمرة ينادي النيام ليستيقظوا من غفلتهم ومرة ينبههم للانتباه إلى جمال الطبيعة في بلادهم وقد كان يستنهض أفكارهم بأسلوب الخطاب كقوله:

أيهـــا الحـــب أنـــت سر بلائـــي   وهمـــومي وروعتـــي وعنـــائي
أيهـــا الحـــب أنـــت سر وجـــودي   وحيـــاتي وعـــزتي وإبـــائي

أو حين يخاطب القمر:

يـــا ســـميري في أويقـــات الكـــدر والـــضجر

أو يخاطب تونس:

أنــا يــا تــونس الجميلــة في لُــجِّ　　　الهــوى قــد ســبحت أيّ ســباحة
تتلـــو ســـحاباً ركامـــاً　　　تتلـــو قتامـــاً مثـــارا

وهذا ناتج عن مناجاته التي يتحدث في أكثر الأحيان بها عن نفسه، وهنا لا بد من الحديث عن طريقة استعماله للمقاطع الطويلة أكثر من القصيرة لأنها تلبي حاجاته في الملامح الصوتية في شعره وانظر إلى قوله:

إن هـــذي الحيـــاة قيثـــارة الله　　　وأهـــل الحيـــاة مثـــل اللحـــون
نغـــم يـــستبي المـــشاعر كالـــسحر　　　وصـــوت يخـــل بـــالتلحين

وهذه تراكيب تكاد تكون جديدة في استعمالها، جميلة في تصويرها أو قوله في قصيدة (الذكرى):

كنـــا كزوجـــي طـــائر في دوحـــة الحـــب الأمـــين
نتلـــو أناشـــيد المنـــى بـــين الخمائـــل والغـــصون
متغـــردين مـــع البلابـــل في الـــسهول وفي الحـــزون

أليست هذه تراكيب بسيطة سهلة ولكنها جديدة، قد تخطر ببال من يسير في الغابة ولكن تحتاج إلى من يركبها فيخرجها في صورة جميلة «دوحة الحب الأمين»، «أناشيد المنى بين الخمائل والغصون».

وقد زاوج الشاعر في بعض قصائده بين الحروف، فكانت سلسلة عذبة مثل حرف السين لتكون ذا أثر في الموسيقى الشعرية مثل قوله:

وسرت نـــشوة ســـحر الوجـــود　　　وتبـــذر شـــوك الأســـى في ربـــاه

هذا إلى جانب المقابلة والجناس والطباق، التي تنتشر هنا وهناك دون تكلف وقد جاءت متماسكة في البناء.

الأوزان والقوافي في موشحات الشابي

نظم الشابي مجموعة من الموشحات، وكان لموشحاته أشكال، وقد صنفها الدكتور عمر فروخ في كتابه الشابي شاعر الحب والحياة وأول هذه الموشحات نظام قصيدته «في الظلام» التي تألفت من ستة مقاطع من بحر الرمل على تفعيلة (فاعلاتن فاعلاتن فاعلات) وجاء كل قسم منها على حرف روي خاص بها فكان القسم الأول على روي

حرف الميم ثم القسم الثاني على حرف القاف والثالث والرابع على حرف النون أما الخامس والسادس فكانا على حرف الراء وكان الموشح مقسوماً إلى قسمين متساويين، أحدهما شطر تام كما ورد سابقاً أما الثاني فهو جزء من شطر من بحر الرمل وتفعيلته: «فاعلاتن فعل»، وجاء الترتيب في الأشطر والقوافي مطّرد في المثاني الست على النحو التالي:

رفرفــــت في دجيـــة الليـــل الحــزين　　زفـــرة الأحـــلام
فـــوق سرب مــن غمامـــات الــشجون　　ملؤهـــا الآلام

وهكذا يستمر في القصيدة حتى نهاية القسم السادس من القصيدة.

ثم كان الشكل الثاني وهو من الموشحات التي برع فيها الشاعر بترتيب موسيقي في ستة مجاميع بعنوان «مأتم الحب».

ليــــــت شـــــــعري
أي طــــــــــــير
يــــسمع الأحــــزان تبكـــي　　بـــين أعــــماق القلـــوبْ
ثـــم لا يهتـــف في الفجـــر　　بأنـــــات النحيـــــبْ
بخــــشوع واكتئـــــاب

وهذه الموشحة جاءت على تفعيلات مجزوء الرمل (فاعلاتن فاعلاتن)، وكما نرى فإن المطلع مؤلف من شطر مقسوم قسمين مصرّعين على الراء المكسورة ثم جاء ببيتين عجزيهما على الباء الساكنة بعد حرف لين ثم يختم المجموعة بباء ساكنة بعد ألف.

وللشابي موشحة مثناة على بحر مولّد في «الكآبة المجهولة» وتفعيلاتها (مستفعلاتن مستفعلاتن).

أنا كئيب
أنا غريب
كآبتي خالفت نظائرها
غريبة في عوامل الحزن
كآبتي فكرة مغردة
مجهولة في مسامع الزمن

بزيادة شطر في المجموعين الأول والسادس، وسترى شكل الموشح في شعر الشابي في القسم الأخير من الكتاب.

وللشابي شكل آخر من أشكال الموشحات تتألف من أربعة مجاميع في قصيدة «شكوى اليتيم» حيث جاء مطلع الموشحة على مجموعين ثم جاء بعدها أربعة أغصان على النحو التالي:

عــلى ســاحل البحــر حيــث يــضجّ   صراخـــه الـــصباح ونـــوْح المـــسا
تنهـــدتُ مـــن مهجـــة أتْرِعـــتْ   بـــدمع الـــشقاء وشـــوك الأســـى

فـــــضاع التنهـــــد في الـــــضجة
بـــــما في ثنايـــــاه مـــــن لوعـــــة
فـــــسرت ناديـــــت ، يـــــا أمّ ، هيـــــا
إليّ فقـــــد ســـــئمتني الحيـــــاة

ويستمر الشاعر في موشحته، ولكنه في نهاية الموشحة يخالف أقسامها الأولى حيث أنه ترك القفل فكان على الشكل الآتي:

ولمـــــا نـــــدبت ولم ينفـــــع
ناديـــــتُ أمـــــي فلـــــم تـــــسمع
رجعـــــتُ بحـــــزني إلى وحـــــدتي
وردّدت نـــــوحي عـــــلى مـــــسمعي
وعانقـــــت في وحـــــدتي لـــــوعتي
وقلـــــت لنفـــــسي: «ألا فاســـــكتي»

هكذا ورد الموشح في القسم الأخير منه بدون قفل.

أما موشحة «أغنية الأحزان» فقد جاء الموشح طويلاً ويتألف من أحد عشر مجموعاً أو بيتاً، حافظ فيه الشابي على ترتيب الأشطر مع أنه خالف ترتيب القافية في كل مجموع منها.

غننـــي أنـــشودة الفجـــر الـــضحوك
أيهـــا الـــصداحْ !
فلقـــد جرّعنـــي صـــوت الظـــلام

ألمــاً علّمنـــي كـــره الحيـــاة

إن قلبـــي مـــلّ أصـــداء النـــواح

غننـــــي ، يـــــا صـــــاحْ !

ومن موشحاته التي أثبتها في ديوانه أغاني الحياة قصيدة «أغاني التائه» والتي تألفت من ثلاثة مجاميع من البحر الرمل رتبها الشاعر أربعة أبيات في كل مجموع ثم تلاها بثلاثة أشطر، وهي مثبتة بين القصائد في نهاية الكتاب بإمكانك الرجوع إليها.

وقد وجدت الشاعر في المقطع الأول يخالف في القافية، لكنه عاد وضبط القافية في باقي الموشحة، ومن هذه الموشحة:

كـــان في قلبـــي فجـــر ونجـــوم وبحـــار لا تغـــشيها الغيـــومْ

وأناشـــيد وأطيـــار تحـــوم وربيـــع مـــشرق حلـــو جميـــلْ

كـــان في قلبـــي صـــباح وإيـــاه وابتـــسامات ولكـــن وأســـاه

آه مـــا أهـــول إعـــصارَ الحيـــاة آه مـــا أشـــقى قلـــوب النـــاس آه

كـــان في قلبـــي فجـــر ونجـــوم

فـــإذا الكـــل ظـــلام وســـديم

كـــان في قلبـــي فجـــر ونجـــوم

أما موشحته والتي بعنوان «الأشواق التائهة» فجاءت في مجموعين كل واحد منها يتألف من قسمين:

القسم الأول وتألف من أربعة أبيات على روي واحد، القاف في المجموع الأول والسين في المجموع الثاني.

أما القسم الثاني فقد تألف من أربع مثنيات جاءت قوافيها على ما يلي: ورودك، نشيدك، الورود، الوجود، الهادي، الآباد، باد، الوادي. أما الجزء الثاني من هذا القسم فتألف من رباعية ومثناتين قوافيها: مضمحلة، صداها، أساها، المملة، ثم ليل، حولي، جفوني، سجين.

أما موشحة «الصباح الجديد» فقد تألفت من ثلاثة مجاميع وتشكل كل مجموع من مطلع ومن قسمين، وقد تكرر المطلع في رأس كل مجموع:

وبإمكانك أن تعود إلى الموشحة بين أشعاره في نهاية الكتاب ولم أثبتها هنا لعدم التكرار، ومن الجدير بالذكر أن الشابي كان يميل في قوافي موشحاته إلى حرف الروي الساكن وهكذا أيضاً في كثير من أشعاره.

نماذج من قصائد الشابي للشرح والتحليل

هذا فصل في تحليل بعض قصائد أبي القاسم الشابي، لتوضيح قدرته الشعرية وتأثره بغيره وبيان أسلوبه الذي تحس وأنت تقرأ البيت الواحد وكأنك تقرأ قصيدة تقطر من فكره، كما تحس بأن شعره صور وأنغام تفيض على وجدانه وتنساب في تيارات مشاعره، ولذلك أحب الناس شعره وهزهم بمشاعره، وهذا سر خلود شعر الشابي لأن شعره قوة زاخرة ومشاعر متدفقة وشعور ملتهب وعاطفة فياضة بضروب الإبداع والجمال. وقد اخترت ثلاث قصائد للشرح والتحليل كنماذج من أشعاره:

1 - الصباح الجديد

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 13 ذو الحجة عام 1351هـ، الموافق 9 نيسان عام 1933، وكان يحاول مقاومة المرض بشجاعة، جاهداً في أن يزيح عن كاهله الحزن والألم، وذلك قبل منتصف العقد الثاني من حياته، وقد قسم القصيدة إلى ثلاثة مقاطع، بينما جاءت القصيدة في الديوان على شكل رباعيات وثلاثيات، والقصيدة عبارة عن موشحة في مجاميع، المجموع الأول ويتألف من ثلاثة أبيات، وتألف الثاني والثالث من أربعة، أما الرابع فيتألف من ثلاثة ثم تألف الخامس والسادس من أربعة، وتكرر الخامس في فكرة الأول وجاء المجموعان الأخيران من أربعة أبيات.

ومطلع الموشحة:

اسكني يا جراح   واسكتي يا شجون
مات عهد النواح   وزمان الجنون
وأطل الصباح   من وراء القرون

وقد اعتبره الدكتور عمر فروخ الشكل السابع من أشكال الموشحات عند الشابي واعتبره من ثلاثة مجاميع وكل مجموع يتألف من مطلع وقسمين، وقد ورد المطلع مكرراً على رأس كل مجموع.

الشرح والتحليل:

1 - حاول الشاعر التكرار في الفقرة الأولى مرتين ليوحي إلى نفسه بالصبر والتجلد مخاطباً جروحه طالباً منها السكون، لينفذ من ستار الحزن وليل العذاب الذي لفّه، مبشراً روحه بإشراقة فجر جديد بدأ يطل من وراء حجب الزمان.

2- وإذا كان الشابي يتمسك بإرادة الحياة، فلا بد له أن ينبذ كل معوقاتها ويطرح عن كاهله كل أثقالها ليزيل العقبات من طريقها، ويصنع ما تمليه عليه هذه الإرادة، إذن عليه أن يدفن آلامه ويأسه ويملأ بالحب قلبه. وفعلاً بعثر الشاعر دموعه وعذابه لتحملها رياح الفناء بعيداً. نظر إلى الحياة بمنظار جديد، فخفق صدره بالسرور، فإذا الدنيا مليئة بالجمال والأنغام حافلة بالورود والظلال والشباب.

3- وتحاول الأحزان العودة من جديد حين يطبق عليه العذاب مروعاً كالظلام مفزعاً كهدير الموج ويشتد المرض الذي يؤذن بقرب انطفاء شعلة الحياة، ولكنه لا ينحدر إلى حفرة الموت المظلمة، بل راح يطمئن روحه بأنه لا بد من الرحيل، ولكن إلى عالم صباحه الضاحك وربيعه الدائم الخضرة ملتجئاً إلى الصباح الجديد غير عابئ بالهموم التي تحف بشاطئ زورقه ولا مكترث بالحزن الذي يحدق به كالضباب المطبق.

التعليق:

أول ما يلفت النظر في هذه القصيدة هو بناؤها الموسيقي في المقطوعات الثلاثية أو الرباعية والتي تكررت على طريقة الموشحات لضرورة نفسية أو حالة شعورية يعيشها الشاعر أو يحس بها، وهي ضرورة الإيحاء بالصبر والتجلد. أما القافية فقد تحرر الشاعر من وحدتها في القصيدة، واستخدمها بصورة يربط بها بين مقطوعاته المتتابعة المتدافقة برباط موسيقي مرهف، وقد لاحظنا أن آخر بيت في المجموعة الرباعية الثانية تقفية للفظة الأخيرة من الرباعية التالية كما هو في لفظتي «الزمان» و «الحنان» وكذلك في «البقاع» و «الوداع» وهذا اللون من الموسيقى جديد في موسيقى الشعر العربي.

وتعكس هذه القصيدة شخصية الشابي بصورة واضحة. فهي نابضة بحرارة الانفعال وقوته، وجيشان العاطفة وتدفقها، إضافة على ثورة الروح وتمردها، وهي سمة بارزة في شخصية الشابي، فهو الذي تمسك بإرادة الحياة وقاوم الحزن والألم وتحدى المرض والموت ولذلك فلا بد للقارئ إلا أن يتجاوب مع ا لشاعر ويشاركه أحاسيسه ويتأثر بها.

ثم عمد الشاعر إلى استخدام التصوير البياني الذي يجنح إلى الخيال، ويعتقه من أسر الواقع، حتى كأن الصباح الذي يتخيله الشاعر ينزف ألماً وحزناً في حياته، فحوله الشاعر إلى عالم يفيض بالحيوية والشباب، ويتألق بالجمال ويتضوع بالعطر. وقد عمد إلى تجسيد ما كان معنوياً في صورة استعارات عديدة كقوله:

في فجـــــاج الهــــــوى   قـــــد دفنــــــت الألم

فقد جعل الهوى وهو شيء معنوي، شعاباً يدفن فيها حزنه، وهو معنوي أيضاً.

والشابي صاغ قصيدته بلغة سهلة، سلسلة، سائغة لا تكلف فيها، ولا ابتذال، وإن لجأ أحياناً إلى تكرار الكلمات أو مرادفاتها، وهذه ميزة من ميزات الشابي الذي أراد أن يوصل فكرته إلى القارئ بيسر وسهولة.

2- إرادة الحياة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 26 جمادى الأولى 1352هـ الموافق 16/9/1933، وقد كان للقصيدة ضجة كبيرة بين الأوساط الدينية من جهة وبين الأوساط الأدبية من جهة أخرى، كما كان لها أثر فعال وشديد في أوساط الجماهير التي أحبت شعر الشابي. وقد رددها أبناء الشعوب العربية، وتغنى بها المطربون. وقد افتتح الشاعر القصيدة بقوله:

إذا الـــــشعب يومـــــاً أراد الحيـــــاة   فــــلا بـــــد أن يـــــستجيب القـــــدر

وتتألف القصيدة من ثلاثة وستين بيتاً وتتضمن سبع أفكار رئيسية، وقد نظمها الشابي، حين كان الشعب التونسي يرزح تحت الاحتلال الفرنسي، مما أزعج الشاعر أن يرى شعبه مستسلماً لقدره، فنهض يحث شعبه على تحطيم قيود المحتل، وبين أن الحياة تتمثل في إرادة الشعب وما يريده، لأن المحتل ليس قدراً على الوطن، والثورة عليه واجب لتتحرر تونس من قيود المحتل وظلمه.

وقد استطاع الشابي أن ينقل أفكاره وأحاسيسه ومشاعره لجمهور تونس بأسلوب رومانسي ينبعث من تجربته التي طبعت بطابعه الخاص ومعاناته الذاتية لواقع الظلم والطغيان.

وقد احتذى فيه حذو جبران خليل جبران وغيره من الرومانسيين، ونجح في المواءمة بين غرضه وما هيأ له بموسيقى داخلية مرافقة، ليزيد من أثر النص على النفوس. فتفتحت معانيه كالأزهار في أعماق ضميره، فجاءت القصيدة إنسانية النزعة، ليرتفع بها فوق الأحداث، وبدت وكأنها نموذج دائم لتجارب الناس الذين يتوقون للحرية. أما كلماته فكان معظمها عربية فصيحة سهلة، منتقاة بعناية لتعبر عن أحاسيسه، كما جاءت الجمل قوية متماسكة، فلم يلجأ إلا نادراً للجمل المعترضة.

وقد زاوج بين الإنشاء والخبر ليبتعد بالقارئ أو السامع عن الملل، وقليلاً ما لجأ إلى التقديم والتأخير، ولذلك بقي أسلوبه واضحاً متماسكاً، تفرد به عن غيره، كما لجأ إلى الحكمة العامة، وكأنه يخاطب شعبه في تونس، وغيره من الشعوب التي ترزح تحت الظلم في كل زمان ومكان.

كما لجأ الشاعر إلى التشخيص الذي يحيي ما لا حياة فيه، فجعل القدر كالإنسان القوي يستجيب لمن يستدعيه، فالكون يتحدث عن الخفايا، والريح تدمدم والأرض تجيب على تساؤلات الشاعر وكذلك الحديث مع الغابة في رقة، وهذه ميزة من مميزات الشاعر الرومانسي الذي يركن إلى حديث الجمادات ويحاورها ويثق بها، وهذا إيمان منه إلى أن غاية الشعر هو تلمس روح الأشياء الجامدة لإثارة الدهشة.

هذا إلى جانب استخدام الاستعارات في أسلوبه والذي اعتمد عليه من خلال التجسيد كمشي الزمان وانطفاء السحر ومجيء الربيع بأحلامه وصباه النضر، كما لجأ إلى استخدام التشبيهات والكناية.

وقد وضح إيليا حاوي دور الخيال والانفعال في تلك التشبيهات والاستعارات فقال: «يبدو أن الشابي كمعظم الرومانسيين، يعانق معاني الأشياء بالحلم والرؤيا والسراب والوهم، ينفعل ويتولى خياله إظهار انفعالاته موحداً بين الشيء وما يماثله ... فعالم الشابي خلال هذه القصيدة هو عالم بعيد وراء حدودنا تشيع به الأرواح في كل شيء ومن كل شيء» وهو يعني بذلك وصف خيال الشاعر الجدي الخالي من الترهات، وهو خيال رصين يصهر الأشياء بالانفعال حين يصغي لعزف الريح وقصف الرعد ووقع المطر، كذلك ليلة الخريف التي أثقلها الأسى، وقد غلب الوصف على القسم الأخير من القصيدة.

الشرح:

قدم الشاعر للقصيدة بمشاعر فياضة تنزع إلى الإيحاء بعمق فكرته ورصانتها، فخاطب الشعب:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر

وهذا لا يصدر إلا عن حكمة وشاعرية وإيمان وانفعال بالواقع الذي يعانيه الشاعر ومعه كل أفراد وطنه، ليوضح بأن إرادة الحياة هي من إرادة الشعب، فإذا كانت هذه

الإرادة قوية، فيها إصرار على تحطيم القيود فلا يكون أمام القدر إلا أن يستجيب لقوة إرادة الشعب، وإذا كان ظلام الليل يغشي هذه الإرادة، في زمن ما، فلا بد أن يبزغ الفجر ويزيل هذه الظلمة لتنكسر قوة المحتل أمام إرادة الشعب.

ويعلن الشابي أن مصير الشعب بيده، لا بيد محتله، وذلك بعزمه وصموده لأن الحياة حتماً ستخضع له إذا كافح وبذل العرق والدم، وكشف الخنوع والذل عن نفسه. لأن الذي لا يشخص على مسرح الحياة يموت ويندثر، والشعوب التي يقتصر همها على العيش الميسور تتبخر، ولم يعد لها وجود، وأما المنتصرون فهم الذين يعانقون شوق الحياة.

ثم يرتفع الشابي بنبرته حين ينتقد أولئك المتقاعسين عن الصعود، ولم يستيقظوا من صفعة الدهر، فسيبقون خاملين لا أثار لهم ولا كرامة، وهذه سنة الحياة، وبهذا حدثت الكائنات الشاعر.

وينتقل الشاعر إلى حديث الريح ودمدمتها بين الوهاد، وفوق قمم الجبال وتحت الشجر، لأنها قوية تسعى إلى تحقيق هدف. وبين أن من يطمح إلى تحقيق غاية فعليه أن يكون مثل تلك الرياح، فلا بد له أن يغامر وأن يخلع الحذر من نفسه، فكما أن الريح تخوض غمار الشعاب وتجتاز المناطق الوعرة دون أن تهاب أذى اللهيب المشتعل، فعلى من يريد الحرية أن لا يخشى لهيب الحر الشديد المحموم، ومن لا يغامر في الوصول إلى الذرى والقمم العالية فإنه سيبقى في الحضيض وفي حفر الهوان والمذلة، فلا يتنسم الحرية والكرامة.

ثم يقول: وهنا طاف بخيالي ثورة عارمة، وضجت في صدري أفكار شديدة، فأطرقت مصغياً إلى صوت الرعود المخيفة التي تقصف كالمدافع، وشاركها عزف الرياح وجاء انهمار المطر التي تحمل في ثناياها السيول القوية لتدفعه إلى الثورة على الواقع المؤلم من أجل الخلاص من المحتل ونيل الحرية، لتصبح الحياة أجمل. ويستنطق الشاعر الأرض التي هي أم البشر، فإذا بها تؤثر من أبنائها أصحاب الطموح الذين لا يستسلمون ولا يحنون الرقاب، وفي الوقت نفسه تلعن الخانعين الذين هم ليسوا من أبناء الحياة، لأنهم قاعدون مكتفون بالقليل من العيش، وكأن الواحد منهم حجر أصم لا يهتم بمسايرة الزمان في حركته المستمرة، فالكون حي يحب الحركة الدائمة ويكره السكون ويحتقره مهما عظم وكبر، فالأفق لا يحتضن الطير الميت، والنحل لا يقبل الزهرة الذابلة، وهكذا

الأرض فلن تقبل الأموات في أحشائها لولا حنانها على أبنائها. ولذلك فقد قدمت النصيحة لأبنائها من البشر بأن يغامروا وأن يناضلوا، وإلا فالهلاك والويل لمن لم يغامر ولم يناضل في سبيل حياة فضلى، والويل لمن يضعف أمام تقلبات الدهر ولم يعارض أو يحتج.

ثم يخاطب الشاعر ليلة من ليالي الخريف ليعبر عن الحيرة واليأس ومما يعتري الأشياء في هذه الحياة، فليل الخريف مليء بالأحزان والملل، مع أنها ساكنة وصامتة بعد أن كانت نجومها مضيئة، فغنى الشاعر لهذا الحزن ومن اجله، فسكر هذا الحزن من غنائه المؤثر والمعبر.

ويحار الشاعر فيسأل الدجى: هل تعيد الحياة والشباب لمن مات؟ أو هل تعيد من ذبل عمره إلى الربيع؟ وكيف تجيبه شفاه الظلام وقلبه لا يتكلم ولا يرد جواباً، وحتى هذه الأسئلة لم تَرُقْ عذارى السحر، لأن ذلك لا ينطوي على قدرة الإيحاء، فالدجى يغشى الأشياء وينحصر عنها. فيتولى الغاب الإجابة نيابة عن الدجى في رقة وعذوبة تشبه لحن الوتر فيقول: يأتي الشتاء ومعه الضباب، وتأتي الثلوج ويأتي المطر، فيزول السحر، سحر الغصون التي سقطت عنها أوراقها وتعرت، وسحر الزهور التي ذبلت وانطفأت، ثم سحر الثمار الناضجة فزال عنها جمالها، فهوت الغصون وتبعثرت الأزهار، فتلاعبت بها الريح ونقلتها من واد إلى آخر، وغشيها السيل فساقها معه، وأصبحت كالحلم فزال جمالها بعد أن تألق فترة من الزمن.

لكن جذورها بقيت في البذرة تحت التراب، وهذه ظاهرة طبيعية ليدرك الشاعر أن التغير الذي يحزنه لا ينال منه إلا القشور، أما جوهر الأشياء فباقية مهما حصل من تغير، والجذور تبقى في رحم التراب التي تكمن فيه الحياة ثم تولد من جديد لتعيد سيرتها عندما تواتيها الفرصة المناسبة عبر تتابع الفصول.

وينمي الشابي رومانسيته، فتنمو معها الجذور في أحوال متنقلة مع أحوال البشر في الأحلام الذاتية والذكريات، فإذا كانت البذور تحلم بجمال الفصول وروعة الحياة وتغيرها الذي يبعد السأم وهي تتذكر الغيوم في الأفق كما يتذكر الأليف أليفة، فالأولى بالإنسان أن يتذكر وأن يحلم بجمال الحياة، فمن أعماق التراب ومن تحت الضباب والثلوج والمطر وقساوة الشتاء تظهر الحياة، ويأتي الربيع بجماله وشذا عطر أزهاره واخضرار المروج فيه.

وحتى يوضح الشاعر تطور الزمن وتغيره يرمز إلى ما ينتاب المرء من صروف الزمان الذي يسير بصحبة الصروف والمصاعب والمشاق الكبيرة، ولا تكاد تزول واحدة حتى تعقبها أخرى، ومع ذلك فالأمل باق وشهوة الحياة لا تنقرض، بل تظهر أحداث جديدة يسطرها تاريخ الكون فتنمو وتتجدد وتعانق أضواء الصباح موشحة بغموض السحر.

ويحار الرائي حينها ! أهو حلم أم حقيقة؟ أم هي أحلام يقظة؟ فيسأل أين الضباب الذي كان في الصباح؟ وأين جدول الماء بسحره الخلاب؟ بل وأين ضوء القمر في الليالي الهادئة؟ ثم تتتابع التساؤلات عن أسراب الفراش بألوانه الشفافة الزاهية، وعن النحل بطنينه، وعن الغيوم وهي تمر، وعن أشعة الشمس وعن الكائنات، ليأتي التساؤل الكبير عن الحياة التي كان ينتظرها.

لقد عادت شمس الربيع الحانية رقيقة لا تؤذي الكائنات التي صبرت على برد الشتاء لأنها انتظرت معانقة الربيع الجميل الوديع، ومن أجل ذلك جاء رد الطبيعة للربيع وقد اشتاقت إلى النور، إلى الحرية فوق الغصون، إلى ظل الشجر، إلى النبع بين المروج يغني ويراقص الزهر، إلى ألحان العصافير، وهمسات النسيم في الصباح، إلى لحن المطر، اشتاقت إلى الكون كله والوجود بما فيه، هذا الكون الذي ساده السكوت والجمود، هذه كلها عطشى للحرية وللحياة من قيود الشتاء لترى كون الربيع الجميل وهو يعيد الشباب وتعود معه بسمة الكون، هكذا يمشي الزمان وتتغير الحياة، بسرعة خفق جناح الطير، لتنتصر الحياة على العدم عندما تصدعت الأرض وخرجت الحياة من البذرة في باطن الأرض، بألوان زاهية فأعاد الشباب الذي غشيه الذبول، ليحدث الأرض فيقول ها أنت قد منحت الحياة وخلدت في نسلك المدخر داخل البذور.

المرء الذي يعمد النور ويحبه، فإن النور يباركه أينما وجد، فهذا هو الفضاء بفجاجة، والضياء بسعته، وهذا هو الوجود الواسع النضر، فإليك الجمال المستمر، فميدي أيتها الحياة في جمال الربيع كما شئت فوق الحقول بالثمار الناضجة والزهر المتفتح وناجي النسيم وناجي القمر لتعود الحياة بأشواقها وفتنتها، ولنعد إلى الحياة نتأمل حقائقها لنعرف قدر جمالها وسحرها الفتان الذي يشهد بقدرة وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ويؤكد الشاعر في نهاية قصيدته، بأن ظلام الليل يخفي تحت ستاره الشفاف جمالاً عميقاً ومؤثراً يمدنا بالصور الجميلة التي تغذي خيالنا ويذكي أفكارنا بعظمة الخالق

الذي صنع هذا الكون بهذه الروعة الساحرة، فأضاء الكون بكواكب لامعة وضاءة لنهتدي بها في الليل، وخلق لنا الزهر الجميل ليصنع الإنسان منها عطره الشذي، وخلق الطير المرفرف بأجنحته ليزيد جمال الكون، وخلق القمر ليزيد جمال الليل ونستأنس بضوئه، ليعلن في عليائه أن الحياة هي للطموح القوي الذي يتحمل ويصبر لينال في النهاية حريته وكرامته، وهكذا يستجيب القدر لإرادة الأقوياء، الذين يناجون الحرية فتلبي طلبهم وتقبل عليهم من رحم البؤس والعذاب، لأن النفوس الطامحة للحياة الكريمة لا بد أن يستجيب لها القدر.

الأفكار في القصيدة:

1- **الأبيات (1-5)**: يوضح الشاعر فيها حتمية انتصار الإرادة الحرة مهما واجهتها من تحديات، ومصدر هذه الفكرة الأحداث التي عاصرها الشاعر.

2- **الأبيات (6-11)**: يجري الشاعر حواراً بينه وبين الريح، وهو صراع من أجل البقاء، ويؤكد بأن الأماني لا تتحقق إلا بالعمل والجهد.

3- **الأبيات من (12-18)**: يحاور الشاعر فيها الأرض التي تؤكد وقوفها مع الأقوياء وأصحاب الإرادة والعزيمة القوية، وأنها تحتقر الضعفاء.

4- **الأبيات من (19-34)**: يؤكد الشاعر أن الطبيعة ترفض الضعفاء ولا تكترث بما يحل بهم من ويلات، وأن الحياة متجددة عبر البذور.

5- **الأبيات من (35-44)**: يصور الشاعر أحاسيسه حول مسيرة الكون، ويؤكد أنه لا شيء أجمل من الحياة الحرة الكريمة.

6- **الأبيات (45-56)**: يناجي الشاعر الطبيعة ويحاورها، ويبين ما في الكون من سحر وجمال متأثراً بجمال وطنه منبهاً الشعب التونسي إلى سر هذا الجمال والذي يستحق منه صحوة تقاوم المحتل ونيل الاستقلال.

7- **الأبيات (57-63)**: الطلب من الشعب، التمسك بحقه وطموحاته المقدسة لتحقيق الهدف الكبير بنيل الحرية والاستقلال عن طريق الدم، الذي هو أهون من الذل في ظل الاحتلال.

3- نشيد الجبار

هذه القصيدة على البحر الكامل وتفعيلاته:

ب ب - ب -/ب ب - ب -/ب ب - ب -   ب ب - ب -/ب ب - ب -/ب ب - ب -

وقد جاءت القصيدة بقطع متفاعلن لتصبح «مُتْفاعلْ» أي بحذف الوتد المجموع من الآخر، أو دخول زحاف مضمر وهو تسكين الثاني المتحرك، فتصبح التفعيلة مكونة من سببين خفيفين ووتد مجموع «مُتْفاعلن أو مستفعلن»

سـأعيش رغـم الـداء والأعـداء   كالنـسر فـوق القمَّـة الـشمَّاءِ

ب ب - ب -/ - - ب -/ - - -   - - ب -/ - - ب -/ - - - -

متفاعلن   متْفاعلن   مُتْفاعلْ   متْفاعلن   متْفاعلن   متْفاعلْ

شرح الأبيات

1- **الأبيات من (1-6)**: حملت الأبيات فكرة مضمونها ثقة الشاعر بنفسه أمام قوة المستعمر وظلمه، وما يتأتى من ذلك من ألم. ويقول:

سأحيا قوياً شديداً رغم المرض الشديد ورغم ظلم الأعداء كالنسر عالياً مرتفعاً فوق قمم الجبال، متطلعاً إلى الشمس المرتفعة المشرقة بضوئها، ساخراً من السحب التي تغطي الحقيقة والأمطار الشديدة والأنواء، ولا أنظر بطرف عيني إلى الظلال ولا إلى الحفر البعيدة السوداء ولن تنكسر همتي، وسأبقى سائراً حالماً مغرداً إلى الحرية مصغياً لموسيقى الحياة وإلهامها لأسيل الوجود المطلق في قصيدتي مستمعاً إلى صوت الحق والكرامة الذي يحيي القلوب الضعيفة.

2- **الأبيات من (7-13)**: يتحدى الشاعر في هذه الأبيات الأعداء من خلال القدر، حيث شخص القدر وحاوره وتحدث إليه وهو يرى:

أن القدر يحارب آماله التي يود تحقيقها بكل ما فيه من ظلم وجبروت ويرسل عليه شتى صنوف المصائب، لكن الشاعر يقف أمام هذا القدر ليرد عليه بعدم قدرته إطفاء جذوة النار المؤججة في دمائه مهما كثرت مصائبه ومهما هاج موجه وعواصفه. ثم يتحدى القدر في مرض أو مصيبة لأنه يرضى بقضاء الله.

ومن خلال هذا التحدي فلن يذل الشاعر ولن يستكين ولن يبكي ويتضرع دون أن يضعف أو يستسلم، بل سيظل يحيا حياة الجبارين وهو يتطلع إلى بزوغ الفجر الجديد

الجميل وإن كان ما يزال بعيداً، وحتى يطل الفجر فلن يخيفه الظلام الذي يعترض طريقه أو الأشواك المؤذية أو الحجارة، لأنه قادر على تجاوز كل ما يعترضه، ويؤكد الشاعر أنه يتحدى الخوف كما يتحدى الردى والموت وكل ألوان البأساء التي وصفها بالصواعق. وقد طعم الشاعر أبياته هذه بالاستعارة حين خاطب القدر في البيت الأول كما استخدم التشبيه في (حرب آمالي) وكنى في البيت الثامن عن الثورة الكامنة في صدر الشاعر، كما جاءت الاستعارة المكنية في الأفعال: اهدم - أملأ - انشر، وكلها حملت معنى التحدي، وهذه من الجماليات التي انتثرت خلال الأبيات.

3- **الأبيات (14-22)**: وتحمل الأبيات فكرة تفاؤل الشاعر بالمستقبل، والسعادة بالخلاص من مآسي الحياة. ويستمر الشاعر في تحديه بأنه سيبقى مستمراً صامداً، وسيظل صادحاً بشعره مترنماً بقصيده، مستمراً في إصراره على الصمود كالنجم المتوقد في الظلام أو من خلال آلام المرض، فالأمل يحدوه في قلبه وبين ضلوعه، ولذلك لن يخشى السير في الظلماء، وسيبقى حياً بنايه وأنغامه التي لا تتوقف ولا تنتهي، وهو يشبه نفسه بالبحر الواسع الذي تتلاطمه الأمواج وشدتها ولكنها لا تزيده إلا إصراراً وعزماً.

أما إذا قضي الأمر وانتهت حياته، وتوقف نايه، وانطفأ القلب الذي كان حياة مشتعلة قوية، فهو سعيد لأن الموت انتقال من حياة الآلام والبغضاء ليذوب في فجر الجمال الخالد والسعادة الدائمة والنور الساطع.

4- **الأبيات (23-35)**: السخرية من المستعمر وتحديه.

يخاطب الشاعر أعداء الأمة، ويبين لهم فضائحهم للشعب المقهور من احتلالهم بأن هذا الظلم لن يستمر طويلاً ونهب الخيرات لن يدوم، فكل هذه الأفعال لن تفتر عزيمته ولن توقف حماسه، وستأتي العاصفة لتأخذ في وجهها كل ما يعترضها، وسيختفي المحتل ومن يسير في دربهم، ويعود الأمان إلى الوطن، وسيكون الجواب من الشعب قاسياً وواضحاً. وقد جاءت خاتمة القصيدة قوية بعنفوان الشباب وتحدي المستعمر، والأبيات مليئة بإشارات التحدي عامرة بالإيمان الذي يتحدى الأوضاع المؤلمة.

فنون الشابي الشعرية

الشابي شاعر وجداني، لكن أشعاره الوجدانية كانت قليلة، فقد ورد له شعر في الغزل والوصف والشكوى، والقصيدة التي رثا فيها والده هي وجه من وجوه الشكوى التي كثرت في ديوانه، بل وتغلب على أشعاره، لكن الشابي له ميزة خاصة في شعره قلما نجدها في الشعر العربي منذ أقدم العصور، وهي خاصية سعة الخيال، وشبوب العاطفة، وموسيقى ساحرة، لكن الموت كان له بالمرصاد، فموته المبكر لم يتح له الفرصة في المزيد من أغراض الشعر. وتكاد تنحصر فنونه في ثلاثة جوانب: الشعب والحب ووصف الطبيعة، أما الشكوى فمجالها كبير في شعره تحتاج إلى أن نفرد كتاباً خاصاً بها لأنها تدخل في معظم قصائده ويشتمل ديوانه أغاني الحياة قصائد متعددة في باب الشكوى.

الشابي والشعب

إن من يستعرض ديوان الشاعر ورسائله ومذكراته، فإنه يقف على حقيقة ما ينفعل به من أحداث عن طريق عاطفته، ويتمثل هذا الشعور في الشفقة والحسرة تارة وإبداء العطف والحنان تارة أخرى، وهذا واضح في إثارة الشعب ضد الظلم والطغيان وفساد الأوضاع، كما يتمثل في تهديد المحتل بثورة الشعب وسيله الجارف، ويظهر هذا واضحاً في قصيدته «إرادة الحياة» التي بدأها بقوة حين جعل السبيل الأول حركة الشعب في قوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر

وهو يحترم شعبه ويثق في قدرته حين يقول:

وفي صيحة الشعب المسخر زعزعٌ ... تخرُّ لها شمُّ العروش وتُهدم

لكنه مشفق على الشعب ويتعاطف مع أحاسيسه ومشاعره في قوله:

كلما قام في البلاد خطيب ... موقظ شعبه، يريد صلاحه
أخمدوا صوته الإلهي بالعسـ ... ـف، أماتوا صداحه ونواحه

هذا الشعب الذي فقد الرائد والمنقذ، وانشغل المصلحون بسفاسف الحياة ومظاهر الدنيا وعاش الشعب تائهاً:

الشاعر الموهوب يحرق فنه ... هدراً على الأقدام والأعتاب

والــشعب بيــنهما قطيــع ضــائع   كالــدود في حمــم الرمــاد الخــابي

وكان الشابي يعيش مع الناس كالغريب الوحيد أو كالمأسور، ولذلك نراه يريد الحياة بعيداً حتى عن أمته وأهل بلاده، ويحاول أن يستنهض همة الشعب ويستثيره بدعوته للثورة وتحطيم الأغلال، يدعو الشعب صارخاً بحكمته منادياً عله يبدل الأوضاع:

أيــن عــزم الحيــاة ؟ لا شيء إلا الــ   ــموت والـصمت والأسـى والظـلام

ثم يتساءل عن حقيقة الشعب الذي عشق الحياة وتشبث بها:

أيـن يـا شـعب قلبـك الخـافق الحـساس   أيـــن الطمـــوح والأحـــلام ؟
أيـن يـا شـعب روحـك الـشاعر الفنـان   أيـــن الخيـــال والإلهـــام ؟
أيـن يـا شـعب فنـك الـساحر الخـلاق   أيـــن الرســـوم والأنغـــام ؟
إن يـــم الحيـــاة يـــدوي حواليـــك   فـــأين المغـــامر المقـــدام

وما زال ينادي الشعب، ويمعن في العتاب، لعل الشعب يستيقظ من غفلته الثقيلة، فيدعو إلى نبذ القيود، فالصخور تنشق أمام عزم الحياة ويظهر منه النبات الضعيف:

لا يـــنهض الـــشعب إلا حـــين يدفعـــه   عـــزم الحيـــاة إذا مـــا اســـتيقظت فيـــه
والحـــب يخـــترق الغـــبراء منـــدفعاً   إلى الـــسماء إذا هبـــت تناديـــه
والقيـــد يألفـــه الأمـــوات مـــا لبثـــوا   أمـــا الحيـــاة فيبليهـــا وتبليـــه

فالحياة لا تتأتى ليائس أو ضعيف أو ميت، فهي لا تقبل الحلول، فإما إقبال وإما فناء وشقاء:

ولـــلـــشعوب حيـــــاة   حينـــــاً وحينـــــاً فنـــــاء
واليـــأس مـــوت ولكـــن   مـــوت يثـــير الـــشقاء

فهو يطالب الشعب بالإرادة القوية الصادقة التي يساندها الجد ويدفعها العزم لأن الليل مهما طال، فإن الفجر قادم والصبح منبلج:

ولا بـــد لليـــل أن يـــنجلي   ولا بـــد للقيـــد أن ينكـــسر

ومرشد هذا كله الطموح رغم العقاب:

إذا طمحـــت للحيـــاة النفـــوس   فـــلا بـــد أن يـــستجيب القـــدر

ثم يلتفت بعد ذلك إلى الطغاة الذين استغلوا الشعب، فينذرهم بالثورة التي تجرف كل ما يعترضها وهي مندفعة بشدة، ينذر المستبدين بالنار الكامنة تحت الرماد:

ألا أيها الظالم المستبد حبيب الظلام عدو الحياة
سخرت بأنات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه
سيجرفك السيل: سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل

ويكمل الصورة في تهديد المستبد المتجبر فيقول:

لك الويل يا صرح المظالم من غد إذا نهض المستضعفون وصمموا
إذا حطم المستعبدون قيودهم وصبوا حميم السخط أيان تعلم

هذه هي ثقة الشاعر بالشعب، فهو غافل خائف، ولكن الأمل يحدوه حين ينفض الشعب غبار الاحتلال، ويأتي يوم الثأر يوم يهب الشعب بإرادته وعزيمته، وسيثأر من المحتل:

سيثأر للعز المحطم تاجه رجال إذا جاش الردى فهم هم
رجال يرون الذل عاراً وسُبّة ولا يرهبون الموت والموت مقدم

لكن إحساس الشاعر المرهف ينفعل مع أعصابه المكدودة وجسمه العليل فيغضب ويثور، لأن آماله في الشعب لم تتحقق، فيشعر بالإحباط، فيسخط، ويعتزل الشعب ويهرب إلى عالمه العاطفي الذي شاده من آماله وآلامه.

يئس الشاعر وهو معذور في ذلك خاصة وأن عمره كان قصيراً، أو أن إحساسه بنهاية حياته قد اقترب، فلجأ إلى الغضب الصاخب، حتى تمنى تحطيم هذا الشعب انتقاماً، وقد بنى ثورته وسخطه على الشعب لإحساسه بأن هذا الشعب يكره النور، لأنه لا يدرك الحقائق، إنه كالطفل الصغير يلعب بالتراب وسط الظلام. وقدّم النصيحة، لكن الشعب لم يسمعها ولم يصغ إليه، فينسحب تاركاً شعبه في ضلاله وينفرد في الغاب يعيش مع يأسه في الطبيعة ومفاتنها، «هكذا كانت رسالة الشابي قد انتهت بسلبية بغيضة ويأس قاتل، ولهذا العمر القصير أكبر الأثر في بتر تلك الرسالة التي لو قدر لصاحبها أن يعيش أكثر مما عاش، لكانت رسالة تامة لا تنتهي بتلك الخاتمة المفجعة»[1].

---

(1) دراسات عن الشابي، أبو القاسم محمد كرون بقلم محمد العروس المطوي.

أيهـا الـشعب ليتنـي كنـت حطابـاً | فـأهوي عـلى الجذوع بفـأسي
ليتنـي كنـت كالـسيول إذا سـالت | تهـد القبـور رمـساً بـرمس
ليتنـي كنـت كالـشتاء أغـشي | كـل مـا أذبـل الخريـف بقـرسي
إننـي ذاهـب إلى الغـاب يـا شـعبي | لأقـضي الحيـاة وحـدي بيـأس
ثـم أنـساك مـا اسـتطعت فـما أنـت | بأهـل لخمـرتي ولكـأسي

المرأة في شعر الشابي

تعني المرأة للشاعر الرومانسي الشيء الكثير، ومعروف أن الشابي كان شاعراً رومانسياً بأصدق المعاني وأعمقها. وقد تمثلت المرأة عنده مسرحاً لخياله طريقاً لعواطفه، عروساً لشعره.

وقد تحدث الدارسون عن هذا الجانب وأفاضوا في شعر الشابي ومنهم الأستاذ التليسي الذي عقد في كتابه «الشابي وجبران» فصلين حول المرأة عند الشابي وجبران، كما تحدث الأستاذ زين العابدين السنوسي عن عواطف الشابي في «حب المرأة الرؤوم» حين تحدث عن حب الشابي الأول الذي سبق زواجه.

لقد وقف الشابي إلى جانب «الطاهر حداد» في دعوته إلى تحرير المرأة الذي ألف كتاباً بعنوان «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» وإن لقيت دعوته استنكاراً وسخطاً من المجتمع والمفكرين إلا أنها لقيت الرضا والتأييد من الشابي. فقد كان الشابي ساخطاً من وضع المرأة في المجتمع التونسي، كما كان ثائراً على وضع المرأة في الأدب العربي القديم، لأن الشاعر القديم في رأيه لم يكن يفهم من المرأة إلا أنها «جسد يشتهى، ومتعة من متع العيش الدنيء» وحسب اعتقاده أن الشاعر العربي القديم لم يعرف تلك النظرة الفنية التي تعد المرأة كقطعة فنية من فنون السماء، وهذا واضح في كتابه «الخيال الشعري عند العرب» وبغض النظر عن آرائنا في عدم موافقتنا للشابي في هذه النظرة أو تجاهله للحب المثالي عند عنترة وغيره من شعراء العصر الجاهلي أو الحب العذري عند الشعراء في العصر الأموي، فالذي يهمنا هو ثورته على وضع المرأة العربية وخاصة في تونس، حيث حاول أن يعبر عن ثورته العقلية وأن يستجيب لظمئه الروحي بوضع المرأة في مثال رفيع يملأ قلبه ووجدانه ومشاعره.

ولهذا فإننا نحس أنه يعبر عن المرأة من جانب إنساني، يحمل معنى القداسة، ويربط بينها وبين أجمل ما في الطبيعة ويغني لمعنى الحب، ليجد في ذلك عالماً سحرياً رقيقاً يزوده بصور من الحياة ما يفوق الجمال الحسي.

يؤكد من عاصر الشابي ومن كان قريباً منه أن الشابي عرف الحب وهو يافع، فكانت فتاته الأولى التي تربى معها في بلدته الشابية، ثم اختطفتها يد المنون غضة يافعة، فحزن عليها حزناً عميقاً، حتى كان رحيلها سبباً من أسباب مرضه في رأي صديقه زين العابدين السنوسي، ثم زوّج الشابي بامرأة أنجب منها طفلين، هما محمد الصادق الذي عمل ضابطاً في سلاح المشاة بالجيش التونسي، وجلال وعمل مديراً لإحدى شركات الحديد في تونس. ولكن رغم ذلك فقد كانت للشابي خصوصية في حياته العاطفية، ربما لم يطلع عليها أحد وما كان من تحليلات حول هذا الموضوع إنما كان من باب التخمين غالباً.

ورغم ذلك فقد بقي يتغنى بالحب حتى آخر لحظة في حياته، غناء الذي يؤمن أن الحب هو معنى الحياة. وظلت المرأة التي يحبها من صنع خياله، فهي امرأة مثالية تكونت من روح لا من جسد، ولذلك جاءت خيراً مطلقاً، وحباً روحياً شفافاً يسمو فوق نداء الغريزة، وهذه ظاهرة مشتركة بينه وبين الرومانسين إنه حب «شيلي» و«وردز ورث» و«دي موسيه» وغيرهم.

ولعل قصيدة «صلوات في هيكل الحب» مثالاً لصورة المرأة الشفافة الرقيقة وكأنها جاءت من عالم آخر، ملائكي سحري لم يعرفه البشر:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام　　　كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء　　　كالورد كابتسام الوليد
يا لها من وداعة وجمال　　　وشباب منعم أملود
يا لها من طهارة تبعث التقديس　　　في مهجة الشقي العنيد

كما نجد مثل هذه الصورة أيضاً في قصيدته «أيتها الحالمة بين العواصف» حين يقول:

أنت كالزهرة الجميلة في الغاب　　　ولكن ما بين شوك، ودود
والرياحين تحسب الحسك الشرير　　　والدود من صنوف الورود
فافهمي الناس إنما الناس خلق　　　مفسد في الوجود غير رشيد
ودعيهم يحيون في ظلمة الإثم　　　وعيشي في طهرك المحمود
كالملاك البريء كالوردة البيضاء　　　كالموج في الخضم البعيد
كأغاني الطيور كالشفق الساحر　　　كالكوكب البعيد السعيد

ويستمر الشابي في رسم أحاسيسه وتصويره الفني في صور المرأة الملائكية الكاملة التي تجمع أجمل ما في العالم لأنها تمثل المعاني الإنسانية الراقية:

أنـت مـن ريشة الإلـه فـلا تلقـي   بفـن السما لجهـل العبيـد
أنـت لم تخلقـي ليقربـك النـاس   ولكـن لتعبـدي مـن بعيـد

ويربط حديثه بالحب، لأنه يمثل عاطفة مقدسة تتجه إلى مقدس، هو المرأة تحمل صورة جديدة هي صورة الأم التي تحمل أقدس عاطفة وهي عاطفة الأمومة، ومع كل هذا التقديس فإن غلالة سوداء تكنف حديثه حين يتحدث عن موت طفل ونسيان أمره، عاطفة تتوشح بالحزن والألم بسبب الفاجعة التي تحول هذا الحب إلى مأساة:

كـل نـسوك ولم يعوجـوا يـذكرونك في الحيـاة
والـدهر يـدفن في ظـلام الليـل حتـى الـذكريات
إلا فـؤاداً ظـل يخفـق في الوجـود إلى لقـاك
ويـود لـو بـذل الحيـاة إلى المنيـة وافتـداك

وربما اصطدم الحب بعقبة من العقبات فيصبح أيضاً حباً حزيناً فبعد أن كان مع الحبيبة كزوجي طائر تجده اختفى خلف الغيوم وذلك في قصيدته «الذكرى»:

كنـا كزوجـي طـائر في دوحـة الحـب الأمـين
نتلـو أناشـيد المنـى بـين الخمائـل والغـصون
متغـردين مـع البلابـل في الـسهول والحـزون
حتـى إذا كـدنا نرشـف خمرهـا ، غـضب المنـون
ثـم اختفـى خلـف الغيـوم كأنـه الطيـف الحـزين

نظرة حزينة وحب وصل مداه ليختفي أو يقترن الموت بالحب ليعبر الشاعر عن مأساة:

قـد كـان لي مـا بـين أحلامـي الجميلـة جـدول
يجـري بـه مـاء المحبـة طـاهراً يتسلـسل
قـد كـان ذلـك كلـه بـالأمس ! بـالأمس البعيـد
والأمـس قـد جرفتـه مقهـوراً يـد المـوت العتيـد

ذبل الزهر على يد الخريف الذي يحمل رياح عاصفة، فقضت على كل ما فيه حياة ورغم ذلك فإن معنى الحياة عنده هو الحب، والموت لا يكون موتاً إلا لأنه يقضي على هذا الحب، ويوضح ذلك في قصيدته «أنا أبكيك للحب» حيث يقول:

إنــــما أبكيـــك للحـــب الـــذي كـــان بهـــاه
يمـــــلأ الــــدنيا فــــأنى سرت في الـــدنيا أراه

إذن يصور الشاعر المأساة بفقدان الحب.

وكان الشابي يستدعي في شعره الحب ليغمره ويفيض عليه ليكبله ويدرك سعادته وفنه من خلال هذا التكبيل لعلها تنتج شيئاً جديداً.

كـبلي يـا سلاسـل الحـب أفكـاري وأحـلام قلبـي الـضليل
كبليـني بكـل مـا فيـك مـن عطـر وسـحر مقـدس مجهـول

وهو يتمنى مقابلة الحبيبة وهي أحلام وأماني لا تلامس أيد ولا شفاه.

ليتنـــي كنـــت زهـــرة تتثنـــى بـــين طيـــات شـــعرك المـــصقول
أو فراشـــاً أحـــوم حولـــك مـــسحوراً غريقـــاً في نـــشوتي وذهـــولي

وما أظن قول الشاعر إلا عاطفة رومانسي وخيال جانح لا تغور ولا تبلغ أقصى مدى العواطف، وهذه مثالية تشرق مع الخيال في شفافية متكاملة وائتلاف بين عناصر الجمال والسعادة، وهذا يتجلى حين يعرض لعيني الحبيبة:

أي دنيـــا مـــسحورة أي رؤيـــا طـــالعتني في ضـــوء هـــذي العيـــون

ويلاحظ الدارس أن الشابي وحّد بين الطبيعة والمرأة، وهذا مبثوث في معظم قصائده، فالحب مشرق كالصباح وينمو كالورود وتشخص فيه السماء ورقة الربيع وطهر الثلوج وسحر المروج:

أراك فتحلـــو لـــديّ الحيـــاة ويمـــلأ نفـــسي صـــباح الأمـــل
وتنمـــو بـــصدري ورود عـــذا ب وتحنـــو عـــلى قلبـــي المـــشتعل
ويفتننـــي ســـحر تلـــك الـــشفاه ترفـــرف مـــن حـــولهن القبـــل
فأعبـــد فيـــك جمـــال الـــسماء ورقـــة ورد الربيـــع الخـــضل

هكذا كانت رقة المعاناة وعذوبة العاطفة وحنانها، فالحياة تبدو أجمل عندما تطالعه الحبيبة لأنها تخلع من ذاتها على الوجود، تغشاه بالصور النفسية.

كما أن للحب قدرة عجيبة في الإحياء والبعث:

أراك فــــأُخلق خلقـــاً جديـــداً　　　كــأني لم أبْـــلُ حــرب الوجــود

وفي موضع آخر يقول:

أراك فتخفـــق أعـــصاب قلبـــي　　　ويهتـــز مثـــل اهتـــزاز الـــوتر
فتخطـــو أناشـــيد قلبـــي ســـكرى　　　تغـــرد تحـــت ظـــلال القمـــر

هذا الحب هو الذي يوحي له بالقصيد والنغم الجميل.

هكذا نظر الشابي إلى المرأة، وربطها بالحب تارة وبالطبيعة والكون تارة أخرى، فهي الملاك الذي يهبط من عالم الخيال السحري ليشفي الجراح ويحمل رحيق الوجود المقدس، وقد كانت النظرة الرفيعة للمرأة والحب خير مساندة لدعوة تحرير المرأة في تونس، وقد تركت هذه الدعوة الشعرية أثرها في المجتمع التونسي. كما كانت نظرة الرومانسيين للحب توضح العلاقة بين الرجل والمرأة. وهكذا رسم الشابي لوحة للمرأة لتظل في ضميره خيالاً بريئاً ملاكاً تعيد للطبيعة أضواءها وعطرها في نفس الشاعر وفي عالمه، متولدة من عذريته وصوفيته التي أشرقت في نظرته للمرأة والحب.

دراسات حول الشابي

أعد أبو القاسم محمد كرو كتاباً، فيه مجموعة من الدراسات مختارة من أقلام عدد من المهتمين بحياة الشاعر وآثاره، ومن هذه الأقلام ما كتب عن الشابي المصلح، أو من كتب عن أثر أدباء المهجر في أدب الشابي، وغير ذلك مما سيأتي لاحقاً، وقد جاءت بعض هذه الدراسات مثالاً للبحث العلمي أو مقالات فيها خلاصة آراء الباحثين والدارسين، وتوزعت هذه الدراسات بين أدباء ونقاد المغرب العربي، وبعض هذه الدراسات كانت مشرقية. وسوف أضع هذه الدراسات بشيء من الإيجاز على النحو الآتي:

1- الشابي وتجربة «الفجر البعيد» للأستاذ الشاذلي القليبي:

قدّم الباحث لدراسته عن العقبات التي تواجه الدارس لشعر أبي القاسم أو التوفيق بين النزعات المتضاربة في شعره.

ثم تحدث عن بعض القصائد التي تعبر عن حب الشاعر للحياة وفتنتها، والتي سرعان ما تتحول إلى كآبة وتبرم، ثم يلتفت إلى الجمال الذي لا يكون إلا مظهراً خلاباً وسحراً مزوراً، واستشهد الباحث بأبيات من قصيدة «الجمال المنشود» التي يتغنى الشاعر فيها بجمال العذارى، ثم إذا هو التقى بالحياة في بعض آياتها الفاتنة أعرض عن ذلك التشاؤم القاتم وتغنى بها في نشوة العاشق الولهان.

ويبين الأستاذ الشاذلي أن الشيء الذي يلاحظ في شعر أبي القاسم عامة هو رفضه للحياة البشرية على أنها مظلمة مزيفة، وأن الشاعر في بدايته ارتقى بشعره إلى النغمات الكبرى الخالدة. ورجع إلى توق الإنسان إلى الغيب وتجاوزه نحو المطلق. ثم أوضح أن الشاعر قد رمى إلى ما وراء هذه الحدود المادية ورمز إلى ذلك بالنور والصباح، ومع ذلك فلم يستطع أن يتخلص من ظلماته، ولذلك كثرت في شعره الصور التي تمثله على طريق موحشة. وهذه الثورة هي المحرك العاطفي لحياة الشاعر الباطنة، وهي إشارات كثيرة في قصائده، كما أشار الباحث إلى الثنائية الغريبة لوجه الحياة عند أبي القاسم الشابي، وهنا ينكشف الوجود الحقيقي، الوجود السرمدي الروحاني الطاهر الذي سيكون له بعد خلاصه من قيود المادة. هذا الوجود الذي رمز إليه الشابي بالفجر البعيد والصباح الجديد كما بين أن الشاعر أحب الحياة، ولذلك كثرت ثورته على هذا الوجود الذي لا يقدم للحي

الصورة الجميلة الكاملة التي ينشدها، وهو يدعو الشعب إلى إرادة الحياة كما يدعو إلى الثورة على الحاضر.

2 - ميلاد الشابي للأستاذ أبو القاسم محمد كرو:

وضع الأستاذ محمد كرو دراسته هذه وقد مضى نصف قرن تقريباً على ميلاد الشابي، وبعد أن سجل صاحب الدراسة لمحات عن حياة الشابي، قال: «لا .. لا .. إن الشابي لم يمت ولن يموت .. وإن دفن جثمانه في أعماق الثرى وغاب كيانه المادي عن أبصارنا ... وكيف يمكن أن يموت من عاش قيثارة تتغنى ... » وقال أيضاً: «كيف يموت من علمنا أغاني الحياة، وأنار طريق الشباب بالحب والإيمان والنضال». ثم تحدث عن دعوة الشابي لشعبه للنهوض من كهوف الماضي ليسير نحو المجد، ولما لم يستجب الشعب لصيحته صرخ منددأً بالخوف والاستسلام لتلك الظلمات وتلك القيود، واستشهد على ذلك بأبيات للشابي، كما تحدث عن بيئة الشابي المحافظة ودراسته وعن غربته داخل وطنه وبين شعبه، وتحدث عن سخطه، ومرضه وموته وهو كالزهرة الغافية في أحلام الحياة، مات ليحل في تجربة جديدة، وفي عالم تحدثت عنه الأديان وتغنى به الشعراء، وبهذا تحققت أمانيه بسكوت جراحه واختفاء شجونه، فأقبل على الموت قرير العين نحو شاطئ الأبدية في فرح كبير بالحرية، وغبطة بالفجر الجديد، مودعاً عالمه الصغير، عالم الآثام والبغضاء وكأن حياته على الأرض حلم ليلة ساحرة.

الـــــــوداع الـــــــوداع ‏ يـــــا جبـــــال الهمـــــوم
يـــــا ضـــــباب الأســـــى ‏ يـــــا فجـــــاج الجحـــــيم
قـــــد جـــــرى زورقـــــي ‏ في الخـــــضم العظـــــيم
ونـــــشرت القـــــلاع ‏ فـــــالوداع ... الـــــوداع

3 - كيف ندرس الشابي للدكتور محمد فريد غازي:

ألقى الدكتور محمد فريد محاضرة بعنوان «هل الشابي رجعي» وقوبلت محاضرته بمزيد من الاهتمام وفتحت باباً للنقاش بين الأدباء والنقاد والشعراء.

وقد قدم لبحثه بالحديث عن الباحث النزيه المتعقل، سيما فيما يعود إلى شاعر تونس أبي القاسم الشابي.

ثم تحدث عن خطة منهجية لدراسة الشابي بوصفه شاعراً فردياً، ووضح طريقة أخرى لدراسة الشابي التي تكمن في أنه فرداً من أفراد مدرسة شعرية كاملة، وهي المدرسة الرومنطيقية ووضع مقارنة بين أفراد هذه المدرسة وأصحاب المذهب الكلاسيكي. ووضع مقارنة بينهم وبين من جاء بعدهم وهو ما أطلق عليه بالمدرسة الرمزية، ويستمر الباحث في دراسته حتى يصل إلى القول: «... فإن المتأمل النزيه والباحث المتجرد لا مناص له من أن يعترف بأننا لم نتقدم تقدماً ملموساً في بحوثنا عن الشابي، ولكن النزاهة أيضاً أن نعترف بأننا قد بدأنا نقترب من معرفة حياة الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي اقتراباً يبعث السرور في النفس». ومن هذه الدراسات التي تحدث عنها الباحث فقد تحدث باختصار عن:

1- بحث نشره الأستاذ عامر غديره.
2- دراسة وافية نشرها أبو القاسم محمد كرو.
3- دراسة نشرتها - كراريس تونس.
4- دراسة نشرت بعنوان «مرض أبي القاسم الشابي».

ثم تحدث عن دراسات قام بها الدكتور عمر فروخ وأبو القاسم محمد كرو والشاذلي بو يحيى ومحمد الحليوي ومصطفى خريف وغيرهم، وهو يكبر عملهم وإخلاصهم، ولكنه أردف يقول إن هذه دراسات ارتسامية تبحث في الشاعر بطريقة حرة غير مرتبطة بمنهجية علمية مضبوطة. ثم كانت له دعوة للباحثين في تونس والبلاد العربية للتعاون في وضع تخطيط مضبوط لبحث الشابي في الميادين التالية:

1- القيام ببحث عام يمكن أن يؤرخ فيه لقصائد الشاعر بطريقة مضبوطة.
2- جمع رسائل الشابي وتنظيمها وتبويبها وشرحها.
3- الرجوع إلى يوميات الشابي ومذكراته.
4- نشر بقية مؤلفاته وخاصة الطبعة الثانية من «الخيال الشعري عند العرب».
5- الاطلاع على مسودات للشابي ومحاضرات لم يطلع عليها الناس.
6- الرجوع إلى شهادات معاصريه عن حياته وآرائه وتطوره.

4- الشعب في شعر الشابي للأستاذ محمد العروسي المطوي:

هل للشابي رسالة في الحياة؟ وما هي إن كانت؟ وما هي معالمها في شعره؟

تحدث الباحث عن شعور الشابي نحو شعبه الذي تمثل في الإشفاق والحسرة وإبداء العطف والحنان، ثم في إثارة الشعب ضد الظلم والطغيان وفساد الأوضاع وباطل التقاليد ثم في تهديد الظالمين والطغاة بثورة الشعب وطغيانه، وبين أن هذا تمثل بالشعور المتشائم عند الشابي ويأسه، وصب جام غضبه عليه، ثم الاعتزال والهروب إلى عالم خيالي اختاره ليعيش فيه مع عالمه العاطفي الذي شاده من آماله وآلامه.

وقال: لقد حبا الشابي شعبه بالنصيحة والإرشاد، لكن الشعب لم يسمع النصيحة ولم يصغِ إلى الإرشاد، وداس ما قدمه إليه الشاعر وحطمه، فتحطمت قوة الشابي وخار عزمه وانسحب من بين شعبه تاركاً إياه يتخبط في ضلاله يهيم بعزلته وانفراده، ثم يعود ليحاول أن ينسى هذا الشاعر الناكر الجحود، لتنتهي رسالة الشابي بسلبية بغيضة ويأس قاتل، ووضح أن سبب هذا هو العمر القصير الذي كان له أكبر الأثر في بتر تلك الرسالة التي يقول فيها:

أيها الشعب ليتني كنت حطاباً   فأهوي على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول إذا سالت   تهد القبور رمساً برمس
ليتني كنت كالشتاء أغشى   كل ما أذبل الخريف بقرسي
إنني ذاهب إلى الغاب يا شعبي   لأقضي الحياة وحدي بيأس
إنني ذاهب إلى الغاب علِّي   في صميم الغابات أدفن بؤسي
لم أنساك ما استطعت فما أنت   بأهل لخمرتي ولكأسي

5- **الشابي وجبران للأستاذ خليفة محمد التليسي:**

تحدث صاحب الدراسة في بداية مقالته حول ما عرف بأن الشابي تلميذ نابغ لجبران، ووضح ذلك من خلال مفاهيم الحب والحرية والتمرد، ثم تأثر الشابي بجبران حول فصل عقده للمرأة في شعره، كما بين ما أصاب الشابي حين اتهم بالخروج على الدين واتهام جبران بالتطرف ومحاربة الكنيسة له، وقارن الكاتب بين غربة جبران وغربة الشابي وأوضح العلاقة بين الغربتين.

ثم تطرق إلى القصيدة المشهورة إرادة الحياة للشابي وكأنه يقارنها بقصيدة جبران في قصة (البنفسجة الطموح).

وقد قدم أبياتاً شعرية يوضح فيها أثر جبران في شعر الشابي سواء في قصيدة النبي المجهول أو القصائد التي تتحدث عن الغاب والطبيعة.

وأخيراً بينت الدراسة أن الشابي قد تأثر بالأدب المهجري وكان تأثره خاصاً بجبران. ووضح أن على الباحثين أن يلتفتوا إلى جبران أكثر من أي أديب آخر، وهم في غنى عن التخبط والتعسف والتأويل على الظن والتخمين، وهو يعلن أن هذا البحث محاولة، لأنه يوصي «أنه إذا أريد فهم الشابي والمدارس الأدبية التي أثرت فيه وعملت في أدبه فإنه يجب أن نلتفت إلى جبران بصفة خاصة. ذلك لأن النقمة على الرجعية، ومحاربة الكهانة، وتقديس الحرية، واحترام الشخصية الإنسانية، والإيمان بالطموح، وعبادة الفن، والركون إلى الطبيعة، وبساطة الأداء في التعبير، والصدق في الشعور، والعبارة التصويرية، كلها أشياء تتلمذ فيها الشابي على جبران».

6- محاولة جعل إطار لترجمة الشابي للأستاذ عامر غديرة:

هذا بحث جدير بالاهتمام، فهو قيم لأنه يحقق في كل حدث من حياة الشابي. وقد تحدث الباحث فيه عن أشياء كثيرة، وما كتب عن الشابي من خلال الأدباء والكُتّاب ومن خلال ترجمات وجعلها في إطار حقيقي، متبعاً التحقيق العلمي المرتكز على إعمال الرأي ومشاهدة الوثائق.

تحدث عن حياة الشاعر وعن أبيه ودراسته وأهم الأحداث التي حصلت مع الشاعر أثناء وجوده بالعاصمة، ثم انتقل إلى القراء الذين بدؤوا يطلعون على قصائد الشابي، كما تحدث عن رحلات الشابي مع والده في تونس، ثم انتقل إلى زواجه واعتبر هذا الحدث مشكلة صعبة لمن أراد دراسة حياة الشابي مستشفعاً بما جاء في مقالات السيد كرو والدكتور عمر فروخ وبعض من عرفوا الشابي. ثم تعرض لمشكلة مرض الشابي الذي مات فيه حتى يصل الكاتب إلى ملف الشاعر المرضي في المستشفى، وودّ في الختام لو تظفر حياة الشابي بالاهتمام ومقابلتها بالوثائق وأنه يرغب بالعودة إلى الموضوع إن شاء الله.

7- أبو القاسم الشابي للأستاذ محمد بدرة:

هذه الدراسة كانت في لحظة تأبين الشابي، ولفت الكاتب النظر بأنها أول مرة تحتفل تونس بتخليد ذكرى أحد شعرائها، وبين أن الشابي نبع مستقل تدفق وحده، وبيّن منزلة

الشاعر من خلال دراسات وصلت من الشرق والغرب. وقد وضح الباحث أن الشابي «حافظ على تراثنا اللغوي أشد المحافظة وسبكه في قوالب جديدة من عقله الجديد، وخلع عليه ظلالاً من أشعة روحه التي كانت تحيا بيننا، على أنه بين مجددي الأدب في هذا العصر يعتبر المثل الأعلى فلم يتكلف نظم قصيدة في الآلهة «أزيس» أو ينظم أخرى في البكاء على (الأكربول) المتصدع، ولكنه كان عربي الدم والملامح واللسان يشعر بأنه قطعة من قومه لا يعني غيرهم في كل ما يقول». ثم تحدث عن أهم مظهر للتجديد الذي توخى فيها البساطة مع قوة ومقدرة، ثم بيّن أنه خالف المجددين الذين يطلعون على شعوبهم ساخطين ساخرين. ثم بين عذر الشابي في تأثره بأحد الشعراء السابقين لعدم معرفته لغة أجنبية. وانتقل الباحث في دراسته إلى موضوعات الشابي الشعرية، وأظهر أنه شاعر الشعب وشاعر الوطن ثم قال: «لم نحتفل قبل اليوم بذكرى مثل ذكرى هذا الذي خلد نفسه بشعره ... كسيل جارف يريد أن يروي الأرض المجدبة وقد رواها».

8- في ذكرى ميلاد الشابي للأستاذ الهادي العبيدي:

أثنى الكاتب في البداية على شباب الاتحاد الصفاقسي الزيتوني الذي نظم الاحتفال بالذكرى. لأنها في رأيه أنفع الذكريات وأجداها وأعظمها فائدة، ثم تحدث عن عصر الشابي وما فيه من تململ للنهضة واليقظة، ثم بين أن الشابي لم يكن رجل سياسة أو قيادة عسكرية، ولكنه كان شاعراً لا يملك إلا قلبه، ومع ذلك فقد تقدم الطليعة واستغل مفعول الشعر وسحره في تنبيه قومه وهذه أولى خطوات الإصلاح. وشن الكاتب هجوماً على الذين سماهم المشلولين الذين لم يستطيعوا مسايرة خطواته في دروب الأدب وتساءل بعد ذلك: ما الذي جناه هذا البطل؟

دعا قومه أن ينفضوا غبار الغفلة وبناء المستقبل المجيد، فجاء رد الشعب مسايرة المنتفعين والدجالين والسخرية والشتيمة من آرائه، فتأثر من موقفهم وغضب وصور ذلك شعراً في قصيدة «النبي المجهول» صور حقيقة الشعب بكلمات قاسية كانت ردة فعل قوية منه، ولما ضاق ذرعاً أصبح لا يدرك الحقائق ولا يفقه الزور من الصدق وسقط عليه جدار الجمود الذي شاء تحطيمه. وفي الختام قال الكاتب «... رغم الداء والأعداء بمبادئه وآثاره. وينفخ في الشباب روح التوثب والانعتاق. فليرحم الله الشابي وليكن قدوة للشباب فيما ينتظره من كفاح جد شديد».

9- الشابي وهذه الحياة للدكتور عبدالله شريط:

تساءل الكاتب في مقدمة دراسته: «... ما السبب أو الأسباب التي جعلت الشابي يتبرم بالحياة في أشعاره وينفر من المجتمع والناس في حياته العملية والفكرية؟ قد يكون غريباً أن نشك في ذلك ويكون من الأغرب أن نؤمن بعكس ذلك وأن نزعم بأن الشابي لم يكن يبغض الحياة ولم يكن نافراً من المجتمع ولا متبرماً منه ولا حاقداً عليه، بل الأقرب إلى الواقع أن نقول إن الشابي كان يحب الحياة حباً مثالياً رفيعاً، كما كان يحب الناس حباً خالصاً سامياً ويرنو إلى الكون وما فيه بعين ملؤها الشوق الصادق والتعبد والنزهية».

ويستمر في حديثه فيقول: إنه لم يعرف الشابي إلا من خلال شعره وآثاره وبعض ما حدث به الأصدقاء والمعجبون، ولا يملك إلا أن يعتقد أن الشاعر كان ناضجاً برغم صغر سنه، وأنه عرف الحياة وبلاءها وتحدث عنها وهو يعرف ماهيتها. وأنه فهم الحياة فهماً عميقاً بفضل إحساسه وروحه النيرة.

كما تحدث الباحث عن شعر الشابي ونظر فيه إلى «الحياة» وأنه ارتفع إلى مستوى احترامها وضرب أمثلة من شعر الشاعر على ذلك ونفى أن يكون الضعف واليأس والدموع تبقى مع الحياة لأن الشابي كان يؤمن بقوانين الحياة ويخضع لها وينقاد. وتساءل فيما إذا كان متناقضات في شعر الشابي؟ وأجاب بأن الشابي عاش الحياة بكل ملء وقوة وتدفق، ولا نفهم ذلك إلا إذا نظرنا إلى عامل الزمن من خلال عنصره النفسي، وقد سلك إلى فهم الحياة عن طريق الشعور الملهم. وبين أن الشابي لم تكن الحياة عنده غاية في ذاتها ففشل فيها وخاب حتى يمقتها، بل كانت مطية حملته في سرعة كالحلم ليصل في النهاية إلى الإحاطة بجوهر الحياة، وهو ينتبه بكل قواه إلى أنه إن قدر له أن يتألم في حياته فلا يعني ذلك أن الحياة لا قيمة لها، لأن في الحياة جوانب أخرى خليقة بأن تجعلنا نصدق بنوتنا لها وتعلقنا بصدرها الرؤوم.

10- نفس الشابي للأستاذ عبدالخالق البشروش:

بدأ الباحث دراسته بأقوال الشاعر ثم قال: كان الشابي شاعراً عاش بالشعر وللشعر وحياته حياة من لا يحيا لغير قلبه.. ثم تحدث عن حياة الشابي فقال: «يغري بالزهد في الأدب ويمهد لإخماد كل صوت يلفظه الفؤاد، ولكن عزيزنا الراحل، ظل كالطائر يهتف ويغني، يفيض كل يوم بالرائع تتدفق نفسه مع الأيام بالساحر والجديد. ذلك لأن قلبه هو

حياة بعيدة نائية» هكذا تحدث الباحث عن الشاعر، وبهذه العبارات وضح رأيه في الشابي ثم قال: يغني بآلام الحياة وأفراحها ... ومضت نفسه تتمايل بين آصال الوجود وأسحاره، ومثل الكاتب على ذلك بأبيات شعرية، ثم بيّن أن الشاعر اطمأن إلى عالم الخلود، وهو العالم الذي طالما ظمأ إليه، لأنه كان زاهداً في الحياة متشائماً بما فيها، لا تهتز نفسه أو تتحرك بغير النياحة والنديب، ويعلق على بدايات حياته التي تفتحت فيها للحب فعلق قلبه بفتاة، رُزئ بها، فتغنى الشابي بالألم ، لأن القدر لم يهادنه، فأبدع في شعره مع أنه غريب ثم تحدث عن مرضه، فيتحطم هناء الحياة ويستسلم استسلام المتبرم بالحياة، فيثور كالعاصفة، ويصارع القدر.

ويقارن الكاتب بين الشابي وبين «كماريوس سكليزي»، وأوضح أن بين الشاعرين صلة رحم وقرابة، فكلاهما ارتوى في حياته من الدموع، وكلاهما أكل التراب إلى الملالة، وكلاهما دخل المستشفى وحيداً وزهقت نفسه في المستشفى ذاهبة إلى ربها.

ثم تحدث في الخاتمة عن رحلة الشاعر الأخيرة إلى الريف بسبب الهموم وحيداً بين النخيل مفترشاً برنسه يستمع إلى أصوات الطيور ورقرقة الماء شاخصاً إلى دنيا من المتعة واللذاذة، ثمل النفس يقظ المشاعر حتى أنضى الغاب عن قلبه الشقاء. وكانت روح النقمة شائعة في أشعاره، والتشاؤم طالع حياته، وهو تشاؤم مصدره حياة الشابي وما لاقاه من عنت الأقدار وصلابة الدهور.

11- حياة أبي القاسم الشابي بقلم الأستاذ إبراهيم أبو رقعة:

قدم الكاتب لدراسته عن حياة الشاعر، ثم وضح ما قاله الشاعر له فقال: «... وقد حدثني أبو القاسم عن نفسه فقال: إن الطور الأول الذي قطعه من حياته الفكرية هو التنسك والانقطاع إلى العبادة، وأنه كان يقضي اليوم واليومين لا يخرج من معبده، وربما مكث الزمان الطويل بلا طعام ولا شراب تعذيباً للنفس وكرهاً لهذه الدار، وهو يؤمل أن يأتيه في وحدته تلك طائف يخبره بالغيب ويبشره برتبة القطب أو الغوث».

هذا ما حدثه به الشاعر، وقد أخبرنا الباحث عن طريقة تناول الشاعر للكتب في المكتب، واجتماعه به في جنازة تلميذ من الجريد، وجرى حديث بينهما فاطلع الكاتب على جوانب متعددة من حياة الشابي، كما وجد الكاتب نثراً لأبي القاسم أكثر من شعره، ثم يعدد بعض خصائص الشابي النفسية والشخصية، ولدى سؤاله عن عدم نشره لبعض

أعماله، وحينها وجده مرتاباً في نضوج تحريراته يخشى أن يقابل عمله بالسخرية كما يخشى غضب والده. ويبن الكاتب أنه لم يفارق الشاعر حتى تسلم منه قطعة شعرية نشرت في جريدة النديم تحت عنوان «شاعر الوجدان أبو القاسم الشابي» ثم أخبرنا بترجمة للشاعر.

ووضحت الدراسة أن أبا القاسم فارق الطور الأول من حياته عندما دخل جامع الزيتونة، وبقي في نفسه أثر من تعاليم الغزالي والشمس التبريزي وابن عربي، وألم بأدب الغرب ومذاهبه وتراجم من الأدب الفرنسي والإنكليزي.

وينتقل الكاتب إلى الطور الثالث الذي أصبح فيه الشابي شاعراً عالمياً مثل طاغور ولامرتين وغيرهما من الشعراء العالميين، وبذلك «فاق أبو القاسم طبقة الشعراء المحليين مثل شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء الشرق ...».

وتحدث الكاتب في معرض حديثه عن الشابي إلى أقوال بعض من ترجم للشابي أمثال السيد زين العابدين السنوسي وخطأه لأنه نسب للشاعر مديحاً ورثاءً معللاً بقوله: «والحقيقة هو أن أبا القاسم لم يمدح ولم يرث مدة حياته الشعرية أحداً ... ولما مات والده بين ذراعيه عام 1930 لم يقدر على رثائه وقد كاشفني بذلك إلا عدة أبيات قالها فيه بعد الممات بسنوات» ومنها البيت الذي يقول فيه:

قد كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان

ويقرر الكاتب أن أبا القاسم يرى الشعر أعلى منزلة من أن ينزل به إلى درجة النياحة والمديح، وقدم في رأيه ومن خلال قصائد الشابي النواحي والأغراض التي يجب على الشاعر الحقيقي أن ينظم فيها.

وتحدث في آخر دراسته عن سبب شهرة الشاعر ومسامرته المشهورة التي أسماها «الخيال الشعري عند العرب» وما كان لها من دور في الأوساط الأدبية.

12 - أبو القاسم كما يجب أن يقال عنه في حياته وبعد موته للأستاذ البشير الفورتي:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن صفات الشاعر الشخصية والأدبية، ثم انتقل بالحديث عن علاقته بجبران حين كان الشابي في المهد وهما الآن في اللحد «فكان يتلهف لذكر أخباره وكله آذان لسماع الكلام عن جبران» ويكمل الحديث حول تلك المقابلة مع جبران، وتمنى الكاتب سماع ألحانهما الفردوسية، ووصفهما جنة النعيم وما فيها من جنان

خلد وخمر وفاكهة ورمان وحور عين وولدان وأودية عسلية وجبال زبرجدية وقصور ذهبية وبحور زئبقية. وكأني بالكاتب يطلب أن يعرف كيف تكون الرومانسية عند هذين الأديبين. ثم تحدث عن الشابي فقال: «للمرحوم الشابي عينان مختلفتان، كانتا تنظران لهذا الوجود نظر الناقم الهازئ الساخر من الحياة. وكنت أداعبه بذكر مذهب العراة الذي ظهر ولم يكن المعري موجوداً لنأخذ رأيه فيه فيبتسم ويقول: سأذهب إليه وآخذ رأيه» ثم يكمل الكاتب بأن من عارض الشابي في حياته، عرف فضله بعد مماته.

13 - **ما يجب نحو الشابي: بقلم الأستاذ أبو القاسم محمد كرو:**

صدر الكاتب دراسته بالإعراب عن فكرة أعلنها للناس ونادى بها وهو الآن يوجه نداء جديداً عن الفكرة نفسها.

ثم تحدث عن زيارة للمشرق العربي التي وجد من خلالها مقدار الغموض والخطأ التي تكتنف كل شيء يصلهم عن المغرب العربي، محاولاً إزالة ما يمكنه من الغموض وتلك الأخطاء، ثم يعترف بقوله: «بأن كل أحاديثي ومقالاتي ومحاضراتي وكتبي التي ألقيتها ونشرتها هناك، لم تحقق إلا جانباً يسيراً مما يجب تحقيقه... وذلك بسبب تراكم تلك الأخطاء واتساع ذلك الغموض». ويعترف أيضاً أن في زيارته إلى المشرق العربي، وجد الأدباء والكُتّاب مدفوعين بشوق للأدباء في المغرب وحريصين على التعرف إليهم وعلى آدابهم.

وينتقل بعد هذا إلى الحديث عن الشابي الذي كان هو الشاعر الوحيد الذي يعرفه الأدباء في المشرق، ولكن أكثرهم - يعني أدباء المشرق - لم يكن يعرف إلا اسمه وبلده وأبياتاً من شعره، وقدم مثالاً من رسالة أرسلها إليه ميخائيل نعيمة يصرح فيها بأنه لا يكاد يعرف الشابي إلا بقوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وهذا الأستاذ سلامة موسى ينسب إلى الشابي كتابي «العمال التونسيون»، و«امرأتنا في الشريعة والمجتمع» وهما كتابان للطاهر الحداد. وقد جاء خطأ سلامة موسى بعد أن قرأ الكتابين اللذين وضعتهما عن الشابي.

ثم يتساءل: ... إذا كان ذلك مع الشابي الذي عرفته مجلات الشرق وإذاعاته وكتبه ونواديه ... فكيف الحال يا ترى بالنسبة لغيره من شعرائنا وكُتّابنا؟

ويستمر الكاتب في دراسته مبيناً بعض السلبيات التي وقع فيها الأدباء في المغرب حتى كتب مقالاً بعنوان «تراثنا الأدبي في خطر» بسبب الإغلاق أو الانغلاق الذي وقع عليهم، ولذلك دعا أدباء تونس إلى إدراك خطورة الحالة التي هم فيها والتي سماها المأساة التي ينبغي أن لا تستمر أكثر مما هي عليه.

ثم تحول بعد ذلك بالحديث عن الشابي، وأن خير تمجيد وتعظيم له أن تنشر آثاره ويستعرض أمام الحاضرين ما كتبه عن الشابي، ويهيب بشقيق الشاعر أن ينشر تراث أخيه على الناس ونشر ديوانه، ثم توجه إلى أسرة الشابي وزملائه وأصدقائه الذين يملكون آثاره الأدبية إلى الإسراع بنشر هذه الآثار وأولها ديوانه «أغاني الحياة».

ويؤكد أن شقيق الشاعر استجاب لندائه فنشر ديوانه الخالد الذي فتح للباحثين والكُتّاب آفاقاً جديدة بتقديم الحقائق والمعلومات التي لم يكونوا يعرفونها من قبل، وفي ختام دراسته اقترح ما يلي:

1- تأليف لجنة تشرف على نشر مؤلفات الشابي في وقت قصير وأن تكون تونسية محضة.
2- إقامة جناح خاص بالشابي بدار الكتب التونسية أو بمتحف باردو.
3- إقامة تمثال للشاعر في العاصمة.
4- إطلاق اسم الشاعر على شارع كبير في العاصمة وفي كل مدينة تونسية.

14- أبو القاسم الشابي بقلم الأستاذ محمد مزالي:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن إحياء اتحاد الكُتّاب الذكرى الأربعين لوفاة الشاعر الشابي، ثم أثنى على أبي القاسم الشابي بوصفه شاعر متوهج الحس، صادق الهاجس، وانتقل بالحديث عن أصالة الشاعر وعلاقته بشعبه ووطنه، والإصداع بمحبته والإيمان بمصيره رغم قوى الظلام وقسوة الدهر.

ثم تحدث عن شعور الشاعر بغربته بسبب رسالته التي يحملها والاطلاع بواجب التجديد في المفاهيم الماورائية والمواقف الأدبية والمقاييس الجمالية. وتحدث عن غضبة الشاعر واستيائه من بعض ما يرى فيقول: «ولا شك أنه استاء أشد الاستياء عندما لاحظ سراة القوم وأكابر العلماء والفقهاء يشاركون الفرنسيين احتفالاتهم في تونس العاصمة بالمؤتمر الأفخارستي، والذكرى الخمسينية لانتصاب الحماية عام 1931»، واستمر يثني على الشاعر لأنه كان قد شام فجر الاستقلال وتنبأ لهذا الشعب بالحرية حين أنشد قصيدته

«إرادة الحياة» ثم بيّن أثر قصائده على الشعب التونسي من أجل كرامته وحريته «وكأنها بعثت بعثاً تتحدى الاستعمار وتفرض إرادتها على الأشياء فينهزم تاريخ مفروض ويُكتب تاريخ جديد بأحرف من نار ونور».

ويؤكد بأنه: هكذا يكون الشعر الحق رؤية وحلماً وخيالاً جامحاً، تستحيل واقعاً ملموساً بفضل كفاح الشعب البطولي وطموح الإنسان إلى تحقيق الذات والخلق المتجدد ثم قال في الختام: «وسيظل أبو القاسم الشابي شاعراً كبيراً لأنه كان - كما قال هو نفسه - عن جبران: فكراً قوياً ... يجوب أعماق الحياة».

15- الغربة في أدب الشابي بقلم الأستاذ أحمد خالد:

بدأت الدراسة عن معاني الغربة في ديوان «أغاني الحياة»، ومثل ذلك في بيتين من الشعر عن الغربة التي برزت في صورة (غربة روحية) حاول الشابي التخلص منها برحلة الخيال إلى فردوس مفقود عن طريق التجربة الصوفية متأثراً بفكرة الخطيئة الأولى ثم بفكرة الإسراء والمعراج.

وهذه الغربة لم تكن هروباً من الشاعر، وإنما هي أمنية تصنعها لإثارة شعبه وتحريك سواكنه، وهي رسالة الدنيا التي هي عند الشاعر رسالة الحرية ومقاومة الاستبداد ومصارعة قوى الشر مثلما فعل (بروميثيوس). وقد تقمص الشابي شخصيته في قصيدة «نشيد الجبار» فيصدع بصيحة الحر ويجهر بإرادة الحياة. وقد كثرت التعبيرات الرمزية في أغاني الحياة لوجود أزمات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية. ثم وضح مواضع تألم الشاعر بسبب استحواذ المقلدين الذين لا يفهمون شعر الشابي وقدم الكاتب أمثلة على ذلك من كتابات الحليوي صديق الشاعر، وهذا سبب قساوة الشابي على الجامدين، لأنها قساوة واجه بها الشاعر خصوصاً في غير الحق مع دعاة التجديد رافضين الحوار معهم منحرفين عن منهاج النقد الموضوعي. وإلى جانب الغربة الروحية تحدث صاحب الدراسة عن الغربة الفكرية التي ذاق الشابي مرارتها.

وقد تحدث الكاتب عن قصيدة «النبي المجهول». كما أحس الشاعر أيضاً إحساساً فاجعاً حين لاحظ تخلف البيئة الثقافية في زمن التيارات الفكرية والأدبية التجديدية في المشرق خاصة وفي العالم عموماً. كما تحدث عن إلحاح الشاعر في رسائله ومذكراته وديوانه على تعليل غربته الفكرية بسبب تغاضي الشعب رسالته التي حملها.

ووضح صاحب الدراسة الشكوى المريرة التي حار فيها الشاعر أثر مسامرته «الخيال الشعري عند العرب». ويطلب الكاتب العودة إلى ديوان الشاعر وإدراك ما تغنى به الشاعر لفهم سر اختياره لعنوان ديوانه، ويقرر الكاتب أن للشاعر مفهوماً عصرياً للوطن وهو: «كل مكان ينبت العز بأمنه وحريته». وأوضح الدارس بأن الشابي اعتقد في الثلاثينيات بأن مسؤولية الأديب الحق لا تختلف عن مسؤولية السياسي.

ثم تحدث الكاتب عن الجمال في نظر الشاعر وحيرته كما وردت في «نشيد الجبار»، فلم يكن ضبابياً منفصلاً عن واقع بيئته مهما حلق بخياله في أجواء الأساطير وقد جاء ذلك بأسلوب قصصي رمزي أحياناً للإيحاء بتلك الحيرة.

وانتقل الكاتب في مقالته الطويلة إلى إرادة الحياة وبيّن القصائد التي وردت فيها كلمة «الحياة» كإحصائية دقيقة قائلاً: «بمثل هذا الشعر تبوأ الشابي منزلة الشاعر القومي في بلاده، واحتل مكانة مرموقة في الأدب العربي وعرفته الشعوب الأجنبية بترجمات شعره، لأنه تجاوز به حدود المكان والزمان وأكسبه أبعاداً إنسانية خالدة».

16 - الشابي ناقداً ومنظراً بقلم الأستاذ خليفة محمد التليسي:

بدأت الدراسة بالحديث عن أثر أزمة الضمير العربي الحديث على الشاعر المعاصر الذي بدأ يعكس شعره بمغامراته على هذه الأزمة، التي أصبحت أكبر من أن تستوعبها بسهولة ويسر، ومع ذلك فقد كانت الأعمال جيدة والنتائج مفيدة.

وبيّن الباحث أن الشابي كان من أوائل الذين سعوا للبحث عن فكرة شاملة تستوعب تجاربه ونظراته إلى الوجود وفكرته عن الفن والحياة.

وقد كتب الكثيرون عن الشابي، لكن الحديث كان قليلاً عن الشابي الناقد والشابي المُنَظِّر. ويكمل الباحث دراسته عن تغير العصر اختلاف نظرة الشابي إلى الشعر، حتى كان رائداً من رواد التجديد في الشعر والوجدان الحضاري، فواجهته من أجل ذلك صعوبات شتى في سبيل تأكيد مفاهيمه سواء في شعره أو في نثره، حتى أصبحت آدابه قضية تستوعب التزامه وثورته الحضارية. فكان الشابي تياراً هادراً كاسحاً، حفر مجراه بعمق في الوجدان العربي، وكان علامة في تاريخ الكلمة العربية الشاعرة، وأنه «كان شاهداً من شواهد عصره ومن شهود اليقظة العربية الحديثة».

ومن بين القضايا التي أبدى رأيه فيها هي:

1- مفهوم الشعر ومقياسه الصحيح.

2- مفهوم الشاعر ورسالته وصلته بالوجود.

3- مشكلة الحداثة والتراث.

4- تقييم لنظرة التراث للأسطورة والطبيعة والمرأة والقصة الشعرية.

5- صلة الشعر بالفكر والفلسفة.

6- الفنون والنفس العربية.

7- يقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة.

وأكمل الباحث دراسته ببحث القضايا وإخلاص الشاعر لنفسه وصدقه في التعبير عنها، وفي ختام دراسته وضح الكاتب «على أن ثورة الشابي لا ترفض أن تتجاوز حتى مبدعها عندما يتحول إلى نموذج ثابت وقالب من القوالب أو صيغة من الصيغ التاريخية التي فقدت صلتها بالواقع وذلك حين يقرر (بأن لكل أدب حياته التي يحياها، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب)».

17- الشابي يقظة إحساس قومية بقلم الأستاذ أبو زيان السعدي:

صدر الكاتب الدراسة بالحديث عن النفوس المبدعة، ومنزلتها في حركة الشعوب، ونبه إلى أنه على علم بأن فكرته في بحثه عن أدب الشابي قد يعده البعض ضرباً من ضروب الإسراف المنهجي لأن فترة حياته قصيرة لا تكفي لبلورة فكرة كبرى أو تقرير حقيقة عبقريته. وبيّن أن الحديث عن مفتاح شخصية الشاعر يتوقف في نظره عند أمرين هامين:

أولهما: إيمان الشابي بمهمته الخطيرة في الحياة والمجتمع وأنه صاحب رسالة علوية.

ثانيهما: وعيه الكامل بحدود هذه الرسالة ومحاولة رسم منطلق فكري يتخذه مقياساً في سير الحركة الاجتماعية والفكرية عند أمة من الأمم أو شعب من الشعوب. ثم وضح أن نبوغ الشابي لم ينشأ في فراغ. فقد كان رمزاً وتعبيراً عن جيل ومرحلة تاريخية، خاصة وأن المرحلة التاريخية التي ظهر فيها كانت مليئة بالأحداث الجسام وحافلة بمحاولة التغيير والإصلاح، وكما كانت هذه المرحلة في بلاد المشرق العربي فقد كانت تونس تجتاز أزمة حقيقية بعد صحوتهم على واقع الاحتلال الفرنسي البشع. وأن الشابي

عاش هذه الأحداث واختبر بعض مراحلها بالمعايشة حيناً وبالمطالعة حيناً آخر، وعبر عنها في أشعاره التي أرادها أن تكون يقظة تهز الكيان وتغير النفوس. ومن هنا «جاء دوره بارزاً في كل ذلك وجاءت نظرته الواضحة العميقة التي يصدر عنها في كتاباته الشعرية والنثرية، والتي فسر بها الوثبة والنكسة في تحرك الشعب».

ووضح الباحث: «أن الشابي دعا إلى ضرب من الوجود الروحي ... تتنزل به القيم من عالمها الأجوف إلى أرضية صلبة من واقع الإنسان المعذب، أو هو امتلاء النفس بالقيم الإنسانية»، وبهذا نستطيع القول: إن الشابي لم يكن شاعر خاطرة عابرة أو فكرة سالبة نشأت بمعزل عن الأحداث، وإنما هو شاعر يحاول أن يستشف ما وراء الظواهر، بل إنه ليستبصر بفكره الملهم روح الشاعر الحق ودوره الممتاز في صنع الحياة. ثم تحدث الكاتب عن ثقة الشاعر بالشعب، وبهذا الصوت كان يتوجه إلى الطغاة بثورة تعيد للكرامة عزتها وللمجد تاجه، وإن نقد في فترة الشعب على صمته فإن هذا يجب أن لا يشككنا بإيمان شاعرنا بهذا الشعب أو يدعونا إلى تفسيرات غريبة كانحباسه في حدود آلامه الضيقة. ومن هنا جاءت قصائده دعوة إلى الحرية. أما الشكوى والألم والدموع والعزلة والانفراد إنما مرده إلى مصدرها الأول في فكر الشابي الذي عبر عنه بيقظة الحس، وهو نتاج طبيعي لنهضة وطنية وقومية شملت تونس وكل البلاد العربية.

وختم الباحث دراسته بقوله: «لقد تألم الشابي من جمود وتقليد معاصريه، ولكنه لم ييأس من المستقبل والشباب، هؤلاء الذين سيحققون الجديد البنّاء الذي دعا إليه وضحى في سبيله بصحته وشبابه ...» .

18 - من مصادر الشابي ومراجعه، إعداد الأستاذ أبو القاسم محمد كرو:

قدّم الباحث هذه المصادر في دراسة خاصة بمناسبة مرور أربعين سنة على وفاة الشاعر، في مهرجان أدبي بتونس ونبه الكاتب على الأمور التالية:

1- بين أنه سبق للباحث نشر قائمة مبوبة عن المصادر والمراجع التي كتبت عن الشابي من سنة 1926-1960 وذلك في كتابه (آثار الشابي وصداه في الشرق).
2- يبين الباحث أنه كتب هذه القائمة على عجل لجعلها بمثابة الدليل.
3- هناك عدد آخر من الوثائق لم يتمكن الباحث ذكرها هنا بسبب البُعد عن المكتبات الخاصة.

4- الاقتصار في هذا الدليل على ذكر الكتب فقط.

5- الاقتصار في هذه الوثيقة على أبواب خمسة.

وسوف أرجئ الحديث عن آثار الشابي إلى عنوان خاص في الكتاب، رغبت أن يكون باباً أو عنواناً منفرداً في الكتاب.

هذا ما كان من دراسات في الجناح الغربي من الوطن العربي، وليست هذه كل الدراسات ولكنها كانت الأهم، فكيف كانت الدراسات في المشرق العربي؟

1- الشابي، روح ثائرة، بقلم الدكتور محمد مندور:

مهد الدكتور مندور لدراسته عن الدكتور أبي شادي زعيم جماعة أبولو وجماعته من الشعراء الذين اتسمت أعمالهم بسمة الشباب وخصائصه الروحية وعرض لشعر إبراهيم ناجي في دواوينه.

وانتقل بعد ذلك إلى بلورة شخصية الشابي على أنه كان روحاً ثائرة، ومن هذه الروح استمد شعره الذي امتلأ عاطفة وثورة، وقد مرّ الشابي في سماء الشعر العربي الحديث مرور الشهاب، ومع ذلك ترك فيها ضوءاً خالداً، ويكاد أن يكون الشاعر المغربي الوحيد الذي شاعت معرفته في مصر والإعجاب بشعره والتسليم بعبقريته الممتازة.

ثم تحدث الكاتب عن الذين تعرضوا بالكتابة عن الشابي وقال: «... ومن الغريب أنني عندما طالعت عدداً من قصائد الشابي ومقالاته النقدية كدت أجزم بأن هذا الشاعر قد كان يجيد لغة أجنبية تمكنه - لا من الإلمام بآداب الغرب فحسب - بل من تذوقه لتلك الآداب وإحساسه بها وتمثله لها. ثم عدت إلى ما كتبته عن تاريخ حياته فأخذتني الدهشة كل الدهشة عندما علمت أنه لم يكن يعرف أية لغة أجنبية وأنه تخرج من جامع الزيتونة، عندئذٍ أدركت أنني أمام إحدى تلك العبقريات التي لا يستطيع البشر لها تفسراً لأنها هبة من الله، ثم أصبحت أشك في أنه مدين ديناً حقيقياً لأحد الشعراء، ولذلك لم أقتنع الاقتناع كله بحديث الأستاذ كرّو عن تأثر الشابي تأثراً كبيراً بشعراء المهجر. كما أنني خرجت بالنتيجة نفسها بعدما قرأت للدكتور أحمد زكي أبو شادي مقالاً مخطوطاً عن الشابي أرجو أن ينشر قريباً، في كتاب للمرحوم أبي شادي عن شعراء العرب المعاصرين، وفي هذا المقال ينكر الدكتور أبو شادي تأثر الشابي بشعراء المهجر ويشير إلى تأثر الشابي أو احتمال تأثره ببعض قصائده لأبي شادي نفسه».

وبعد أن تحدث عن الشابي وحياته وروحه الأثيرية مع التمثيل على ذلك بالشعر تحدث عن قصيدة «اسكتي يا جراح» وفيها لا يقنع في استخدام اللغة بالتعبير التقريري ولا بالتصوير البياني الذي يريح الخيال ويطلقه من أسر الواقع، وإنما يجنح مع كل هذا إلى استخدام أصوات اللغة استخداماً موسيقياً منقطع النظير وأخيراً تحدث عن سحر شاعرية الشابي على نفسه، وأكد الباحث أنه لم يحاول البحث عن تاريخ دقيق لقصائده، لكن ما تأكد منه الباحث أن الشابي قد اختتم حياته القصيرة الرائعة بقصيدة «في ظل وادي الموت» وكأنها كانت «قرار» حياته الذي سيظل عشاق الشعر الرفيع يرددونه أبد الدهر.

2- التقرير والإيحاء في شعر الشابي، بقلم الدكتور مصطفى بدوي:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن الوحدة الفنية الحية، وعلى التقرير والإيحاء وبمثل هذا من الشعر العربي الحديث تتحقق فيه هذه الوحدة. وتستخدم فيه الألفاظ بإمكانياتها الإيحائية. ثم انتقل بالحديث عن زمن نشأة الشابي وقال: «والذي يهمنا في هذا المجال أن مدرسة التجديد في الشعر العربي في ذلك الوقت كانت متأثرة إلى درجة كبيرة بمدرسة الرومانتيكيين الأوروبيين، وكانت الشخصية ذات الأثر الكبير في نشر الأفكار عن طريق الكتب والمجلات والدواوين، وعن طريق النقاش والحديث، الاتصال الشخصي هي شخصية المرحوم أبو شادي الذي تعرف على الشعر الغربي في إنجلترا في وقت كانت فيه الرومانتيكية لا تزال هي المدرسة المهيمنة على عقول الناس ...» .

وتحدث عن المفهوم الرومانتيكي للشعر الذي يكاد أن يكون نقيض المفهوم العربي التقليدي. إن الشعر الرومانتيكي الأوروبي شعر الإيحاء التام بينما أغلب الشعر العربي هو شعر التقرير العام.

واختار الكاتب قصيدة «الصباح الجديد» للتعليق عليها، واعتبرها من أروع قصائد الشابي لأنه اعتقد أنها قصيدة ناضجة أكثر من غيرها، لأن الشاعر تمثلها تمثيلاً كاملاً فامتزجت واتحدت اتحاداً عضوياً حياً مع غيرها من العناصر ومطلعها:

اســـــكني يـــــا جـــــراح   واســـــكتي يـــــا شـــــجون
مـــــات عهـــــد النـــــواح   وزمـــــان الجنـــــون
وأطـــــل الـــــصباح   مـــــن وراء القـــــرون

وهذه القصيدة تمثل انتصار الشاعر على الألم، وتمثل توكيده القيم الإيجابية في الحياة. لكن القراءة اليقظة الواعية التي يتطلبها الشعر الإيحائي تبين «لنا خلاف ذلك، وأول دليل على أن القصيدة لا تمثل تغلب الحياة على الموت هو النغم الشعري الخاص الذي تتميز به حقاً. إنه دليل غامض إلا أنه في الحقيقة أصدق دليل، لأن النغم في الشعر الجيد جزء لا ينفصل عن التجربة».

3 – أبو القاسم الشابي: نظرة في شعره عامة، بقلم الأستاذ حسن محمد محمود:

وهذا مقال طويل فيه مختارات كثيرة، وقد صدر الكاتب مقالته بتعريف الشاعر المطبوع وخصائصه الفنية وتفسير أحاسيسه.

ثم تحدث عن موت الشابي وما خلفه هذا الغياب حتى استحق أن تفخر به الأجيال. واستمر في الحديث عن شاعرية الشابي بطرح أسئلة متنوعة مما يدور في خلد الكثيرين، ومنها: من هو الشاعر؟ وما فائدته للعالم؟ ماذا تكون حالته لو خلا منه؟ ويجيب الباحث عن الأسئلة مع ضرب أمثلة من الشعر.

ثم انتقل إلى قصيدة «ألحاني السكرى» وعلق عليها بقوله: «أحس القارئ في العنوان نفسه شيئاً من الابتكار، وروعة التجديد في المعنى وتلك من المميزات التي طبع عليها أبو القاسم، أن هاتين الكلمتين فحسب لتصوران لسامعهما وادياً سحرياً تتغنى فيه ملائكة الحب وتدوي فيه أغاريد الشباب المعسول... ونمضي إلى جوهر القصيدة». الذي أحس الكاتب فيها روح الثورة والتمرد، ثورة على كل ما في الوجود وتمرد الساخر بالحياة بل والعطف والحسرة على من فيها. ثم انتقل إلى الحديث عن حب الشابي الذي يراه أنه أسمى هبة يهبها الله للشاعر ويتساءل: ماذا يكون الأمر لو نضب معين الحب وجفّ ورده؟ وتحدث عن أبي القاسم الفيلسوف الذي ينظر إلى الحياة نظرة فيها شيء من اللذة ونواح من الألم، وربما كان الشاعر قد أحس بقرب منيته عندما نظم قصيدته «الصباح الجديد».

وتناول الكاتب قصيدتان هما: «قلب الأم»، و«في ظل وادي الموت» وعلق عليهما بصور الموت، وصور الآمال المبعثرة في أباديد الحياة، وتصوير النواحي النفسية. وتحدث عن علاقة شعر الشابي بالطبيعة ووقوفه خاشعاً أمام مظاهرها القوية وقفة تستعصي على الكثيرين. كما يظهر الشاعر الفيلسوف نسك الذي خبر الحياة عن قرب، وهنا لا تفوته

الحكمة الرائعة التي يستمدها من صميم نفسه ووجدانه، ومن مظاهر الطبيعة التي وقف عليها مرأى المساء وسكونه، ثم بث شكواه من دائه العضال الذي استحكم فيه ونثره في قصائد متعددة.

ثم تحدث الكاتب عن طريقتين في نظم الشعر وهما:

1 – محاكاة القدامى فيأتي قصيده على روى واحد وقافية واحدة.

2 – الانطلاق من أسار التقليد فتحس بالروح الهائمة في جنان الخيال.

ويختم حديثه بالقول: «ومما امتاز به أبو القاسم وحدة القصيد، ومطالع شعره يلمس ذلك فيرى أن القصيدة كلها متحدة الأجزاء، قوية التركيب، ثابتة الدعائم. فلا تحس في أبياتها نفوراً أو في معانيها تشتتاً، وذلك أمر يتطلب في القصيدة».

4 – فن الشابي، بقلم الأستاذ نظمي خليل:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن الطبيعة وعن الآلهة ثم تحول إلى رسالة الشاعر فقال: «كل إنسان له في هذا العالم رسالة يؤديها ورسالة الشاعر هي أسمى أنواع الرسائل، فهي رسالة العالم الأسمى للعالم الأرضي، وما الشاعر إلا رسول أمين، يحمل هذه الرسالة فهو الشخص الوحيد الذي يتصل بالعالمين عالم السماء بروحه وإحساسه وعالم الأرض بجسمه ومادته. فما رسالة الشابي إذن؟ ما الموضوع الذي اتخذه مادة لشعره؟ أو بمعنى آخر: بماذا نسمي الشابي» ويميل الكاتب إلى الاعتقاد بأن رسالة الشابي هي رسالة القلب الإنساني إلى عالمنا الإنساني، ولكنه يحس بشيء من القلق لهذا الاعتقاد، ولا يكاد يظفر برسالة كاملة لهذا الشاعر الشاب.

ويؤكد الكاتب أن الشابي شاعر من طراز روسو وبيرون وشاتو، لأنه عندما يتغنى بالطبيعة إنما يتغنى بمظاهرها العامة، وأنه يقدس الطبيعة، وحينما يأوي إليها إنما يفعل هذا زهداً في دنيا الإنسان وهروباً بمشاعره من أن تصطدم بحياة اليوم العادي.

والشعور بالألم النفسي عند الشابي هو بعينه الذي لازم بيرون طول حياته والشابي شاعر الطبيعة الظاهرة، شاعر مناظرها وجبالها وأصدائها وليس شاعر أسرارها. أجل لقد أفصح الشابي عن أنغام الطبيعة المسموعة، ولكن للطبيعة أنغاماً صامتة لم يصل الشابي إليها.

ثم تناول الكاتب قصيدة «صلوات في هيكل الحب» التي تذكر الكاتب بقصيدة «باندیمون» لجون كيتس، ويرى الشابي في هذه القصيدة ما يراه كيتس في مستهل أنديمون أن الحب مأوى آمن من قسوة هذا العالم ومن شروره.

والآن «حقاً لقد قدم لنا الشابي صوره الشعرية في أسلوب شعري جميل حتى أصبح له أسلوب خاص مطبوع به نستطيع أن نميزه على شعراء هذا العصر: هذا الأسلوب الشعري الخاص هو صوره وتشبيهاته الجميلة. وهذه بحد ذاتها مقارنة بين الشابي ونفر من الشعراء الغربيين».

وفي ختام الدراسة يؤكد الباحث أن هذا كله خطرات سريعة تعاوده إذا ذكر الشاعر الشاب الذي لم يفسح له الزمان من العمر فعصف به عصف الريح العاتية بأوراق الخريف الساقطة وهو يقول: «ولست أدعي أني قمت بشيء نحو هذه العبقرية الشابة التي هوت من سماء مجدها كما تهوى جبابرة الملوك وأعاظم الدول ...» .

5- **بين الشابي والتجاني، للدكتور عبدالمجيد عابدين:**

تصدرت الدراسة بوجوه الشبه بين الشاعرين في النشأة والثقافة، وفي النزعات النفسية والفلسفية، وفي النظرة القومية والاتجاه الفني، وقد ذكر صاحب كتاب «الشاعران المتشابهان» أبي القاسم محمد بدري أن الشاعرين متشابهان في النظم والتعبير وفي تصوير المناظر الطبيعية وفي تصوير الأحداث الوطنية وفي تصوير الحب والجمال وفي تصوير الحالات النفسية والعواطف.

وقد تقدم هذه الدراسة فصل خاص عن العلاقة بين الشابي والتجاني وبإمكانك الرجوع إليه في الكتاب «الشابي وأقرانه من الشعراء».

6- **الخيال الشعري عند العرب لأبي القاسم الشابي للدكتور شوقي أبو شقرا:**

الخيال الشعري عند العرب محاضرة ألقاها المؤلف في تونس عام 1929، حين كان الوقوف أمام الحاضرين فروسية وجرأة نادرتين، وحين كان عمر الشابي عشرين عاماً.

وقد أوضحت هذا في بحث خاص في فصل من فصول الكتاب وقد كان الموضوع مطولاً، وبإمكانك الرجوع إليه في موضعه «أثر الأدب المهجري في شعر الشابي».

7- أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي، للباحثة سلمى الخضراء الجيوسي:

تحدثت الباحثة في هذه الدراسة عن أثر المكان في شعر الشابي، وبينت أنه على الناقد أن يتعرف على أسماء الأماكن والتي اعتبرتها من أهم أركان القصيدة العربية فقالت: «وليس في شعر الشابي إلا فيما ندر، ذكر لتونس وتخصيص لمعالمها الجغرافية المتعددة ... ويدهشنا أن نقرأ قصائد الشابي التي استوحاها من ذكرى حبيبته الأولى التي توفيت وهو فتى يافع، فيذكر لقاءات كثيرة لهما في عدوة الوادي ... ويقف الناقد متأملاً إزاء هذه الظاهرة، ولعلها هي ثورة الشابي على الجمود والرجعية والجهل في شعبه بتلك اللهجة المريرة الغاضبة الساخرة أحياناً».

ثم انتقلت إلى علاقة الشابي بالوطن، فبينت أنه كان يميل إلى التجرد والتعميم أكثر من ميله إلى التخصيص، وأن شعره يزخر بالصور الحسية البعيدة عن التجريد، ولكنها تظل صوراً ذات معانٍ تجريدية مطلقة أكثر مما هي ذات إشارات حسية معينة.

ولعل هذه الخاصية في شعر الشابي تأتي نتيجة للرومانسية التي تسمح بالتجريد دون أن يكون التجريد شرطاً ملازماً لها، ورومانسيته هي التي تدفع به إلى الغاب وتنفره من المدينة وحياتها.

ثم تحدثت الباحثة عن أبعاد الزمان في شعر الشابي، وبينت أن أسهل أنواع التقسيم للزمن هو النظر إليه باعتباره ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، كما تحدثت عن الماضي البعيد والتاريخ في شعره، وبينت أن الفترة الزمنية عند الرومانسيين ترتبط بأمكنة كانت مراكز للحضارة والإشعاع. كبغداد ودمشق والأندلس، وأعطى هذا التوحيد بين المكان والزمان معنى واقعياً لهذا التطلع الرومانسي.

وفي ضوء هذه المعرفة نفهم موقف الشابي من الماضي البعيد، وأوضحت هجوم الشابي على الموقف الكلاسيكي العربي من المرأة وإن كان في شعره أقل احتفاء بالهجوم على الماضي الكلاسيكي. وتقول الباحثة: «لقد قطع الشابي شجرة الزمن من جذوعها، وتغاضى عن الجذور الضاربة في الأرض».

ثم انتقلت في دراستها إلى الماضي القريب والماضي الشخصي. وأوضحت أن ذاكرة الشابي احتفظت بألق ماضيه الشخصي وأحزانه، ومنذ حداثته بدأت الذكريات تعني له شيئاً مهماً، فراح الشابي يبكي أمسه الذي ضاع منه ويرثي لسعادة حب شعر قد انفلت منه

إلى الأبد. «إن هذا الماضي الشخصي الدائم الحضور في نفسه من أهم المظاهر التي تصف علاقته بالزمن ولعلها تميزه عن عدد غير قليل من الشعراء المعاصرين».

وانتقلت الباحثة إلى الزمن وعنصر التغيير، ثم إلى الحاضر والمعاصر كما وضحت رؤيا المستقبل في شعر الشابي، وأخيراً توقف الزمن في شعرا الشابي، عندما فقدت بعض قصائده مرور الزمن وخاصة ما جاء في قصيدة «الغاب» حيث يعطيك إحساس أنه قد حول الغاب إلى مكان سرمدي صباحه ومساؤه، وأنه قد قلب الأشياء الواقعية الملموسة الفانية.

وفي الختام تحدثت الكاتبة عن إيماءات في قصيدة «ألحاني السكرى»، «إذ تهرب اللحظة القريرة، فالشاعر يمسك بها في قصيدته إلى لأبد. إلا أنه لا يطيق أن يرى التغير المحتوم الذي يحمله الزمن في قلبه يغزو التجربة الممتلئة ويسلمها إلى النقصان والتفسح، ويفضل عليه الموت، لأن الموت وحده هو الذي يستطيع أن يحمي التجربة من التغير ويحافظ عليها في توهجها وجمالها واكتمالها ليصبح هنا هو الحامي والواهب للحياة». وتحدثت خلال المقال عن همه الوطني وعن خاصية التعميم والإطلاق والارتفاع بالحالة النفسية عند الشابي وعن غزله بالطبيعة وعن أسهل الطرق في تقسيم الزمن وتحدثت عن معالجة الشابي الأسطورية للتاريخ، وكانت دراستها طويلة ومتعددة الجوانب ومفصلة ومكتملة.

8- لحظة الإبداع عند الشابي، بقلم الدكتور إحسان عباس:

صدر الدكتور إحسان عباس دراسته بالقول: إن الشابي لم يحدثنا كثيراً عن لحظة الإبداع في حياته الشعرية، وهو في حديثه عن الخيال الشعري عند العرب يستشهد بتجارب غيره، ولا يقف عند تجربته الذاتية في هذا المجال، وتدل آراؤه في الخيال الشعري عند العرب على أنه كان يرى الإبداع الشعري ثمرة مباشرة لنشوة مستغرقة في الجمال وبخاصة جمال الطبيعة.

ثم تحدث الدكتور عن ظاهرة التكثيف في شعر الشابي التي تخدم أغراضاً كثيرة، وأنها مبثوثة في شعره على نحو متميز، غير أنها ترتد في الاتكاء عليها إلى تلك «الحمى» التي تواكب التبجس لحظة الإبداع، وهذا يشير إلى أن خيال الشابي يتولد من ذاته «ولهذا لا يمكن أن يقال إن خيال الشابي تلفيقي ... ومهما تحدث النقاد عن المؤثرات في شعره ... فإن تلك المؤثرات تظل لقاء عاماً في حومة الرومنطيقية»

ثم أوضح: «وكي يصح لي ما أريد استنتاجه لا بد أن أفرض أن الشابي قرأ هذه القصيدة - قصيدة لأبي العلاء المعري - ودارت نغمتها في نفسه، وليس لدي شاهد يثبت ذلك على نحو يقيني».

9- الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي، للأستاذ إيليا الحاوي:

مهد الباحث لموضوعه بالحديث عن العبقرية المبكرة، وقارن بين الشابي في ذلك بالشاعر الفرنسي «أرتير رانبو».

ثم انتقل الباحث إلى موضوعات الشابي وخاصة شعر الطبيعة، وتحدث عن اللحظة القائمة واللحظة القادمة ومظاهر الكون في شعر الشابي ثم مزاوجة الأشياء في ضميره، كما بين أن شعور الكآبة والغربة، إنما هي كآبة لا تفسير لها ولا تبرير، وأن الشاعر كان يشخص أمام الشيء ونقيضه في لحظتي وجوده وهمومه، وهناك دائماً موجودان في الموجود الواحد وبينهما تكمن الفاجعة.

ويرفض الكاتب بأن الشابي ارتدى أسمال الحزن والقنوط من الخارج، وذلك لأن نفسه بكل قواها الواعية واللاواعية تتنفس في شعره، وفسر أيضاً شعلة العذاب المتأججة في شعر الشابي والشعور بالغربة والتوحد، لكنه انتهى إلى تجربة روحية ميتافزيقية تفصح عن عذاب الروح الأسيرة.

«يتأكد من جديد أن مشكلة الشابي الدائمة كانت مشكلة الخلود أي مشكلة الحياة والموت والزمن الذي هو أبو الصيرورة وناشر ألوية الزوال والعبث على مطارح الوجود».

وقد تحدث الكاتب عن النظرة التفاؤلية العامة وعن علاقة الشابي بالشعب وعن التناقضات واللبس وتمثيل الطبيعة بمعبد الحب وعن معنى الشباب وملازمته للحب وتضاعف النزعة العدمية وفي الختام قال: «هكذا تحرر الشابي من حتمية العدم وانتصر عليه بالذوبان فيه وحلوله في قلبه، وبذلك عاد كل ما هو مادي عابراً طارئاً ولا حقيقة إلا في الذات الأخرى، الذات الروحية التي يتصل بها الشاعر في لحظات عبر الشعر والحب وفوق نواميس القهر والقدر». وأوضح «أن قيمة الشابي في فنيته التي انطلق بها إلى عالم بكر من الرؤى والصور وفاض فيها بألفاظ وكأنها ابنة نفسه .. وفي النغمية الشجية التي تعزف على أوتار الروح ... كان الشابي في شعره هو الذات والموضوع والمضحي والضحية أو الجرح والسكين ...».

آثار الشابي

وُلد الشابي عام 1909 ودُفن عام 1934، وخلال هذه الحياة القصيرة عاش مريضاً يصطاف بأمر الأطباء، وكان شاعراً عربياً خالصاً، لم يعرف لغة أجنبية واحدة، ورغم ذلك فقد ترك لنا روائع شعرية كثيرة، ووثائق ونصوص خطها بقلمه تدل على وجود الشابي في صفحات يومياته، توضح نبوغه وعبقريته، التي طالما حاضر المحاضرون، وألف المؤلفون وكتب الأدباء والكُتّاب عنها. وقد وردت آثاره على النحو الآتي:

1- الخيال الشعري عند العرب، وقد طبع في حياته، وفي الأساس هو محاضرة ألقاها الشاعر وطبعها في تونس سنة 1929 ثم أعيد طبعها في تونس عام 1961.

2- أغاني الحياة، أو ديوان أبي القاسم الشابي، وهو الديوان الذي استند إليه الدارسون، وقد أعده الشابي ليرسله به إلى مصر ليتولى الدكتور أحمد زكي صاحب مجلة «أبولو» طبعه. وهو مجموع شعره، طبع أول مرة في القاهرة سنة 1955 ثم طبع ثانية في تونس عام 1966 وصدرت عن تونس طبعة أخرى عام 1970، وطبع بعد ذلك في بيروت عام 1972.

3- قصائد متفرقة نشرت في الجرائد والمجلات، وفي كتب الدراسات.

4- مقالات مختلفة، وهي مجموعة كبيرة تناول فيها شؤون الأدب العربي قديمه وحديثه، نشر بعضها وبقي البعض الآخر مغموراً.

5- رسائل الشابي: وهي مجموعة كبيرة تبادلها مع أدباء عصره في مصر وتونس وسورية ورسائل تبادلها مع بعض الشعراء، نشر بعض هذه الرسائل، ولم ينشر الكثير منها، بعضها كانت أدبية والبعض الآخر كانت رسائل شخصية.

6- مذكراته: وقد بدأ بتدوينها في كانون الثاني عام 1930، وهي مجموعة من المذكرات اليومية التي سجل فيها آراؤه وخواطره. نشر بعضها في مجلة «مكارم الأخلاق» الصفاقسية.

7- شعراء المغرب الأقصى: وهي دراسة أعدها ليلقيها في النادي الأدبي ولكنه لم يجد سوى اثنين، فتركها مخطوطة في يد صديقه المحامي إبراهيم بورقعة بمدينة صفاقس.

8- جميل بثينة (قصة): وهي موجودة عند شقيقه الأستاذ الأمين الشابي حيث ظلت مسودة، وكان ينوي إلقاءها في النادي الأدبي، فحال المرض بينه وبين ذلك.

9- الهجرة المحمدية أو قصة الهجرة النبوية: محاضرة ألقاها الشاعر في «نادي الطلاب» بتوزر بمناسبة ذكرى الهجرة النبوية نشرها في مجلة «العالم» التونسية.

10- في المقبرة: وهي رواية ذكرها الأستاذ محمد كرو، وتحدث عنها الأستاذ زين العابدين السنوسي عند ترجمته لحياة الشابي وهي من نوع الاعترافات يروي، فيها على لسان بطلها حوادثه وتأثراته النفسية.

11- صفحات دامية: وهي قصة.

12- السكبر: مسرحية ذا فصلين.

13- الأدب العربي في العصر الحديث: دراسة قصيرة قدم بها ديوان «الينبوع» للشاعر أبي شادي، ذكرها الأستاذ عبداللطيف شرارة في كتاب الشابي ص52 وطبع في القاهرة عام 1934.

هذا ما عثرت عليه من إنتاج أبي القاسم الشابي خلال عمره القصير، وتلك هي المؤلفات التي عرفها أصدقاؤه أثناء حياته وبعد موته، ويعتبر هذا الإنتاج ضخماً، فليهنأ الشابي، حبيب الفجر الجميل والصباح الجديد، وليخلد مع الخالدين في أجمل قصائده وأروع مؤلفاته وهو القائل:

سأعيش رغم الداء والأعداء   كالنسر فوق القمة الشماء

القسم الثاني

قصائد الشابي وروائعه

أثبت في هذا القسم من الكتاب ما استطعت جمعه من قصائد الشابي وروائعه وبدائعه، وقد قمت بترتيبها ترتيباً زمنياً حسب تاريخ نظمها.

قصائد عام 1923

- قصيدة واحدة هي بواكيره الشعرية بعنوان «الغزال الفاتن».

الغزال الفاتن

هذه أول قصيدة نظمها الشاعر بتاريخ 23/2/1923 وذلك بعد موت حبيبته التي اختطفها الموت منه قبل أن يكمل الشاعر الرابعة عشرة من عمره. هذا الحب الذي لم يعمر طويلاً.

بــــذر الحـــبُّ بـــذره ... في فـــــؤادي فأورقـــا
بلحـــــاظ نوافـــــث ... فجنــــى حظـــي الــــشقا
وســـــعى فيــــه مُهـــرهُ ... عاديـــــاً، ثـــــم أعنقـــــا

* * *

رب ظبـــــي علقتـــــه ... بالبهـــا قـــد تقرطقـــا
ثـــم مـــن وصـــله الجميـــل ... غـــدا القلـــبُ مُملقـــا
ســـحر اللـــبَّ طرفُـــه ... مـــا دهـــا الريـــق لـــو رقـــى
أوصـــب الـــصبَّ صـــدُّه ... والـــشفا لـــو ترفَّقـــا
صـــار مُلقـــى بحبـــه ... موثقـــاً ليـــس مطلقـــا
صـــار ذا جِنَّـــةٍ بـــه ... ذا عـــذاب مُؤَرَّقـــا
يرقـــب البـــدر جفنـــه ... ليناجيـــه مـــا لقـــى
هـــام في العـــين غَرْبـــه ... وهمـــى ثـــم أغـــدقا
وهمـــى صـــوب دمعـــه ... فاســـتقى منـــه مـــا اســـتقى

* * *

كـــم قلـــوب تفطَّـــرت ... ودم صـــار مُهْرَقـــا
ودمـــوع تسلـــسلت ... مثـــل غـــيم تـــدفقا
دون أن تبلـــع النفـــو ... س رُضـــاباً مروّقـــا
وشـــقيق بخـــدِّه ... مهـــج الخلـــق شـــقا؟
ثغـــره مـــن عقـــوده ... ودمـــوعي تنـــسقا
خـــصره مـــن نحـــافتي ... ونحـــولي تمنطقـــا
مَرْشـــفاه بخـــده ... ودمـــائي تخلَّقـــا
مـــن لظـــى جمـــر خـــدِّه ... كبـــدي قـــد تحرّقـــا

قـــدّهُ فـــوق رِدفـــه   غـــصن بـــان عـــلى نقـــا
جيـــده تحـــت فرعـــه   بـــرقُ غـــيم تألقـــا
همـــتُ وجـــداً بحبِّـــه   قـــد رنـــا لي فأحرقـــا
نـــسبي في غرامـــه   نـــسباً صـــار مُغْرقـــا

قصائد عام 1924

قصيدتان هما:

- أيها الحب.
- خله للموت.

أيها الحب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 1/ 8/ 1924، بعد القصيدة الأولى بعام تقريباً، في سن الخامسة عشرة، وقد قالها متغزلاً بالحبيبة قبل موتها.

أيهـــا الحـــبُّ أنـــت سر بلائـــي   وهمـــومي ، وروعتـــي ، وعنـــائي
ونحـــولي ، وأدمعـــي ، وعـــذابي   وســـقامي ، ولـــوعتي ، وشـــقائي

* * *

أيهـــا الحـــبُّ أنـــت سر وجـــودي   وحيـــاتي ، وعـــزتي ، وإبـــائي
وشـــعاعي مـــا بـــين ديجـــور دهـــري   وأليفـــي، وقـــرَّتي ، ورجـــائي

* * *

يـــا سُـــلافَ الفـــؤادِ يـــا سُـــمَّ نفـــسي   في حيـــاتي ، يـــا شـــدتي ، ورخـــائي
أهيـــبٌ يثـــورُ في روضـــةِ الـــنفسِ   فيطغـــى ؟ أم أنـــتَ نـــور الـــسماءِ

* * *

أيهـــا الحـــبُّ قـــد جرعـــتُ بـــك الحـــز   ن كؤوســـاً ومـــا اقتنـــصت ابتغـــائي
فبحـــقِّ الجـــمال يـــا أيهـــا الحـــ   بُّ ! حنانيـــكَ بي ! وهـــوِّن بلائـــي

* * *

ليـــت شـــعري ! بأنـــة القلـــب قـــل لي :   مـــن ظـــلام خلقـــتَ، أم مـــن ضـــياءِ؟(1)
أتـــرى أنـــت جنـــةٌ ، أم جحـــيم ؟   لـــست أدري ، بـــل أنـــت كالكهربـــاء(2)

---

(1) ورد البيت في ديوان أغاني الحياة: ليت شعري يا أيها الحب قل لي.
(2) هذا البيت غير مثبت في الديوان.

خله للموت

نظم الشاعر الأبيات 2/ 8/ 1924، ويبدو أن بعضاً من أبياتها قد فُقد وتبقى منها هذه الأبيات الثلاثة التي يتحدث فيها عن الشعب الذي لا يثور مطالباً بحقه.

كـــل قلـــبٍ حمـــل الخســـف ... مـــلّ مـــن ذلّ الحيـــاة الأرذل
كـــل شـــعب قـــد طغـــت فيـــه الـــدِّما ... دون أن يثـــأر للحـــق الجلـــي
خلّـــه للمـــوت يطويـــه ... فـــما ... حظّـــه غـــير الفنـــاء الأنكـــل

قصائد عام 1925

وعددها تسع قصائد:

- النجوى.
- شعري.
- في الظلام.
- من حديث الشيوخ.
- الحياة.
- تونس الجميلة.
- الصيحة.
- جمال الحياة.
- نظرة في الحياة.

النجوى

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 2/4/1925 على النظام المعروف بلاغياً بالتقسيم، وهي من محاولات التجديد في بناء القصيدة أو الجديد مما لدى الشارع متأثراً في ذلك بشعراء الأندلس، حيث سار في القصيدة على النظام التالي:

فاعلاتن / فاعلاتن / فاعلن فاعلن

قـــف قلـــيلاً ، أيهـــا الـــساري القمـــرْ ! واصـــــطبرْ
يـــا ســـميري ! في أويقـــات الكـــدر والـــضجر
واســـقني مـــن جـــدول النـــور البـــديع قـــدحا
علّنـــي أفهـــم هَيْنـــوم الربيـــع إن صـــحا
كـــم فـــؤادٍ إذ تولّتـــه الـــشجون والهمـــوم
بـــثَّ أســـلاكه والـــدمع هتـــون مـــا يـــروم
إن تكـــنْ تـــضحك سُـــخراً بالبـــشر يـــا قمـــرْ !
فلكَـــمْ أحزنَـــك الـــدهرُ الخَطِـــر بـــالنُّكُرْ
أيهـــا القـــاموس يـــا صـــوت الحيـــاة ! وصـــداها
وأغانيهـــا العـــذابَ الـــشاديات ونِـــداها !
مـــا لأمواجـــكَ يُطغيهـــا الغـــرورْ فتثـــورْ
ثـــم تـــأوي نحوهـــا تيـــك الـــصخورْ كالكـــسير
أتُراهـــا تـــذكر الأمـــسَ الجميـــل وســـلامَه
فتحيـــي ذلـــك المجـــد النبيـــل بابتـــسامه
وتُغنـــي، ثـــم لا تلبـــث أنْ تحتويهـــا
لوعـــةُ اليـــوم ، فتبكـــي وتـــئن لـــشقاها

تونس الجميلة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 2/ 6/ 1925، والقصيدة صرخة معذب قاسية من حياة الشاعر تحت وطأة الجهل.

لست أبكي لعسف ليلٍ طويلٍ ... أو لربع غدا العفاءُ مراحَه[1]
إنما عبرتي لخطبٍ ثقيلٍ ... قد عرانا، ولم نجدْ من أزاحَه:
كلما قام في البلاد خطيبٌ ... موقظٌ شعبَه، يريدُ صلاحَه
ألبسوا روحَه قميصَ اضطهادٍ ... فاتكٍ، شائكٍ، يرد جِماحه
اخمدوا صوته الإلهي بالعسـ ... ـف، أماتوا صداحه ونواحه
وتوخّوا طرائقَ العسف والإر ... هاق معْه، وما توخوا السماحه
هكذا المصلحون في كل صوبٍ ... رشقاتُ الردى إليهم مُتاحه
غير أنا تناوبتنا الرزايا ... واستباحت حمانا وأي استباحه

* * *

أنا يا تونس الجميلة، في لج ... الهوى قد سبحت أيّ سباحة[2]
شِرعتي حُبك العميق، وأني ... قد تذوقت مُرَّه وقَراحه![3]
لست أنصاع لِلَّواحي ولو ... تّ وقامت على شبابي المناحه[4]
لا أبالي ... وإن أُريقت دمائي ... فدماء العشّاق دوماً مباحه!!
ويطول المدى تريك الليالي ... صادق الحب والولا وسَجَاحَهْ

* * *

إن ذا عصرُ ظلمة غير أني ... من وراء الظلام شممتُ صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن ... سترد الحياة يوماً وشاحه!!

---

(1) العفاء: الديار الدارسة، المراح: الموضع.
(2) اللج: معظم الماء.
(3) القراح: الماء الخالص.
(4) اللواحي: جمع اللاحية وهي اللائمة.

شعري

قصيدة نظمها الشاعر بتاريخ 13/ 6/ 1925 يبث فيها آلامه وكآبته، ويوضح أن شعره يأتي رضاً لضميره، لا يبغي منه رضاءَ أمير أو هدية أو مال.

شـــعري نفاثـــةُ قلبـــي   إن جـــاش فيـــه شـــعوري
لـــولاه مـــا انجـــابَ عنـــي   غـــيمُ الحيـــاة الخطـــيرِ
ولا وجـــــدت اكتئـــــابي   ولا وجـــــدت سروري
بـــــه تـــــراني حزينـــــاً   أبكـــــي بـــــدمع غزيـــــر
بـــــه تـــــراني طروبـــــاً   أجـــــرُّ ذيـــــل حبـــــوري

* * *

لا أنظـــم الـــشعرَ أرجـــو   بـــه رضـــاءَ الأمـــير !
بمدحـــــةٍ أو رثـــــاء   تُهـــدى لـــرب الـــسرير !
حـــسبي إذا قلـــت شـــعراً   أن يرتـــضيه ضـــميري !!

* * *

مـــا الـــشعرُ إلا فـــضاءٌ   يَـــرفُ فيـــه مقـــالي
فـــيما يـــسرُّ بـــلادي   ومـــا يـــسر المعـــالي !!
ومـــا يثـــيرُ شـــعوري   مـــن خافقـــات خيـــالي

* * *

لا أقـــرضُ الـــشعرَ أبغـــي   بـــه اقتنـــاصَ نـــوالِ
الـــشعرُ إن لم يكـــنْ في   جمالـــهِ ذا جـــلال
فـــإنما هـــو طيـــفٌ   يـــسع بـــوادي الـــضلال
يقـــضي الحيـــاةَ طريـــداً   في ذلـــةٍ، واعتـــزال

* * *

يـــا شـــعر أنـــت ملاكـــي   وطـــارفي وتـــلادي
أنـــا إليـــك مُـــراد   وأنـــت نعـــم مـــرادي
قـــف لا تـــدعني وحيـــداً   ولا أدعـــك تنـــادي

فهل وجدت حُساماً … ينـاط دون نجـاد
كم حطم الدهر … ذا همة كثيرَ الرماد
ألقاه تحت نعالِ … من ذلة وحداد
رفقاً بأهل بلادي … يا منجنون العوادي(1)

الصيحة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 13/ 6/ 1925، وقد حذر فيها من مغبة الجهل وخطورته، موضحاً الآثار المترتبة على الجهل الذي هو سبب بلاء الأمة والأفراد، والشاعر فيها يشكو حاله أمام شعبه.

يا قومي ! عينيَ شامت … للجهل في الجوِّ نارا
تتلو سحاباً رُكاماً … يتلو قتاماً مُثارا
يثير في الأرض ريحا … يُهيج فيها غُبارا
تلفي الشديدَ صريعاً … تبقي الأديبَ حمارا !
منها الفضاء ظلام … والناس منها سكارى
قد أورثتهم دوارا … وأعقبتهم خُمارا
لا يعرف المرءُ منها … ليلاً رأى أم نهارا
يخال كل خيال … سرى تسربل فارا

* * *

يا قوم سرتم حثيثاً … خُطىً وراء كبارا
نبذتم العلم نبذ النوى … قِلىً وصغارا
لبستم الجهل ثوباً … تخذتموهُ شِعارا
يا قومُ ما لي أراكم … قطنتم الجهل دارا؟

(1) منجنون: دولاب ناعورة السقاية، ووردت في موضع آخر مجنون.

أضـــعتم مجـــد قـــوم   شـــادوا الحيـــاةَ فخـــارا
أبقـــوا ســـماء المعـــالي   بـــها أضـــاءوا منـــارا
حـــاكوا لكـــم ثـــوب عـــزّ   خلعتمـــوه احتقـــارا
ثـــم أرتـــديتم ....   لبـــوس خـــزى وعـــارا

* * *

يـــا ليـــت قـــومي أصـــاخوا   لمـــا أقـــول جهـــارا
يـــا شـــعر أسْـــمعتَ لكـــنَّ   قـــومي أراهـــم سُـــكارى
فـــلا تُبـــالِ إذا مـــا   أعطـــوا نِـــداك ازورارا
واصـــبر عـــلى مـــا تلاقـــي   واصـــدع وقيـــت العثـــارا

في الظلام

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 27/ 6/ 1925، وهي من التوشيح الثناة من بحر الرمل، الشطر الأول تام والثاني جزء من البحر وكل قسم منها له حرف روي خاص.

رفرفـــت في دُجيّـــة الليـــل الحـــزينْ   زمـــرة الأحـــلامْ
فـــوقَ سربٍ مـــن غمامـــات الـــشجون   ملؤهـــا الآلام

* * *

شخـــصت لمـــا رأت عـــين النجـــوم   بعثـــة العـــشاق
ورمتهـــا مـــن ســـماها برجـــوم   تـــسكب الأحـــراق

* * *

كنـــت إذ ذاك عـــلى ثـــوب الـــسكون   أنثـــرُ الأحـــزان
والهـــوى يـــسكب أصـــداءَ المنـــون   في فـــؤاد فـــانْ

* * *

ســـاكتاً مثـــل جميـــع الكائنـــات ...   راكـــد الألحـــانْ
هـــائماً قلبـــي بـــأعماق الحيـــاة   تائهـــاً حـــيران

إن للحـــبِّ عــلى النــاس يــداً تقصف الأعمارْ
ولـــه فجــر عــلى طــول المــدى ســاطعُ الأنــوار

* * *

ثـــورة الـــشعر ، وأحــلام الــسلام وجمــال النــورْ
وابتــسام الفجـــر في حــزن الظــلام في العيــون الحــور

جمال الحياة

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 19/ 7/ 1925، يصف فيها الطبيعة والصباح والليل والشمس ليصل إلى أن الدهر بين غدو ورواح وضياء وظلام وسكون وحركة ونشيد وانقباض.

سرت في الـــروض وقــد لاحــت تباشــير الــصباحِ
وجنـــاح الفجـــر يـــومي نحـــو ربّـــات الجنـــاحِ
والـــدجى يـــسعى رويـــداً ســـعي غيـــداء رَدَاحِ
ونـــسيم الـــصبح يـــسري سجـــسجاً فـــوق البطـــاحِ
وخريـــر النهـــر ســـكرا نُ ، وزهـــر الـــروض صـــاح
فرنـــت نحـــو جـــلال الكـــون جونـــاه اللّيـــاحِ[1]
ثـــم بانـــت في ســـفور فاضـــح أيَّ افتـــضاح
فاحتـــست خمـــرُ نـــدي الـــدّا مـــس مـــن كـــأس الأقـــاح
واعتلـــت بلقـــيس عـــر ش الليـــل في تلـــك النـــواحي
ثـــم مالـــت لِغـــروب بعـــد إضرام الكفـــاح
واســـتوى الليـــل بـــرغم الـــشمس في العـــرش الفُـــساح

* * *

(1) الجوناء: الشمس: والليّاح: الصَباح.

هكــــذا الــــدهر بأزيـــــاء ... غُـــــــدُوِ، ورواحِ
وضـــــياءٍ وظـــــلام ... وســـــكون وصـــــباح
ونــــشيد وفـــــواح ... وانقبـــاضٍ وانـــشراح
إنـــــما الــــدهر وميثـــــا ... قُ الليـــــالي كـــشجاح

من حديث الشيوخ

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 5/ 8/ 1925.

ألا إنَّ أحــلامَ الـــشَّباب ضـئيلةٌ ... تحطِّمهـا مثـل الغصون المـصائب
سـألتُ الـدِّياجي عـن أمـاني شبيبتي ... فقالـت: «ترامَتْهـا الرِّيـاحُ الجوائـبُ»
ولـما سـألتُ الـريح عنهـا أجـابني: ... «تلقَّفهـا سـيل القَـضا، والنوائـبُ»
«فـصارت عفـاءَ، واضـمحلَّت كـذرَّةٍ ... على الشاطئ المحموم، والموجُ صاخبُ»
لقـد خـدعتني في الحيـاة شيـشتي ... ولكننـي قـد حنكتنـي التجـارب[1]
قـد كنـت ألقـي للـدجى برغـائبي ... فأبـصرها فـوق الـدنا تتخاطـب

نظرة في الحياة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 30/ 9/ 1925، وهي من خواطر الشاعر الذاتية، ولها صفة تعلمية حكمية.

إن الحيـــــــاةَ صراعٌ ... فيهـــا الـــضعيف يـــداسْ
مـــا فـــاز في ماضـــغيها ... إلا شـــديدُ المِـــراسْ
للحـــبِّ فيهـــا شـــجون ... فكُـــنْ فتـــى الاحـــتراس
ألكـــونُ كـــونُ شـــقاءٍ ... ألكـــون كـــون التبـــاسْ

---

(1) البيتان الأخيران من كتاب زين العابدين السنوسي، الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، وغير واردة في الديوان.

ألكــــون كــــون اخــــتلاقٍ وضــــجةٍ واخــــتلاس
ســــيّان عنــــدي فيــــه الــــسرور، والابتئــــاس

* * *

بــــين النوائــــب بَــــوْنٌ للنــــاسِ فيــــه مزايــــا
ألــــبعضُ لم يــــدر إلاَّ الــــبِلا ينــــادي البلايــــا
والــــبعضُ مــــا ذاقَ منهــــا ســــوى حقــــيرِ الرزايــــا
إنَّ الحيــــاةَ سُــــباتٌ سيَنقــــضي بالمنايــــا
ومــــا الــــرؤى فيــــه إلاَّ آمالَنــــا ، والخطايــــا
فــــإن تَــــيقّظَ كانــــت بــــين الجفــــون بقايــــا

* * *

إن الــــسكينة روحٌ في الليــــلِ ليــــست تُــــضام
والــــروح شــــعلةُ نــــورٍ مــــن فــــوقِ كــــلِّ نِظــــامْ
لا تنطفــــي بريــــاح الــــإرهــــاق أو بالحــــسامْ
بــــل قــــد يُعــــجُّ لَظاهــــا ســــيلاً ، ويطغــــى الــــضِّرام
كــــل البلايــــا .. جميعــــاً تفنــــى ويحيــــا الــــسلام !
والــــذلُّ ســــبَّة عــــار لا يرتــــضيه الكــــرام !

* * *

ألفجــــر يــــسطع بعــــد الــــدجى ، ويــــأتي الــــضياءْ
ويرقــــدُ الليــــل قَــــسراً عــــلى مهــــادِ العفــــاء
وللــــشعوب حيــــاةٌ حينــــاً وطــــوراً فنــــاء
واليــــأسُ مــــوتٌ ولكــــن مــــوتٌ يُثــــير الــــشقاء
والجِــــدٌّ للــــشعب روح تــــوحي إليــــه الهنــــاء
فــــإن تولّــــت تــــصدَّت حياتــــه للــــبلاءْ

الحياة

نظم الشاعر الأبيات 21/ 12/ 1925، ويمتزج فيها الفرح باليأس.

إن هـــذي الحيـــاةَ قيثـــارةُ الله ، وأهـــلُ الحيـــاة مثـــل اللُّحـــونِ
نَغَـــمٌ يَـــسْتَبِي المـــشاعر كالـــسحر ، وصـــوتٌ يُخِـــلُّ بـــالتَّلحينِ
واللَّيـــالي مغـــاورٌ ، تُلْحِـــدُ اللَّحْـــن وتقـــضِي عـــلى الـــصَّدى المـــسكينِ

قصائد عام 1926

وعددها ست قصائد:

- أنشودة الرعد.
- مأتم الحب.
- شكوى اليتيم.
- غرفة من يم.
- الكآبة المجهولة.
- الزنبقة الذاوية.

إنشودة الرعد

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 28/ 2/ 1926.

في سـكونِ الليـلِ لمـا		عـانقَ الكـونَ الخـشوعْ
واختفـى صـوت الأمـاني		خلـفَ آفـاقِ الهجـوعْ

* * *

رتّـلَ الرعـدُ نـشيداً		ردَّدتـه الكائنـات
مثـلَ صـوتِ الحـقِّ إن صا		حَ بـأعماقِ الحيـاةْ

* * *

يتهـادى بـضجيج		في خلايـا الأوديـةْ
مثـل جبـار مـن الحـقِّ		بأقـصى الهاويـةْ

* * *

فـسألت الليـلَ والليـ		ـلُ كئيـبٌ ورهيـبْ
شاخـصاً بالليـل والليـ		ـلُ جميـلٌ وغريـبْ

* * *

أتـرى أنـشودةُ الرعـ		ـدِ أنـينٌ وحنـينْ
رنّمتهـا بخـشوع		مهجـةُ الكـونِ الحـزينْ؟

* * *

أمْ هـي القـوَّةُ تـسعى		باعتـسافٍ واصـطخابْ
يـتراءى في ثنايـا		صـوتِها روحُ العـذابْ؟

* * *

غـير أنَّ الليـلَ قـد ظـ		ـلَّ ركـوداً جامـدا
صـامتاً مثـل غـديرِ الـ		ـقفرِ مـن دونِ صـدى

غرفة من يم[1]

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 27/ 3/ 1926.

ضـعف العزيمـةِ لحـدٌ في سـكينته ... تقـضي الحيـاة ، بنـاه اليـأسُ والوجـلُ
وفي العزيمـــة قـــوّاتٌ مـــسخرةٌ ... يخـــرُّ دونَ مـــداها الـــشامخُ الجبـــلُ
والنـاسُ شخـصان: ذا يـسعى بـه قـدمٌ ... مـن القنـوط ، وذا يـسعى بـه الأمـلُ
هـذا إلى المـوتِ، والأجـداث سـاخرةٌ ... وذا إلى المجـدِ ، والـدنيا لـه خَـوَلُ
مـا كـلُّ فعـلٍ يجـلّ النـاسُ فاعلَـه ... مجـداً ، فـإن الـورى في رأيهـم خطـل
ففـــي التماجـد تمويـــه ، وشـــعوذة ... وفي الحقيقـة مـا لا يـدرك الـدجل
مـا المجـدُ إلاَّ ابتـساماتٍ يَفـيضُ بهـا ... فـمُ الزمـان إذا مـا انـسدَّت الحِيَـلُ
ولـيسَ بالمجـدِ مـا تـشقى الحيـاةُ بِـهِ ... فيحـسد اليـومُ أمـساً ضـمّه الأزلُ
هـل الحـروبُ سـوى وحـشيةٍ نهـضت ... في أنفس النـاس فانقـادت لهـا الـدولُ
فأيقظـت في قلـوب النـاس عاصـفةً ... غـام الوجـود لهـا واربـدَّت الـسبلُ
فالـدهرُ منتعـلٌ بالنـار ، ملتحـفٌ ... بـالهول والويـل والأيّـام تـشتعلُ !
والأرضُ داميـــةٌ ، بـــالإثم طاميـــة ... ومـارد الـشر في أرجائهـا ثمـل !!
والمـوت كالمـارد الجبـار منتـصب ... في الأرض يخطفُ مـن قـد خانـه الأجـلُ
وفي المهامِـــهِ أشـــلاء ممزَّقـــة ... تتلـو عـلى القفـر شـعراً لـيس يُنتحـل

---

(1) وردت الأبيات الثمانية الأولى في كتاب الشابي لأبي القاسم محمد كرو بعنوان (الأمل والقنوط) ووردت الأبيات الستة الأخرى بعنوان (الحرب) في الكتاب السابق. أما في الديوان فقد جاءت بعنوان (غرفة من يم) وعدد أبياتها 14 بيتاً وقد وجدت البيت السادس:

المجـد صـنفان: صـنف في تمايلـه ... لحـن الخلـود ، وصـنف فوقـه الخبـل

والبيت الأخير:

تثـير في الـنفس أحزانـاً يرثـي لهـا ... فـم الفـؤاد بتغريـد فتنهـل

مأتم الحب[1]

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 3/ 8/ 1927.

ليت شعري!
أيُّ طيرٍ
يسمعُ الأحزانَ تبكي بين أعماق القلوبْ
ثمَّ لا يهتف في الفجرِ برنات النحيبْ
بخشوع واكتئاب؟

* * *

لست أدري
أيُّ أمر
أخرسَ العصفور عنّي؟ أترى مات الشعورْ
في جميع الكونِ حتى في حشاشات الطيورْ
أم بكى خلفَ الحجاب؟

* * *

في الدياجي
كم أناجي
مسمعَ القبرِ بغصَّاتِ نحيبي وشجوني
ثم أصغي، علّني أسمعُ ترديدَ أنيني
فأرى صوتي فريدْ

* * *

فأنادي
يا فؤادي!
ماتَ من تهوى وهذا اللحدُ قد ضمَّ الحبيبْ

(1) نشرت في كتاب محمد كرو بعنوان (مأتم الحب) وفي مصادر اخرى مأتم القلب.

فابــكِ يـــا قلـــبُ ! بـــما فيـــكَ مـــن الحـــبِّ المـــذيب
إبـــكِ يـــا قلـــبُ ! وحيـــدْ

* * *

ذلّ قلبي
مات حبي
فـــاذرفي يـــا مقلـــةَ الليـــلِ الـــدراري عـــبراتْ
حـــول حبـــي ، فهـــو قـــد ودَّع آفـــاق الحيـــاةْ
بعـــد أن ذاقَ اللهيـــبْ

* * *

واندبيهِ ،
واغسليهِ ،
بـــدموعِ الفجـــرِ مـــن أكـــوابِ زهـــرِ الزنبـــقِ
وادفنيـــهِ بجـــلالٍ في ضـــفاف الـــشفَقِ
لـــيرى روحَ الحبيـــبْ

الكآبة المجهولة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 7/ 8/ 1926

أنـــا كئيـــب ،
أنـــا غريـــب ،

كـــآبتي خالفـــت نظائرهـــا
غريبـــةٌ في عـــوالم الحـــزَن
كـــآبتي فكـــرةٌ مغـــرِّدَةٌ
مجهولـــةٌ مـــن مـــسامع الـــزمن

لكننـــي قـــد ســـمعت رنتهـــا

بمهجتـــــي ، في شــــبابيَ الثمـــــل
ســــمعتُها، فانــــصرفتُ مكتئبـــاً
أشــدو بحُـــزني، كطـــائر الجبـــل

ســـــمعتها أنّـــــةً يرجِّعُهـــــا
صـــوتُ الليـــالي ، ومهجـــةُ الأزل
ســـمعتها صرخـــةً مضَعْــضَعةً
كجـــدولٍ في مـــضايق الـــسبل

ســـــمعتها رنّـــــةً ، يعانقهـــــا
شـــوقٌ إلى عـــالم يضعـــضعها
ضـــعيفةً مثـــل أنـــةٍ صـــعدتْ
مـــن مهجـــةٍ هـــدّها توجُّعهـــا

كآبـــةُ النـــاس شـــعلة ، ومتـــى
مـــرّت ليـــالٍ خبَـــتْ مـــع الأمـــدِ
أنـــا اكتئـــابي فلوْعـــةٌ ســـكنتْ
روحِـــي ، وتبقـــى بهـــا إلى الأبـــد

* * *

أنـــا كئيـــب ، أنـــا غريـــب ،
ولـــيس في عـــالم الكآبـــة مـــنْ
يحمـــلُ مِعـــشارَ بعـــضِ مـــا أجِـــدُ
كـــآبتي مُـــرَةٌ ، وإن صرخـــتْ
روحـــي فـــلا يـــسمعنها الجـــسد

كـــآبتي ذات قـــسوةٍ صَـــهرت
مـــشاعري في جهـــنَّم الألمَ
لم يـــسمع الـــدَّهرُ مثـــل قـــسْوتها
في يقظـــة قَـــطُّ ، لا ، ولا حلُـــمِ

كـــآبتي شُـــعلةٌ مؤجّجـــة ،
تحـــت رمـــاد الكـــون تـــستعِر
ســـيعلم الكـــونُ مـــا حقيقتهـــا
ويطلـــع الفجـــر يـــوم تنفجـــر

* * *

كـــآبتي شـــعلةٌ ، مؤججـــة
تحـــت رمـــاد الكـــون تـــستعر
ســـيعلم الكـــون مـــا حقيقتهـــا
ويطلـــع الفجـــر يـــوم تنفجـــر

* * *

كآبـــة النـــاس شـــعلة ومتـــى
مـــرت ليـــالٍ خبـــت مـــع الأمـــد
أمـــا اكتئـــابي فلوعـــة ، ســـكنت
روحـــي ، وتبقـــى بهـــا إلى الأبـــد

شكوى اليتيم

نظم الشاعر القصيدة في 31/ 8/ 1926.

عـــلى ســـاحل البحـــرِ ، أنـــى يـــضجُّ   صراخُ الـــصباحِ ، ونـــوحُ المـــسا
تنهـــدتُ مـــن مهجـــةٍ أترعـــتْ   بـــدمعِ الـــشقاء، وشـــوكِ الأســـى
فـــضاعَ التنهُّـــدُ في الـــضجّةِ
بـــما في ثنايـــاهُ مـــن لوعـــةِ
فـــسرت وناديـــت يـــا أمُّ ! هيّـــا
إليَّ ! فقـــد ســـئمتني الحيـــاة

* * *

وَجِئتُ إلى الغابِ ، أَسَكُبُ أوجاعَ قلبي ، نحيباً كلفح اللهيبْ
نحيباً ترقرقَ في مُهْجَتِي وَسَالَ يرنُّ بندبِ القلوبْ

فَلَمْ يفهمِ الغابُ أشجانَهُ
وظلَّ يُرَدِّدُ ألحانَهُ
فسرتُ ، وناديتُ يا أم هيَّا
إليَّ ! فقد عذبتني الحياة

وقفت على النهر أهرقُ دمعاً تفجّر من فيضِ حُزني الأليمْ
يسيرُ بصمتٍ ، على وجنتيَّ ويلمعُ مثلَ دموعِ الجحيمْ

فما خفَّفَ النهرُ من عدوِهِ
ولا سَكَتَ النهرُ عن شدوِهِ
فسرت ، وناديت يا أمُّ هيا
إليَّ ! فقد أضجرتني الحياة

* * *

ولما ندبتُ ، ولم ينفعِ وناديت أمي «فلم تسمعِ»
رجعت بحزني إلى وحدتي وردَّدت نَوحي على مسمعي

وعانقتُ في وِحدتي لوعتي
وقلتُ لنفسي : ألا فاسكتي

الزنبقة الذاوية

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 15/ 11/ 1926، ويقارن فيها الشاعر بين الزنبقة الذاوية وزهرة عمره الآفل.

أَزَنْبَقَةَ السفّح ؟ ما لي أراكِ تعانقكِ اللوعةُ القاسيهْ ؟
أفي قلبكِ الغضِّ صوتُ اللهيب ، يرتِّلُ أنشودة الهاويهْ ؟
أأسمعكِ الليلُ ندبَ القلوب أأرشفكِ الفجرُ كأسَ الأسى ؟

أصبَّ عليك شعاعُ الغروب نجيعَ الحياة ، ودمعَ المسا
أأوقفكِ الدهرُ حيث يُفجّـ ـرُ نوحُ الحياة صُدوعَ الصدورْ ؟
وَيَنْبثقُ الليل طيفاً ، كئيباً رهيباً ، ويخفقُ حزنُ الدهورْ ؟

* * *

إذا أضجرتكِ أغاني الظلامِ فقد عذّبتني أغاني الوجومْ
وإن هجرتكِ بناتُ الغيوم ، فقد عانقني بنات الجحيم
وإن سكب الدهر في مِسمعيْكِ نحيبَ الدجى ، وأنينَ الأمَلْ
فقد أجّج الدهر في مهجتي شُواظاً من الحَزَن المشتعل
وإن أرشفتْكِ شفاهُ الحياة رُضابَ الأسى ، ورحيقَ الألمْ
فإنِّي تجرّعتُ من كفها كُؤوساً ، مؤجَجَةً ، تضطرم

* * *

أصيخي ! فما بين أعشار قلبي يرفّ صدى نوحك الخافت
معيداً على مهجتي بحفيف جناحيه صوتَ الأسى المائت
وقد أترع الليلُ بالحب كأسي وشعشعها بلهيب الحياةْ
وجرَّ عني من ثُمالاتِه مرارةَ حزنٍ ، تُذيب الصفاةْ
إليَّ ! فقد وحّدت بيننا قساوةُ هذا الزمان الظلومْ
فقد فجّرتْ فيَّ هذِي الكلومَ كما فجّرت فيكِ تلك الكلوم

* * *

وإن جرفتني أكفُّ المنون إلى اللحْد ، سحقتكِ الخطوبْ
فحزني وحزنكِ لا يبرحانِ أليْفينِ رغم الزمان العصيب
وتحتَ رواق الظلام الكئيب إذا شمل الكونَ روحُ السحَرْ
سيُسمَعُ صوتٌ ، كلحن شجيّ تطايَرَ من خَفَقات الوتر
يردِّدُه حُزنُنا في سكونٍ على قبرنا ، الصامتِ المطمئن
فنرقُد تحت التراب الأصمِّ جميعاً على نغمات الحَزَنْ

قصائد عام 1927

وعددها إحدى عشرة قصيدة:

- يا شعر.
- السآمة أو الملل الأليم.
- الدموع.
- المجد.
- جدول الحب.
- الذكرى.
- إلى الطاغية.
- أغنية الأحزان.
- أيها الليل.
- الحب.
- سر مع الدهر.

يا شعر

نظر الشعر القصيدة بتاريخ 18/ 1/ 1927

يـــا شـــعرُ أنْـــتَ فـــمُ الـــشعور ، وصرخـــةُ الـــروح الكئيـــبْ
يـــا شـــعر أنـــت صـــدى نحيـــب القلـــب ، والـــصَّب الغريـــب

* * *

يـــا شـــعر أنـــت مـــدامعٌ عِلِقـــتْ بأهـــداب الحيـــاة
يـــا شـــعر أنـــت دمٌ ، تفجّـــر مـــن كلـــوم الكائنـــات

* * *

يـــا شـــعر ! قلبـــي - مـــثلما تـــدري - شـــقيٌّ ، مظلـــمُ
فيـــه الجـــراحُ ، النجْـــلُ ، يقطـــر مـــن مغاورهـــا الـــدمُ

* * *

جمـــدت عـــلى شـــفتيه أرزاء الحيـــاة العابـــسه
فهـــو التعـــيسُ ، يُذيبـــه نـــوح القلـــوب البائـــسهْ

* * *

أبـــداً ينـــوح بحرقـــةٍ ، بـــين الأمـــاني الهاويـــهْ
كالبلبـــل الغرِّيـــد مـــا بـــين الزهـــور الذاويـــهْ

* * *

كـــمْ قـــد نـــصحتُ لـــه بـــأن يـــسلو ، وكـــمْ عزَّيتُـــه
فـــأبى ، ومـــا أصـــغى إلى قـــولي ، فـــما أجْديتـــه

* * *

كـــم قلـــت: «صـــبراً يـــا فـــؤادُ ! ألا تَكُـــفّ عـــن النحيـــبْ ؟»
«فـــإذا تجلّـــدت الحيـــاةُ تبـــدَّدتْ شُـــعَلُ اللهيـــب»
«يـــا قلـــب ! لا تجـــزع أمـــامَ تـــصلّبِ الـــدهر الهـــصورْ»
«فـــإذا صرخـــتَ توجّعـــاً هزئـــت بـــصرختكَ الـــدهورْ»

* * *

«يــــا قلبـــت ! لا تـــسخط عـــلى الأيـــام ، فـــالزهر البـــديعْ»
«يـــصغي لـــضجات العواصـــف قبـــل أنغـــام الربيـــع»

* * *

«يـــا قلـــب ! لا تقنْـــع بـــشوك اليـــأس مـــن بـــين الزهـــورْ»
«فـــوراء أوجـــاع الحيـــاة عذوبـــةُ الأمـــل الجـــسور»

* * *

«يـــا قلـــب ! لا تـــسكبْ دموعَـــكَ بالفـــضاء فتنـــدمِ»
«فعـــلى ابتـــسامات الفـــضاء قـــساوةُ المـــتهكّمِ»

* * *

لكـــنَّ قلبـــي وهـــو - مُخْـــضلُّ الجوانـــب بالـــدموعْ -
جاشـــتْ بـــه الأحـــزانُ ، إذا طفحـــت بهـــا تلـــك الـــصدوع

* * *

يبكـــي عـــلى الحلـــم البعيـــد بلوعـــةٍ ، لا تـــنجلي
غـــرِداً ، كـــصَدَّاح الهواتـــف في الفـــلا ، ويقـــول لي :

* * *

«طهِّـــرْ كلومـــكَ بالـــدموع ، وخلِّهـــا ، وســـبيلَها»
«إن المـــدامع لا تـــضيع حقيرهـــا وجليلهـــا»

* * *

«فَمِـــنَ المـــدامع مـــا تـــدْفعَ جارفـــاً حَـــسَك الحيـــاهْ»
«يرْمـــى لهاويـــة الوجـــود بكـــل مـــا يبنـــي الطغـــاهْ»
«ومـــن المـــدامع مـــا تـــألّق في الغياهـــب كـــالنجوم»
«ومـــن المـــدامع مـــا أراح الـــنفس مـــن عـــبء الهمـــوم»

* * *

فـــارحَمْ تعاســـته ، ونُـــحْ معـــه عـــلى أحلامِـــهِ

فلقـــد قـــضى الحلـــمُ البـــديعُ عـــلى لظـــى آلامِـــهِ

* * *

يـــا شـــعر ! يـــا وحْـــيَ الوجـــودِ الحـــيَّ ، يـــا لُغَـــةَ الملائـــكْ
غـــرِّدْ ، فأيّـــامِي أنـــا تبْكِـــي عـــلى إيقـــاع نايـــكْ

* * *

ردِّدْ عـــلى ســـمع الـــدجى أنـــاتِ قلبـــي الواهيـــهْ
واســـكب بأجفـــان الزهـــور دمـــوعَ قلبـــي الداميـــهْ

* * *

فلعـــلّ قلـــب الليـــل أرحـــم بـــالقلوب الباكيـــهْ
ولعـــلّ جفـــن الزهـــر أحفـــظ للـــدموع الجاريـــهْ

* * *

كـــم حرَّكـــت كـــفُّ الأســـى أوتـــارَ ذيـــاك الحنـــينْ
فتهاملـــتْ أحـــزانُ قلبـــي في أغاريـــد الأنـــين

* * *

فَلَكَـــمْ أرَقْـــتُ مـــدامعي ، حتـــى تقرَّحـــتِ الجفـــونْ
ثـــمَّ التفـــتّ ، فلـــم أجـــد قلبـــاً يقاســـمني الـــشجون

* * *

فعـــسى يكـــون الليـــل أرحـــم ، فهـــو مـــثلي ينـــدب
وعـــسى يـــصون الزهـــر دمعـــي ، فهـــو مـــثلي يـــسكب

* * *

قـــد قنعـــتْ كـــفُّ المـــساء المـــوتَ بالـــصَّمت الرهيـــب
فغـــدا كـــأعماق الكهـــوف ، بـــلا ضـــجيج أو وجيـــب

* * *

يـــأتي بأجنحـــة الـــسكون ، كأنـــه الليـــل البهـــيم

لكـــن طيـــفَ المـــوت قـــاسٍ ، والـــدجى طيـــفٌ رحـــيم

* * *

مـــا للمنيـــة لا تـــرقُّ عـــلى الحيـــاة النائحـــه ؟
سِـــيَّان أفئـــدة تـــئن ، أو القلـــوب الـــصادحه

* * *

يـــا شِـــعرُ ! هـــل خُلِـــقَ المَنـــون بـــلا شـــعورٍ كـــالجماد ؟
لا رِعـــشة تعـــرو يدَيـــه إذا تملَّقَـــه الفـــؤاد ؟

* * *

أرأيـــتَ أزهـــارَ الربيـــع ، وقـــد ذوتْ أوراقهـــا
فهـــوت إلى صـــدر الـــتراب ، وقـــد قـــضت أشـــواقُها ؟

* * *

أرأيـــت شـــحرور الفـــلا ، مـــترنماً بـــين الغـــصون
جمـــد النـــشيدُ بـــصدره لمـــا رأى طيـــفَ المنـــون ؟

* * *

فقـــضى ، وقـــد غاضـــت أغاريـــدُ الحيـــاة الطـــاهرهْ
وهـــوى مـــن الأغـــصان ، مـــا بـــين الزهـــور البـــاسرهْ ؟

* * *

أرأيـــتَ أمَّ الطفـــل تبكـــي ذلـــك الطفـــلَ الوحيـــد
لمـــا تناولـــه ، بعنـــفٍ ، ســـاعدُ المـــوت الـــشديد ؟

* * *

أســـمعتُ نَـــوْحَ العاشـــق الولهـــان ، مـــا بـــين القبـــور
يبكـــي حبيبتَـــه ؟ فيالمـــصارع المـــوت الجـــسور !

* * *

طفحـــتْ بـــأعماق ، الوجـــود ســـكينةُ الـــصبر الجليـــد

لمـــــا رأى عــــدل الحيـــــاة يـــضمه اللحـــدُ الكنـــود

* * *

فتـــــدفقت لحنـــــاً ، يـــــردده عــــلى ســــمع الــــدهور
صـــوتُ الحيـــاة بـــضجة .. ، تـــسعى عـــلى شـــفة البحـــور

* * *

يـــا شـــعرُ ! أنـــتَ نـــشيدُ أمـــواج الخـــضم الـــساحره
الناصـــــعات ؛ الباســـــمات ، الراقـــــصات ، الطـــــاهره

* * *

الـــسافرات ، الـــصادحات مـــع الحيـــاة إلى الأبـــد ؟
كعـــرائس الأمـــل الـــضحوك ، يَمِـــسْنَ مـــا طـــال الأمَـــد

* * *

هـــا إن أزهـــارَ الربيـــع تبـــسمتْ أكمامُهـــا
ترنـــو إلى الـــشَّفق البعيـــدِ ، تغرُّهـــا أحلامُهـــا

* * *

في صـــدرها أمـــلٌ ، يحـــدِّق نحـــو هاتيـــك النجـــوم
لكنـــه أمـــلٌ ، ســـتلحده جبـــابرةُ الوجـــوم

* * *

فلـــسوف تغمـــض جفنهـــا ، عـــن كـــل أضـــواء الحيـــاة
حيـــث الظـــلام مُخَـــيِّمٌ في جـــو ذيـــاك الـــسبات

* * *

هـــا إنهـــا همـــست بـــآذن الحيـــاة غريـــدَها
قتلـــتْ عـــصافيرُ الـــصباح ، صُـــداحَها ونـــشيدَها

* * *

يـــا شـــعرُ ! أنـــت نـــشيد هاتيـــك الزهـــور الباســـمهْ

يـــا ليتنـــي مثــل الزهــور ، بــلا حيــاة واجمــه

* * *

إن الحيـــاة كئيبــةٌ ، مغمــورة بــدموعها !!
والــشمسُ أضــجرها الأســى ، في صــحوها وهجوعهــا

* * *

فتجرعــت كأســاً دِهاقــاً ، مــن مُشَعــشَعة الــشَّفَق
فتمايلــتْ ، سَــكرى إلى كهــف الحيــاة .. ولم تُفِــق

* * *

يــا شــعرُ ! أنــتَ نحيبهــا لّمــا هَــوَتْ لــسُباتها
يــا شــعرُ أنــتَ صُــداحها، في موتهــا وحياتهــا

* * *

انظــر إلى شــفق الــسماء ، يفــيض عــن تلــك الجبــال
بــشعاعه الخــلاب ، يغمرهــا ببــسمات الجــمال

* * *

فيثــير في الــنفس الكئيبــة عاصــفاً لا يركــدُ
ويــؤجِّج القلــبَ المعــذَّبَ شــعلةً لا تخمــدُ

* * *

يــا شــعرُ ! أنــت جمــال أضــواء الغــروب الــساحره
يــا همــسَ أمــواج المــساء ، الباســماتِ الحــائره

* * *

يــا نــايَ أحلامــي الحبيبــةِ ! يــا رفيــقَ صَــبابتي
لــولاكَ مــتُّ بلــوعتي ، وبــشقوتي ، وكــآبتي

* * *

فيــكَ انطــوتْ نفــسي، وفيــكَ نفخــتُ كــلّ مــشاعري

فاصــــدح عـــــلى قمـــــم الحيــــاة بلــــوعتي ، يــــا طـــــائري

إلى الطاغية[1]

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 18/ 2/ 1927.

يقولــون: «صــوت المــستذَلِّين خافــتٌ ... وسمع طغاة الأرض (أطرشُ) أضخمُ»
وفي صــيْحة الــشعب المــسخَّر زعــزعٌ ... تخــرُّ لهــا شــمُّ العــروش، وتُهْــدَمُ
ولعلعــة الحــق الغَــضوب لهــا صــدى ... ودمدمــة الحــرب الــضروس لهــا فــمُ
إذا التــفَّ حــول الحــق قــوم فإنَّــه ... يــصرِّمُ أحــداثَ الزمــان ويُــبْرم

* * *

لــك الويــل يــا صَرْحَ المظــالم مــن غــدٍ ... إذا نهــض المستــضعفون ، وصــمَّموا !
إذا حطَّــم المــستعبَدون قيــودَهم ... وصــبُّوا حميم الــسخط أيَّــان تعلــم .. !
أغــرَّك أن الــشعب مُغْــضٍ عــلى قــذى ... وأنَّ الفــضاء الرَّحْــبَ وســنانُ ، مظلــم؟
ألا إنَّ أحـــــلامَ الـــــبلاد دفينـــــةٌ ... تجمجـــم في أعماقهـــا مـــا تجمجـــم
ولكـــن ســيأتي بعــد لأْيٍ نــشورها ... وينبثـــق اليـــوم الـــذي يـــترنم
هو الحق يُغفي ... ثــم يــنهض ســاخطاً ... فيهــدمُ مــا شــاد الظّــلام، ويحطــمُ
غــدا الــرّوْعِ ، إن هــبَّ الــضعيفُ ببأســه ... ســتعلم مـــن مِنَّـــا ســيجرفه الــدّمُ
إلى حيــث تجنــي كفّــه بــذرَ أمْــسِه ... ومُـــزدَرعُ الأوجـــاعِ لا بـــد ينــدم
ســتجرع أوصــابَ الحيــاة، وتنتــشي ... فتــصغي إلى الحــق الــذي يــتكلم
إذا مــا ســقاك الــدهر مــن كأســه التــي ... قرارتهــا صــابٌ مَريــرٌ ، وعلقــم
إذا صـــعق الجبـــار تحـــت قيـــده ... يـــصيخ لأوجـــاع الحيـــاة ويفهـــم !!

---

(1) وردت عند محمد كرو بعنوان: لعلعة الحق.

السآمة

أو: الملل الأليم

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 19/ 3/ 1927

سـئمتُ الحيـاةَ ومـا في الحيـاةِ ... ومـا إن تجـاوزتُ فجـرَ الـشبابْ
سـئمتُ الليـالي وأوجاعَهـا ... ومـا شعـشعتْ مـن رحيـق بـصابْ
فحطّمـت كـأسي ، وألقيتهـا ... بـوادي الأسـى وجحـيم العـذابْ
فأنـتْ وقـد غمرتهـا الـدموعْ ... وقـرَّت وقـد فـاض منهـا الحبـابْ
وألقـى عليهـا الأسـى ثوبَـه ... وأقبرهـا الـصمتُ والاكتئـاب
فـأين الأمـاني وألحانهـا ؟ ... وأيـن الكـؤوس ، وأيـن الـشراب ؟
لقـد سـحقتها أكُـفُّ الظـلام ... وقـد رشـفتها شـفاه الـسراب
فـما العـيشُ في حومـةٍ ، بأسـها ... شـديد ، وصـداحها لا يجـاب !
كئيـب ، وحيـد بآلامـه ... وأحلامـه ، شـدوه الانتحـاب
ذوت في الربيـع أزاهيرهـا ! ... فنمـت وقـد مـصهنَّ الـتراب
لـوينَ النحـورَ عـلى ذِلّـة ... ومـتن وأحلامهـن العـذاب
فحـال الجـمال ، وغـاض العبـير ... وأذوى الـردى جفـن تلـك الكعـابْ

أغنية الأحزان

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 26/ 4/ 1927

غنّني أنـشودة الفجـر الـضَّحوكْ
أيهـا الـصداحْ !

فلقـد جرّعنـي صـوتُ الظـلام
ألَمـاً علّمنـي كـره الحيـاةْ
إن قلبـي مَـلَّ أصداء النـواح
غننـي ، يـا صـاحْ !

حطّمت كفُّ الأسى قيثارتي
في يد الأحلام

فقضت صَمتاً ، أناشيدُ الغرامْ
بين أزهار الخريف الذاويه
وتلاشت في سكون الاكتئاب
كصدى الغرِّيد

* * *

كفَّ عن تلك الأغاني الباسمةْ
أيها العصفورْ !

فحياتي أَلِفَتْ لحنَ الأسى
من زمان قد تقضَّى ، وعَسَى
أن يثير الشَّدوُ ، في صمت الفؤادْ
آنةَ الأوتار

* * *

لا تغنيني أغاريد الصباحْ
بلبلَ الأفراح !

ففؤادي وهو مغمور الجراح
بتباريح الحياة الباكيةْ
ليس تستهويهِ ألحان السرور
وأغاني النور

* * *

إنّ مَنْ أصغى إلى صوت المَنون
وصدى الأجداث

ليس تستهويه ألحانُ الطيورْ
بين أزهار الربيع الساحرةْ

وابتـــسامات الحيـــاة ، الــــسافرهْ
عـــــــن حـــــــــلال الله

* * *

غننـــي يـــا صـــاحِ ، أنـــاتَ الجحـــيمْ
واســـــــــــــــــقني الآلام

أُتـــرِع الكـــأسَ بأوجـــاع الهمـــوم
واســـقني ، إنّي كرهـــتُ الابتـــسام
غننـــي نـــدبَ الأمـــاني الخائنـــه
والليـــــــــالي الــــــــسود

* * *

غننـــي صـــوت الظـــلام المكتئـــبْ
إننـــــــــي أهـــــــــواهْ

هـــاكَ كـــأس القلـــب فاملأهـــا نُـــواح
واسـكب الحُـزنَ بهـا حتَّـى الـصباحْ !
إنهـــا مـــن طينـــة الحـــزن المَريـــر
صــــــاغها الخَــــــلاق

* * *

بئـــستْ الأفـــراحُ ، أفـــراح الحيـــاة
إنهــــــا أحـــــــلام

تخلـــب اللـــب بألحـــانٍ عِـــذابْ
وأغاريـــدَ ، كـــأملاك الـــسما
ثـــم لا تلبـــث أن تـــذوِي كـــما
تــــــذبل الأزهـــــــارْ

* * *

خبِّريني ، ما الذي خلف الغيوم ...؟
ربـــــــةَ الأحـــــــلامْ

أفتـى الهـولِ ، وجبَّـارُ الهمـوم ؟
أم عـروسُ الأمـلِ العـذبِ الـشرود
تتهـادى بـين لألاء الـصباح ؟
كمَـــــــلاك النـــــــور

* * *

أنـا في درب الحيـاة الغامـضة
تائــــــهٌ ، حـــــيران

بيـنما أبـصر في وجـه الحيـاهْ
ظلمـةَ الأحـزان في ظـل الألمْ
إذ أرى في جفنهـا نـوراً ، بـديْع
باســــــماً ، فتَّــــــانْ

* * *

هـا أنـا أسـمع في قلـب الحيـاة
صـــــــيحةَ الآلام

مُـرَّةً تنساب ، مـن قلـب حطـيم
مـلأ الحـزنُ أقاصـيه دمـوعْ
هـا أنـا أسـمع أصـوات الـسرور
كَــــــضَّتِ الأيــــــام

الدموع

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 20/6/1927، ويبوح فيها بنوع من الشقاء الوجودي ويعترف بتنازعه بين قوى الخير والشر.

ينقضي العيشُ بين شوق ويأسٍ ... والمنى بين لوعة وتأسِّي
هكذا سُنّة الحياة ، ونفسي ... لا ترومُ الرحيقَ في كأس رجس
مُلِئ الدهرُ بالخداع ، فكم قد ... ضلّل الناسَ من إمامٍ وقسٍّ !
كلّما أسألُ الحياة عن الحـ ... ـقِّ ، تكفُّ الحياةُ عن كلِّ همْس
لم أجد في الحياة لحناً بديعاً ... يَستبيني سوى سكينة نفسي
فسئمتُ الحياةَ ، إلاَّ غراراً ... تتلاشى به أناشيدُ يأسي

* * *

ناولتني الحياة كأساً دهاقاً ... بالأماني ، فما تناولتُ كأسي
وسقتني من التعاسة أكوا ... باً تجرَّعتُها ، فيا شدَّ تعسي !
إنَّ في روضة الحياةِ لأشوا ... كاً ، بها مُزِّقتْ زنابقُ نفسي
ضاعَ أمسي ! وأين مني أمسي ! ... وقضى الدهرُ أنْ أعيشَ بيأسي !
وقضى الحبُ في سكون مُريع ... ساعةَ الموتِ ، بينَ سخطٍ وبؤس
لم تخلف ليَ الحياةُ من الأمـ ... ـسِ سوى لوعةٍ تهبُّ وترسي !
تتهادى ما بين غصاتِ قلبي ... بسكون ، وبينَ أوجاعِ نفسي
كخيالٍ من عالمِ الموتِ ينسا ... بُ بصمتٍ ، ما بينَ رمسٍ ورمس

* * *

تلك أوجاعُ مهجةٍ عذَّبتها ... في جحيمِ الحياةِ أطيافُ نحسِ
تلكَ أحلامُ غور روح كئيبٍ ... كرِه العيشَ : من نعيمٍ وبؤسِ (1)

ايها الليل

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 24/ 6/ 1927

أيها الليلُ ! يا أبا البؤسِ والهو ... لِ ! ويا هيكلَ الحياة الرهيب

---

(1) البيت غير موجود في الديوان.

فيـكَ تجثـو عـرائسُ الأمـلِ العـذْ ب ، تُـصلي بـصوتها المحبـوبِ
فيُثـير النـشيدُ ذكـرى حيـاةٍ حجبتْهـا غيـومُ دهـرٍ كئيـبِ
وتـرفُّ الـشجون مـن حـول قلبـي بـسكونٍ وهيبـةٍ وقطـوب
أنـت يـا ليـل ! ذرة صـعدتْ للكـونِ مـن مـوطئِ الجحـيم الغـضوبِ
أيُّهـا الليـلُ ، أنـت نغَـمٌ شـجيّ في شـفاه الـدهور ، بـين النحيـبِ
إنَّ أنـشودة الـسكون التـي تـرتجُّ في صـوتِكَ الركـودِ الرحيـب
تُـسمعُ الـنفس في هـدوء الأمـاني رنّـة الحـقِّ والجـمالِ الخلـوبِ
فتـصوغُ القلـوبَ منهـا أغاريـدَ تهـزُّ الحيـاةَ هـزَّ الخطـوب
تتلـوّى الحيـاةُ مـن ألم البـؤس ، فتبكـي بلوعـةٍ ونحيـب
وعـلى مَـسْمَعَيْكَ تنهـلُّ نوحـاً وعـويلاً مـرّاً شـجونُ القلـوبِ
فـأرى برقعـاً شـفيفاً مـن الأو جـاعِ ، يلقـي عليـك شـجوَ الكئيـب
وأرى في الـسكونِ أجنحـةَ الجـ ـبّارِ ، مخـضلّةً بـدمعٍ صـبيبِ
فلـك الله ! مـن فـؤادٍ رحـيمٍ ولَـك اللهُ مـن فـؤادٍ كئيـبِ
يهجَـعُ الكـونُ في طمأنينـة العـصفور ، طِفـلاً بـصدركَ الغريـب
وبأحـضانِكَ الرحيمـة يـستيقظُ في نُـضرة الـضحوك الطـروب
شـادياً كـالطيور بالأمـل العـذب ، جمـيلاً كبهجـة الـشؤبوب
يـا ظـلامَ الحيـاة ! يـا روعـةَ الحـزن ! ويـا مِعـزَفَ التّعـيس الغريـب !
إنَّ في قلبِـكَ الكئيـب لُمرتـاداً لأحـلام كـلِّ قلـبٍ كئيـب
وبقيثـارة الـسكينة في كفَّيْـك تنهـلُّ رنّـةُ المكـروب
فيـك تنمـو زنـابق الحُلـم العـذب ، وتـذوي لـدى لهيـب الخطـوب
خلـفَ أعماقـك الكئيبـة تنـسابُ ظِـلالُ الـدهور ذات القطـوب
وبفوديْـك في ضـفائرك الـسود تَـدبُّ الأيـام أيَّ دبيـب

* * *

صـاح ! إنَّ الحيـاة أنـشودةُ الحـزن ، فرتّـل عـلى الحيـاة نحيبـي
إنَّ كـأسَ الحيـاة مترعـةٌ بالـدَّمع ، فاسـكبْ عـلى الـصباح حبيبـي

إنَّ وادي الظــلام يطفــح بــالهول ، فــما أبعــدَ ابتــسامَ القلــوب !
لا يغرَّنْــك ابتــسامُ بنــي الأرض ، فخلــفَ الــشعاع لــذعُ اللهيــب
أنــت تــدري أن الحيــاة قطــوبٌ وخطــوبٌ ، فــما حيــاةُ القطــوب ؟
إنَّ في غيبــةِ الــدهور ، تباعــاً ، لخطيــبٌ يمــر إثــرَ خطيــب

* * *

ســدَّدتْ في ســكينة الكــون للأعــماق نفــسي لحظــاً بعيــدَ الرســوب
نظــرةً مزقــت شــغافَ الليــالي فــرأتْ مهجــةَ الظــلام الهيــوب
ورأتْ في صــميمها لوعــةَ الحــزن ، وأصــغتْ إلى صراخ القلــوب
لا تحــاولْ أن تنكــرَ الــشجوَ إني قــد خــبرتُ الحيــاة خَــبْرَ لبيــب
فتبرَّمــتُ بالــسكينة ، والــضجّة ، بــل قــد كرهــتُ فيهــا نــصيبي ...
كــن كــما شــاءت الــسماء كئيبــاً أيُّ شيءٍ يــسرّ نفــس الأديــب ؟
أنفــوس تمــوت ، شاخــصة بــالهول ، في ظلمــة القنــوط العــصيب ؟
أم قلــوبٌ محطــمّاتٌ عــلى ســاحل لــجِّ الأســى ، بمــوج الخطــوب ؟
إنــما النــاسُ في الحيــاة طيــور قــد رماهــا القــضا بــوادٍ رهيــب
يعــصفُ الهــول في جوانبــه الــسود ، فيقــضي عــلى صــدى العنــدليب

* * *

قــد ســألتُ الحيــاةَ عــن نغمــة الفجــر ، وعــن وجمــة المــساء القطــوب
فــسمعتُ الحيــاةَ في هيكــل الأحــزان تــشدو بلحنهــا المحبــوب :
مــا ســكوتُ الــسماءِ إلا وجــوم مــا نــشيد الــصباح غــيرُ نحيــب
لــيس في الــدهر طــائر يتغنّــى في ضــفافِ الحيــاة غــير كئيــب
خــضب الاكتئــاب أجنحــةَ الأيــام بالــدمع ، والــدم المــسكوب
وعجيــبٌ أن يفــرح النــاس في كهــف الليــالي ، بحزنهــا المــشبوب !

* * *

كنــتُ أرنــو إلى الحيــاة بلحــظٍ باســمٍ ، والرجــاء دونَ لغــوبِ
ذاك عهــدٌ حــسبته بــسمة الفجــر ، ولكنــه شــعاع الغــروب

ذاك عهـد ، كأنـه رنّـة الأفـراح تنسابُ مـن فـم العنـدليب
خُفِّفَـت ريثما أصـخت لهـا بالقلـب حينـاً وبُـدِّلتْ بنحيـب
إن خمـرَ الحيـاة ورديـة اللـون ولكنهـا سـموم القلـوب

* * *

جرفـتْ مـن قـرارة القلـبِ أحلامـي إلى اللحـد ، جـائرات الخطـوب
فتلاشـتْ عـلى تخـوم الليـالي وتهـاوتْ إلى الجحـيمِ الغـضوبِ
وثـوى في دُجْنـةِ الـنفسِ ومـضٌ لم يـزلْ بـين جيئـةٍ وذهـوبِ
ذكريـاتٌ تمـيسُ في ظلمـةِ الـنفس ، ضـئالاً كرائعـاتِ المـشيبِ
يـا لَقلـبٌ تجـرَّع اللوعـةَ المـرةَ مـن جـدولِ الزمـان الرهيـبِ !
وَمَـضَتْ في صـميمه شـعلةُ الحـزنِ ، فغـشّتهُ مـن شـعاعِ اللهيـبِ

المجد

نظم الشاعر الأبيات في غرة الشهر الثامن عام 1927 .

يـودُّ الفتـى لـو خـاض عاصـفة الـردى وصـدَّ الخمـيسَ المَجْرَ والأسَـدَ الـوَرْدا
ليـدرك أمجـاد الحـروب ، ولـو درى حقيقَتَهـا مـا رام مـن بيْنهـا مجْـدَاً
فـما المجـد في أن تُـسكِرَ الأرض بالـدِّما وتركـبَ في هيجائهـا فَرَسـاً نَهْـدا
ولكنــه في أن تــصدَّ بهمّــةٍ عن العالم المرزوء ، فيْضَ الأسى صدّا

الحب

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 28/ 8/ 1927.

الحـبُّ شـعلة نـورٍ سـاحرٍ ، هبطـتْ مـن الـسماء ، فكانـتْ سـاطعَ الفلَـق
ومزّقـت عـن جفـون الـدَّهر أغـشِيَةً وعـن وجـوه الليـالي بُرقَـعَ الغـسق
الحـب روحٌ إلهـيٌّ ، مجنّحـةٌ أيامُـه بـضياء الفجـر والـشفق

يــوف في هــذه الــدنيا ، فيجعلهـــا نجْـماً ، جميلاً ضـحوكاً ، جـدَّ مؤْتَلِـقِ
لــولاه مــا سُـمِعتْ في الكــون أغنيــةٌ ولا تـــآلفَ في الــدنيا بَنُــو أُفُــقِ
الحـــبُّ جـــدولُ خمــرٍ ، مــن تذوَّقــه خــاض الجحيمَ ، ولم يُشْفِق من الحرق
الحـــب غايـــة آمـــال الحيـــاة ، فـــما خـوْفي إذا ضمّني قبري ؟ ومـا فَرَقـي ؟

جدول الحب
بين الأمس واليوم

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 30/ 8/ 1927

بـــالأمسِ قـــد كانـــتْ حيـــاتي كالـــسماء الباســـمةْ
واليـــوم قـــد أمـــستْ كـــأعماقِ الكهـــوفِ الواجمـــةْ

* * *

قـــد كـــان لي مـــا بـــينَ أحلامـــي الجميلـــة جـــدولُ
يجـــري بـــه مـــاء المحبـــة طـــاهراً يتسلـــسلُ

* * *

تـــسعى بـــه الأمـــواج باســـمة كـــأحلام الـــصبا
بيـــضاءَ ناصـــعة ، ضـــحوكاً مثـــل أزهـــار الربـــى

* * *

مياســـة كعـــرائس الفـــردوس بـــين حقولـــهِ
تتلـــو أناشـــيدَ الهـــوى في مَـــدِّه وقُفولـــهِ

* * *

هـــو جـــدول الحـــب الـــذي قـــد كـــان في قلبـــي الخـــضلْ
بمراشـــف الأحـــلام - منطلقـــاً - يـــسير عـــلى مهـــلْ

* * *

يتلـــو عـــلى ســـمعي أغاريـــدَ الحيـــاة الطـــاهره

ويُثـــيرُ في قلبـــي أناشـــيدَ الخلـــودِ الـــساحره

* * *

تقـــفُ العـــذارى الخالـــداتُ ... عـــرائسُ الـــشعرِ البـــديعْ
في ضـــفتيه، مُـــردِّدات نغمـــة الحلـــم البـــديعْ

* * *

يلمـــسْنَ مـــن قيثـــارةِ الأحـــلامِ أوتـــارَ الغـــزلْ
فتفـــيضُ ألحـــانُ الـــصبابةِ عذبـــةً مثـــلَ الأمـــلْ

* * *

وتَطـــيرُ بالبـــسَماتِ والأنغـــامِ أجنحـــةُ الـــصدى
في ذلـــك الأفـــقُ الجميـــلِ وذلـــكَ النّـــسَمِ الرُّخـــا

* * *

وهنـــاك حيـــثُ تُعـــانقُ البـــسماتُ ألحـــانَ الغـــزلْ
يتمايـــلُ الحلـــمُ الجميـــلُ .. كبـــسمةِ القلـــبِ الثّمِـــلْ

* * *

هـــو جـــدول ، قـــد فجَّـــرتْ ينبوعَـــه في مهجتـــيْ
أجفـــانُ فاتنـــةٍ أرتنيهـــا الحيـــاةُ لـــشقوتيْ

* * *

أجفـــانُ فاتنـــةٍ تـــراءت لي عـــلى فجـــر الـــشبابْ
كعروســـة مـــن غانيـــاتِ الـــشعرِ في شَـــفَقِ الـــسّحابْ

* * *

ثـــمَّ اختفـــتْ خلـــفَ الـــسماءِ وراءَ هاتيـــكَ الغيـــومْ
حيـــثُ العـــذارى الخالـــداتُ يَمِـــسْنَ مـــا بـــينَ النجـــومْ

* * *

ثـــمَّ اخفـــتْ ، أوَّاه طـــائرةً بأجنحـــة المنـــونْ

نحــوَ الــسماء ، وهــا أنــا في الأرضِ تمثــالُ الــشجونْ !

* * *

قــد كــان ذلــك كلُّــه بــالأمسِ ! بــالأمسِ البعيــدْ
والأمــسِ قــد جرَفتْــهُ مقهــوراً يــدُ المــوتِ العنيــد !!

* * *

قــد كــان ذلــك تحــتَ ظــلِّ الأمــسِ والمــاضي الجميــلْ
قــد كــانَ ذلــكَ في شــعاعِ البــدرِ مــن قبــلِ الأفــولْ

* * *

واليــومُ إذ زالــتْ ظِــلالُ الأمــسِ عــن زهــري البــديعْ
وتجلبــبَ الزهــرُ الجميــل بظلمــةِ الليــل المريــعْ

* * *

ذبلــتْ مراشــفُه ، فأصــبحَ ذاويــاً ، نــضوَ الكلــومْ
وهــوى لأنَّ الليــلَ أســمعهُ أناشــيدَ الوجــومْ

* * *

بــالأمسِ قــد كانــتْ حيــاتي كالــسماءِ الباســمهْ
واليــوم قــد أمــستْ كــأعماقِ الكهــوف الواجمــهْ

* * *

إذ أصــبح النبــعُ الجميــلُ يــسيرُ في وادي الألم
متعثِّــراً بــينَ الــصخورِ يغــورُ في تلــك الظُّلَــمْ

* * *

جَفّــتْ بــهِ أمــواجُ ذيّــاكَ الغــرامِ الآفــلِ
فتــدفّقتْ فيــه الــدموعُ بــصوبها المتهاطــلِ

* * *

قــد حجّبتْــه غيــومُ أحــزانِ الوجــود القاتمــهْ

قــد أخرســتهُ مــرارةُ القلــبِ التعــيسِ الظالمــهْ

* * *

جمــدت عــلى شــفتيْهِ أنغــامُ الــصبابةِ والهــوى
وقــضت أغــاني الحــبِّ في أعماقِــهِ لَمَّــا هــوى

* * *

وغــدَتْ بــه الأمــواجُ جامــدةَ الملامــحِ قاتِمــهْ
قــد أســكتتها لوعــةُ الــروح الحــزين الواجمــهْ

* * *

غاضــتْ أمانيهــا وغــار بهــا الجــمالُ الــساحرُ
فأصــابها - لهفــاً عليــه - الاكتئــاب الكــافرُ

* * *

في ضــفّتيه عــرائسُ الأشــعارِ تنــصُبُ مأتمــاً
يهــرقْنَ فيــه الــدمعَ ، حتــى يلطــمَ الــدمعُ الــدما

* * *

فيــسيلُ الــدمع الــدامي لقلــب الجــدولِ
حيــثُ المــرارةُ والأســى بــين الزهــور الــذُّبّلِ

* * *

ويَــنُحنَ حتــى يُفعــمَ الآفــاقَ صــوتُ الانتحــابْ
فتــسيرُ أصــداءُ النياحــةِ نحــوَ أطبــاقِ الــضَّبابْ

* * *

وهنــاك مــا بــينَ الــضبابِ الأقــتمِ الــساجي الكئيــبْ
تهتــزُّ آلامــي وتخــتلجُ الكآبــةُ ، والنحيــبْ

سر مع الدهر

نظم الشاعر الأبيات بتاريخ 7/ 9/ 1927 وهي أبيات في الحكمة.

سر مع الدهر ، لا تضدنَّك الأهوال ، أو تفزعنَّك الأحداثُ
سر مع الدهر ، كيفما شاءَت الدنيا ، ولا يخدعنّك النفَّاثُ
فالذي يرهبُ الحياة شقيٌّ ، سخرت من مصيره الأجداثُ

الذكرى

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 24/ 11/ 1927.

كنَّا كزوجيْ طائر ، في دوْحة الحب الأمينْ
نتلو أناشيد المنى بين الخمائل والغصون
متغرِّدَيْن مع البلابل في السهول وفي الحزون
مَلأَ الهوى كأس الحياة لنا ، وشعشعها الفُتون
حتَّى إذا كدنا نُرشِّفُ خمرها ، غضب المنون
فتخطَّف الكأسَ الخَلوبَ ، وحطَّم الجام الثمين
وأراق خمر الحب في وادي الكآبة والأنين
وأهاب بالحبِّ الوديع ، فودَّع العُشَّ الأمين
وشدا بلحن الموتِ في الأُفُق الحزين المستكين
ثم اختفى خلف الغيوم ، كأنه الطيف الحزين ...

* * *

يا أيها القلب الشجيّ ! إلام تخرسك الشجون
رحماكَ قد عذّبتني بالصمت والدمع الهتون
مات الحبيب ، وكل ما قد كنتَ ترجو أن يكون !
اصبرْ على سخط الزمان، وما تصرَّفه الشؤون

فلَسَوْفَ يُنقذكَ المنون ، ويفرح الروح السجين ..

* * *

وِرْدُ الحياة مُرَنَّقٌ ، والموت مورده مَعين
ولربَّما شاق الردى الداجي، وأعماقُ المنون
قلبَا ، تروِّعه الحياة ، ولا تُهادنه السنون
ومشاعراً حسْرَى ، يسيرُ بها القنوط إلى الجنون

قصائد عام 1928

وعددها أربع عشرة قصيدة:

- الطفولة.
- المساء الحزين.
- أغنية الشاعر.
- مناجاة عصفور.
- إلى الموت.
- صوت تائه.
- في ظلال الغاب أو نشيد الأسى.
- قالت الأيام.
- بقايا الخريف.
- في فجاج الآلام.
- يا رفيقي.
- إلى عازف أعمى.
- قبضة ضباب.
- قلت للشعر.

الطفولة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 5/ 1/ 1928.

لله مـــا أحـــلى الطفولـــة ! إنهـــا حلـــم الحيـــاة
عهـــدٌ كمعـــسول الـــرؤى مـــا بـــين أجنحـــة الـــسبات ...
ترنـــو إلى الـــدنيا ، ومـــا فيهـــا بعـــين باســـمهْ
وتـــسير في عـــدوات واديهـــا بـــنفس حالمـــه ...

* * *

إن الطفولـــــة تهتـــــزُّ في قلـــــب الربيـــــعْ
ريَّانـــةٌ مـــن ريـــق الأنـــداء في الفجـــر الوديـــع
غنَّـــت لهـــا الـــدنيا أغـــاني حبِّهـــا وحبورهـــا
فتـــأوَّدت نَـــشوى بـــأحلام الحيـــاة ونورهـــا

* * *

إن الطفولـــــة حقبـــــةٌ شـــــعرِيَّةٌ بـــــشعورها
ودموعهـــا ، وسرورهـــا ، وطموحهـــا ، وغرورهـــا
لم تمـــش في دنيـــا الكآبـــةِ ، والتعاســـة ، والعـــذاب
فـــترى عـــلى أضـــوائها مـــا في الحقيقـــة مـــن كِـــذاب

قالت الأيام

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 28/ 1/ 1928، يعبر فيها الشاعر عن إيمانه بغلبة الحق وانتصار الحرية.

يـــا أيهـــا الـــسادر في غَيِّـــه !
يـــا واقفـــاً فـــوق حطـــام الجِبـــاهْ !
مهـــلاً ! ففـــي أنّـــات مـــن دســـتَهم

صــــوتٌ رهيـــبٌ ســـوف يـــدوي صـــداه ...

* * *

لا تـــأمننَّ الـــدهر ، إمَّــا غفــا
في كهفــه الــداجي ، وطالـت رُؤاه
فـــإن قـــضى اليـــومُ ومـــا قبلـــه
ففـــي الغـــد الحـــيِّ صـــباحُ الحيـــاهْ

* * *

يـــا أيهـــا الجبـــار ! لا تـــزدري
فـــالحق جبّـــارٌ ، طويـــل الأنـــاهْ
يغفـــى ، وفي أجفانـــه يقظـــةٌ
ترنـــو إلى الفجـــر الـــذي لا تـــراهْ ...

المساء الحزين

نظم الشاعر قصيدته في 20/ 1/ 1928 .

أظـــلَّ الوجـــودَ المـــساء الحـــزين ، وفي كفـــه مِعـــزف لا يُبـــينْ
وفي ثَغـــره بـــسمات الـــشجون ، وفي طرفـــه حـــسرات الـــسنين
وفي صـــدره لوعـــة لا تَقِـــرُّ ، وفي قلبـــه صـــعقات المنـــون
وقبّلـــه قـــبَلاً صـــامتات ، كـــما يلـــثمُ المـــوتُ وَرْدَ الغـــصون
وأفـــضى إليـــه بـــوحي النجـــوم ، وسر الظـــلام ، ولحـــن الـــسكون
وأوْحـــى إليْـــه مـــزاميرَه ، فغنَّـــتْ بهـــا في الظـــلام الحَـــزُون
وعلّمـــه كيـــف تأْسَـــى النفـــوس ، ويقـــضي يُؤوســـاً لـــديها الحنـــين
وأســـمعه صرخـــات القلـــوبْ ، وأنهلـــه مـــن سُـــلاف الـــشؤون -
فـــأغفى عـــلى صـــدره المطمـــئن ، وفي رُوحـــه حلـــم مـــستكين
قـــويٌّ ، غلـــوبٌ ، كـــسحر الجفـــون ، شـــجيٌّ ، لعـــوبٌ ، كزهـــر حـــزين

ضـكوكٌ ، وقـد بلّلته الـدموع ، طـروبٌ ، وقـد ظَلّلتْـه الـشجون
تعانقـه سـكرات الهـوى ، وتحـضنه شـهقات الأنـين
يـشابُه رُوحَ الـشباب الجميـل إذا مـا تـألّق بـين الجفـون
أعـاد لنفـسي خيـالاً جمـيلاً ... لقـد حجبتـه صروف الـسنين
فطافـت بهـا هجـسات الأسـى ، وعـادت لهـا خطـوات الجنـون
أظـلَّ الفـضاء جنـاحُ الغـروب ، فـألقى عليـه جمـالاً كئيـب
وألبـسه حلّـةً مـن جـلالٍ ، شـجيٍّ ، قـويٍّ جميـلٍ ، غلـوبْ
فنامـت عـلى العـشب تلـك الزهـورُ لمـرأى المـساء الحـزين الرهيـب
وآبـت طيـور الفـضاء الجميـل لأوكارهـا ، فرِحـاتِ القلـوب
وقـد أضرمـت بأغاريـدها خيـالَ الـسماء الفـسيح الرحيـب
وولّى رعـاةُ الـسَّوامِ إلى الحـيِّ يزجونهـا في صُـمات الغـروب
فتَثْغُـو ، حنينـاً لحُملانهـا ، وتقطـفُ زهْـرَ المـروج الخـصيب
وهـم ينـشدون أهـازيجهم بـصوت ، بهـيجٍ ، فَـروحٍ ، طـروب
ويَـسْتَمْنِحُونَ مـزاميرهم ، فتمـنحهم كـلّ لحـنٍ عجيـب
تطـير بـه نـسماتُ الغـروب إلى الـشَفق المـستطير الخلـوب
وتـوحي لهـم نظـراتُ الـصبايا أناشـيد عهـد الـشباب الرطيـب
وأقبـل كـلٌّ إلى أهلـه ، سـوى أمَـلِي ، المـستطار ، الغريـب
فقـد تـاه في مَعْـسَبات الحيـاة ، وسُـدَّتْ عليـه منـاحِي الـدروب
وظـلَّ شريـداً ، وحيـداً ، بعيـداً ، يغالـب عُنْـف الحيـاة العـصيب
وقـد كـان مـن قبـلُ ذا غبطـةٍ ، يرفـرف حـول فـؤادي الخـصيب

* * *

ولّمـا أظـلَّ المـساءُ الـسماءَ ، وأسـكر بـالحزن روحَ الوجـودْ
وقفـت، وسـاءلته : «هـل يـؤوب لقلبـي ربيـعُ الحيـاة الـشَّرُود؟»
«فتخفـقُ فيـه أغـاني الـورود ويخـضرُّ فـردوسُ نفـسي الحـصيد؟»
«وتختـال فيـه عـروس الـصباح ، وتمـرح نـشْوى بـذاك النـشيد؟»

«ويرجـع لي مـن عـراص الجحيم سـلامُ الفـؤاد ، الجميـلُ ، العهيـد؟»
«فقـد كبّلَتْـه بنـاتُ الظـلام ، وألقيْنَـه في ظـلام اللحـود؟»
فأصـغى إلى لَهَفِـي المستمرّ ، وخـاطبني مـن مكـانٍ بعيـد:
«تعـودُ ادِّكـاراتُ ذاك الهـوى ، ولكـنَّ سـحر الهـوى لا يعـود»
فجاشـتْ بنفـسي مـآسي الحيـاة، وسـخطُ القنـوط القـويُّ المَريـد
ولمَّـا طغـت عـصَفاتُ القنـوط فـمادتْ بكـلِّ مكـين ، عتيـد
أهبـت بقلبـي ، الهلـوع ، الجـزوع ، وقـد كـان مـن قبلُ جلْـداً ، شـديد :
«تجلَّـدْ ، ولا تـستكنْ للَّيـالي ، فـما فـاز إلاَّ الـصبورُ ، الجليـد»
«ولا تـأْسَ مـن حادثـات الـدهور، فخلـف الـدياجير فجـرٌ جديـد»
«ولـولا غيـومُ الـشتاء الغِـضابُ لمـا نـضَّدَ الـروضُ تلـك الـورود»
«ولـولا ظـلام الحيـاة العبـوسُ لمـا نـسجَ الـصبحُ تلـك الـبرودْ»

بقايا الخريف

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 27/ 2/ 1928 .

كرهـتُ القـصورَ ، وقطانَهـا ، ومـا حولَهـا مـن صراع عنيـفْ
وكيـدِ الـضعيف لـسعي القـويِّ ، وعـصف القـويِّ بجَهـد الـضعيف
وجاشـت بنفـسي دمـوع الحيـاة ، وعجَّـتْ بقلبـي ريـاح الـصروف
لقلـب الفقـير الحطـيم ، الكـسير ودمـع الأيـامى الـسفيح الـذريف
ونَـوْح اليتـامى عـلى أمهـات ، تـوارَيْنَ خلـف ظـلام الحتـوف
فـسرْتُ إلى حيـث تـأوي أغـاني الربيـع ، وتـذوي أمـاني الخريـف
وحيـث الفـضاء شـاعرٌ ، حـالمٌ، ينـاجي الـسهول بـوحيٍ ، طريـف
وقـد دثَّرتـه غيـومُ المـساء بظـلٍّ ، حـزينٍ ، ضريـجٍ ، شـفيف
وبـين الغـصون التـي جرَّدتهـا ليـالي الخريـف ، القـويِّ العَـسُوف
وقَفْـتُ ، وحـوْلِي غـديرٌ ، مـواتٌ ، تمـادتْ بـه غَفَـواتُ الكهـول

قـضتْ في حفافيْـه تلـك الزُّهـور ، فكفّنهـا بالـصقيع الخريـف
سـوى زهـرةٍ شـقيتْ بالحيـاةِ ، ومَلْبَثِهـا بالمُقـام المخيـف
يروِّعهـا فيـه قـصفُ الرعـود ، ويحزنهـا فيـه نـدْبُ الزفيـف
وينْتابُهـا في الـصباح الـسديمُ ، وفي الليـلِ حلـمٌ ، مريـعٌ مخيـف
وتُرْهِبُهـا غاديـات الغـمام ، وتُؤْلمهـا كـلَّ ريـحٍ عـصوف
فتَرْنُـو لمـا حولهـا مـن زهـور ، ومـا ثـمَّ إلا الـسحيقُ ، الجفيـف
فتبكـي بكـاء الغريـب ، الوحيـدِ ، بِـشجْوٍ كظـيمٍ ، ونَـوْحٍ ضـعيف
تبـاكي بـه لُبِّهـا المـستطارَ ، وترثـي بـه مـا طوتْـه الحُتُـوف
وتـشكو أسـاها بيـاضَ النهـارِ ، وتنـدُبُ حـظَّ الحيـاة الـسخيف
ولكـنْ لقـد فقـدتْ في الوجـود رفيقـاً مُـصيخاً ، وقلبـاً رؤوف
فـما ثَـمَّ إلا الـصخورُ القـواسي ، وإلا الـصدى المـستطارُ الهتـوف
فجـادتْ بـروحٍ شـقيٍّ ، شـجيٍّ ، لقـد عذّبتـه الليـالي صـنوف
وماتـتْ ، وقـد غادرتْهـا بقـاعٍ مـن الأرض ضَـنْكٍ ، حيـاةُ الـصروف
فبانـتْ حيـالَ الغـدير الأصـمِّ ، وقـد أخـرس المـوتُ ذاك الحفيـف
وقـد خـضَّبتْها غيـومُ المـساء ، كغانيـة ضرَّجتهـا الـسيوف

فـسلْها : «تُـرى كيـف غـاض الأريـجُ ؟ — وكيـف ذَوَى سـحرُ ذاكَ الرفيـف؟»
«وكيـف خَبْـتَ بـسماتُ الحيـاة — بأجفانهـا ، وعراهـا الكـسوف ؟»
«وكيـف لَـوَتْ جيـدَها الحادثـاتُ — وألْـوَتْ بـذاك القـوام اللطيـف ؟»
ذكـرت بمـضجعها المطمـئنِّ — ومرقـدها في الـسَّفير الجفيـف
مـصارعَ أمـاليَ الغـابرات — وخيْبَتَهـا في الـصراع العنيـف
فقلّبـتُ طـرفي بمهْـوَى الزهـور — وصـعَّدته في الفـضاء الأسـيف
وقلـت: «هُـوَ الكـونُ مَهْـدُ الجـمال — ولكـنْ لكـل جمـالٍ خريـف! ... »
وأطرقـتُ ، أصـغي لهمـس الأسـى — وقـد غَـشِيَ الـنفسَ هـمٌّ كثيـف
وغاضـتْ ثُمالـةُ نـور النهـار — وأرْخـى ظـلامُ الوجـود الـسجوف

إغنية الشاعر

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 8/ 3/ 1928.

يــا ربَّــةَ الــشعرِ والأحــلام ، غنِّينــي ... فقد سئمتُ وجـومُ الكـونِ ، مـن حـين
إن الليــالي اللــواتي ضــمَّخت كبــدي ... بالــسِّحر أضحتْ مـع الأيـام ترمينـي
ناخــتْ بنفــسي مآسيها ، ومـا وجـدتْ ... قلبــاً عطوفــاً يُــسلِّيها ، فعزِّينــي
وهــدَّ مــن خلَــدي نَــوْحٌ ، ترجِّعــه ... بَلْــوَى الحيــاة ، وأحــزانُ المــساكين
عــلى الحيــاة أنــا أبكــي لــشقوتها ... فمــن إذا مــتُّ يبكيهــا ويبكينــي !
يــا ربــة الــشِّعرِ ، غنِّيني ، فقـد ضجرت ... نفــسي مــن النــاس أبنــاء الــشياطين
تبرّمــت ببنــي الــدنيا ، وأعوزهــا ... في معــزف الــدهر غرِّيــد الأرانــين
وراحــةُ الليْــلِ مــلأى مــن مدامعــه ... وغــادة الحــب ثكــلى ، لا تغنِّينــي
فهــل إذا لُــذْت بــالظلماء ، منتحبــاً ... أسلو ؟ ومـا نَفْـعُ محـزون لمحـزون؟
يــا ربــة الــشعر ! إني بــائسٌ ، تعــسٌ ... عــدِمتُ مــا أرتجــي في العــالم الــدون
وفي يــديْكِ مــزاميرٌ يخالجهــا ... وحــي الــسماء ؛ فهاتيهــا ، وغنينــي
ورتِّــلي حــوْلَ بيــت الحــزن أغنيــةً ... تجلُــو عــن الــنفس أحــوانَ الأحــايين
فــإن قلبــيَ قــبرٌ ، مظلــمٌ ، قُــبِرتْ ... فيــه الأمــاني ، فــما عــادت تنــاغيني
لــولاكِ في هــذه الــدنيا لمــا لمــستْ ... أوتــارَ روحــيَ أصــواتُ الأفــانين
ولا تغنَّيْــتُ مــأخوذاً ... ، ولا عــذُبتْ ... ليَ الحيــاةُ لــدى غــصن الريــاحين
ولا أصــخْتُ إلى الأصــداء ، راقــصة ... بــين الكهــوف ، عــلى عــزف الــشياطين
ولا ازدهــى الــنفسَ في أشجانها شــفقٌ ... يُلــوِّنُ الغــيْمَ لهــواً أيَّ تلــوين
ولا اســتخَفَّ حيــاتي ، وهــي هائمــةٌ ... فجْــرُ الهــوى في جُفــون الخُــرْدِ العــينِ

في فجاج الآلام

نظم الشاعر هذه القصيدة في غرة الشهر الرابع لعام 1928.

يـــا لابتـــسامة قلـــب ... مطلولـــــةٍ بدموعِـــــهْ

غاضـــــت ، فلـــم تبـــق إلاّ الـــدموع بـــين صـدوعِهْ
فظـــلَّ يهتـــف مـــن شـجوِهِ ، وفـــرْط ولُوعِـــهْ
«ويْــــح الحيــــاة ! أمــــا تنقــضي لـــديها الرزايــــا؟!»
«أمــــا يُكَفْكــــفُ هــــذا الزمــــانُ صــــوْبَ البلايــــا؟!»
«يــــا دهــــرُ ! رفقــــاً ! فــــإن القلــــوب أمــــست شــظايا»

* * *

يــــا قلــــب نهنــــهْ دمــــوعَ الأســــى ، ولوْعــــة رَوعِــــكْ
إن الــــدهور البــــواكي غنيَّــــةٌ عــــن دموعِــــكْ
حــــسْبُ الحيــــاة أســــاها فــــاطْوِ الأســــى في صــدوعِكْ
واحلــــم بفجــــر الليــــالي .. ، ففجرُهــــا في هجوعِــــكْ
وإن غفَــــوْتَ فــــإنَّ الحيــــاة ليــــست تروعــــكْ
وســــوف يمــــضي شــــتاء الأســــى ، ويــــأتي ربيعُــــكْ

* * *

بــــين القبــــور فتــــاةٌ جــــارَ الزمــــانُ عليْهــــا
فافْتــــكْ منهــــا بعنــــفٍ كــــفُّ الــــردى أبويْهــــا
تقــــول والليــــل ســــاجٍ والقــــبرُ مــــصغٍ إليْهــــا:
«يــــا ليتنــــي مــــتُّ مــــن قبــــل أن تــــسوءَ حيــــاتي»
«ويَنــــضبَ الــــدمع مــــن لــــوْعتي ، ومــــن حــــسراتي »
«مَــــنْ لي بُحفــــرة قــــبرٍ تــــضمُّني وشــــكاتي !»

* * *

في الحــــيِّ صــــبٌّ يعــــاني في الــــصدر داءً دفينــــاً
وفي الفــــؤاد جــــوًى كــــا منــــاً وحــــسَّاً مكينــــاً
حتــــى دهتْــــه الليــــالي وجرَّعَتْــــهُ مَنُونَــــهْ
فــــشيَّعَ الميْــــتَ جمــــعٌ مــــن حيِّــــه ، يندبونــــهْ

حتـــــى إذا مـــــا أرادوا رصْـــفَ الـــصفائح دونَـــهْ
ناحـــت عليـــه فتـــاة : «ويـــلي ، لمـــن تتركونـــه !»

* * *

كـــان الـــصبيُّ يـــصيد الفـــراش بـــين الزهـــور
فـــداسَ زَهـــراً نـــديًّاً ألقـــى بـــه في الغـــدير
فـــأخرجوه ، ولكـــن بعـــد القـــضاء الأخـــير ...
فخـــرّت الأم حـــول الـــصبيِّ ، تـــصرح : «ويـــلي !»
فقلـــت ، والقلـــب دامٍ والنـــاس يبكـــون حـــولي
«مـــا أســـخف العـــيش تقـــضي عليـــه زلَّـــةُ نَعْـــلِ »

* * *

شـــيْخٌ ، شـــاءَ دهـــر الأســـى ، وحيـــدٌ شـــتيتُ
بـــين الخرائـــب يُمـــسِي عـــلى الطَّـــوى ، ويبيـــتُ
في ظلمـــة الليـــل فاضـــت عـــلى الوجـــود حياتُـــهْ
وطرفُـــه يرمُـــق الـــنَّجمَ مِلْـــؤُه عبراتُـــهْ
ومـــا حواليْـــه إلاالخـــرابُ يُـــشجِي صُـــماتُهْ
فـــما بكـــاه فتـــاه ولا بكتْـــه فتاتُـــهْ

* * *

يـــا زهـــرةً ســـاَمَها العـــابرون خـــسفاً وهُونـــا !
لـــو كنـــتِ شـــوكاً عَـــضوضاً مـــا داســـكِ العابرونـــا
لأنهـــم يجهلـــون الـــوحيَ الـــذي تُـــضْمرينا
هـــم يـــسخرون بهمـــس الزهـــور ، وهـــو بـــديعُ !
ويُنـــصتون لـــصوت الأشـــواك ، وهـــو مُريـــعُ !
فـــلا تبـــالي بقـــوم الحـــق فـــيهم صريـــعُ

* * *

ربَّـــاه ! كـــم مـــن فتـــاة ، تـــشكو الحيـــاة وتبكـــي

ومُعْــــدمٍ ، بَوَّأتْـــــهُ الـــــدُّهورُ مقعــــــدَ ضـــــنْكٍ
ويـــــائسٍ مـــــاتَ في لُبِّـــــه المَـــــرام الوحيـــــدُ
وتائـــــه ، ضـــــاع بـــــين القفـــــار ، وهـــــو فريـــــدُ
حتـــــى طوتـــــه مـــــن العاصـــــفاتِ ريـــــحٌ شَرُودُ
ربَّـــــاه ! رُحمـــــاكَ إن الزَّمـــــان فـــــظٌّ شـــــديدُ

* * *

يـــــا طـــــائر الـــــشعر ! رَوِّحْ عـــــلى الحيـــــاة الكئيبَـــــهْ
وامـــــسحْ بريـــــشكَ دمْـــــعَ القلـــــوب فهـــــي غريبَـــــهْ
وعزِّهـــــا عـــــن أســـــاها فقـــــد دهتهـــــا المـــــصيبه
وأنـــــتَ روحٌ جميـــــل ، بـــــين الهـــــضاب الجديبـــــهْ
فـــــانفخْ بهـــــا مـــــن لهيـــــب الـــــسماء رُوحـــــاً خـــــصيبهْ
وابعـــــث بـــــسحركَ في قلبهـــــا ضرامَ الـــــشبيبهْ

مناجاة عصفور

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 16/ 7/ 1928.

يـــا أيهـــا الـــشادي المغـــرِّد هاهنـــا | ثَمِـــلاً بغبطـــة قلبـــه المـــسرور
متـــنقِّلاً بـــين الخمائـــل ، تاليـــاً | وحْـــيَ الربيـــع الـــساحر المـــسحور
غـــرِّدْ ، ففـــي تلـــك الـــسهول زنـــابقٌ | ترنـــو إليـــك بنـــاظرٍ منظـــور
غـــرِّدْ ، ففـــي قلبـــي إليـــك مـــودَّةٌ | لكـــن مـــودَّة طـــائرٍ مأســـور
هجرتـــه أسراب الحمائـــمِ ، وانـــبرَتْ | لعذابـــه جنِّيـــةُ الـــديجور ...
غـــرِّدْ ، ولا ترهـــبْ يمينـــي ، إننـــي | مثـــل الطيـــور بمهجتـــي وضـــميري
لكـــن لقـــد هـــاض الـــتراب ملامحـــي | فلبثـــتُ مثـــل البلبـــل المكـــسور
أشـــدُو برنّـــاتِ النياحـــة والأســـى | مـــشبوبةً بعـــواطفي وشـــعوري

غــرِّدْ ، ولا تحفــل بقلبــي ، إنــه … كــالمعزف ، المــتحطِّم ، المهجــور

* * *

رتِّــلْ عــلى ســمع الربيــع نــشيدَهُ … واصــدحْ بفــيْضِ فــؤادك المــسجور
وانــشد أناشــيد الجــمال ، فإنهــا … روحُ الوجــود ، وســلوة المقهــور
أنــا طــائر ، متغــرِّدٌ ، مــترنِّمٌ … لكــن بــصوت كــآبتي وزفــيري
يهتــاجني صــوتُ الطيــور ، لأنّــه … مُتَــدَفِّقٌ بحــرارة وطَهــور
مــا في وجــود النــاس مــن شيء بــه … يَــرْضَى فــؤادي أو يُــسِرُّ ضــميري
فــإذا اســتمعتُ حــديثَهم ألفَيْتُــهُ … غثــاً ، يفــيض بِركّــةٍ وفتــور
وإذا حــضرتُ جمــوعَهم ألْفَيْتَنــي … مــا بيــنهم كالبلبــل المأســور
متوحِّــداً بعــواطفي ، ومــشاعري ، … وخــواطري ، وكــآبتي ، وسروري
يَنْتَــابُني حَــرَجُ الحيــاة كــأنني … مِــنهم بوهــدة جنــدل وصــخور
فــإذا ســكتُّ تــضجَّروا ، وإذا نطقــت … تــذمَّروا مــن فكــرتي وشــعوري
آهٍ مــن النــاس الــذين بلَــوْتُهم … فقلــوْتهم في وحــشتي وحبــوري !
مــا مــنهم إلا خبيــث غــادر … مــتربِّص بالنــاس شَرَّ مــصير
ويــودُّ لــو ملــك الوجــودَ بــأسره … ورمــى الــورى في جــاحم مــسجور
ليُبــلَّ غلّتــه التــي لا ترتــوي … ويكــضّ تهمــة قلبــه المغفــور
وإذا دخلــتُ إلى الــبلاد فــإنّ أفكــا … ري ترفــرف في ســفوح الطُّــور
حيــث الطبيعــة حلــوة فتّانَــةٌ … تختــال بــين تــبرُّج وســفور
مــاذا أودُّ مــن المدينــة ، وهــي غارقــةٌ … بمــوَّار الــدَّم المهــدور !
مــاذا أودُّ مــن المدينــة ، وهــي لا … ترثــي لــصوت تفجُّــع الموتــور ؟
مــاذا أودُّ مــن المدينــة ، وهــي لا … تَعْنــو لغــير الظــالم الــشِّرير ؟
مــاذا أود مــن المدينــة ، وهــي مُرْتــادٌ … لكــل دعــارة وفجــور ؟

* * *

يــا أيهــا الــشادي المغــرِّد هاهنــا … ثمِــلاً بغبطــة قلبــه المــسرور !

قَبِّلْ أزاهـير الربيـع ، وغنِّهـا رنَـمَ الـصباح الـضاحك المحبـور
واشرب مـن النَّبـع ، الجميـل ، الملتـوي مـا بـيـن دَوْحِ صنـوبر وغـدير
واتـركْ دمـوع الفجـر في أوراقهـا حتـى تُرشِّـفها عـروسُ النـور
فلـربما كانـت أنينـاً صـاعداً في الليـل مـن متوجـع ، مقهـور
ذرفتـه أجْفـان الـصباح مـدامعاً ألأَقـة ، في دوحـة وزهـور ...

يا رفيقي

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 16/ 7/ 1928.

يـا رفيقـي ! وأيـن أنـتَ ؟ فقـد أعمـت جفـوني عواصـف الأيـام
ورمتْنـي بمهمـهٍ ، قـاتمٍ ، قفـرٍ ، تُغَـشيه داجيـاتُ الغـمامْ ..
خُـذْ بكفِّـي ، وغنِّنـي ، يـا رفيقـي ، فـسبيل الحيـاة وعـرٌ أمـامي
كلَّـما سِرْتُ زلَّ بي فيـه مهـوى ، تتـضاغى بـه وحـوشُ الحِـمام
شـعَّبتْه الـدهور ، وانطمـسَ النُّـور ، وقامـتْ بـه بنـات الظـلام
راقـصاتٍ ، يُخْلِبْنَ في حلَـكِ الليـل ، ويلعـبن بـالقلوب الـدوامي
غنِّنـي ، فالغِنـاءُ يَـدْرأ عنَّـا الـساحِرَ الجـن ... ، سـاكنَ الآجـام ..

* * *

قـد تفكـرتُ في الوجـود ، فأعيـاني ، وأدبـرتُ آيِـساً لظلامـي
أنـشدُ الرَّاحَـةَ البعيـدةَ ، لكـن خـاب ظنّـي وأخطـأت أحلامـي
فمعـي في جـوانحي أبَـدَ الـدهر فـؤادٌ إلى الحقيقـة ظـامي
مـا تراخـى الزَّمـانُ إلاّ وألقـى في طوايـاه قَبْضَةً مـن ضَرام
تتلظَّـى ، يـدَ الحيـاة ، وزادتْ مُعـضلاتُ الـدُّهور والأعـوام
أظمـأتْ مهجتـي الحيـاةُ ، فهـل يومـاً تبُـلَّ الحيـاة بعـض أوامـي ؟
يـا رفيقـي ! مـا أحـسِبُ المنبـعَ المنشودَ إلا وراءَ ليْـلِ الرِّجـام
غنِّنـي ، يـا أخـيَّ ، فـالكوْنُ تَيْهـاءُ ، بهـا قـد تمزَّقـت أقدامي

غنِّني ، علِّني أُنِيمُ همومي ، إنَّني قد مللت من تهيامي

* * *

يا رفيقي ! أما تفكَّرْتَ في الناس ، وما يحملون من آلام ؟
فلقدْ حزَّ في فؤاديَ ما يَلْقَوْن من صولة الأسى الظلام
فإذا سرَّني من الفجر نُورٌ ساءني ما يُسِرُّ قلبُ الظَّلام
كم بقلب الظلام من أنَّةٍ تهفو بغُصَّات صِبْيَةٍ أيتام
ونشيجٍ مُضَرَّمٍ من فتاةٍ ، أبهظتْها قوارعُ الأيام
ونُواحٍ يفيضُ من قلب أمٍّ فُجعتْ في وحيدها البسام ،
فَطَمَ الموتُ طفلَها، وهو نورٌ في دجاها ، من قبل عهد الفطام
وأنينٍ من معدم ، ذي سقام ، عضَّهُ الدهر بالخطوب الجِسام
ما إخال النُّجوم إلاَّ دموعاً ، ذَرَفَتْها محاجر الأعوام
فلقد ضرَّم الشجونَ بنوها ، فإذا بالشُّجون سيلٌ طام
وإذا بالحياة في ملعب الدهر تدوس الرؤوس بالأقدام
وإذا الكون فلذةٌ من جحيمٍ تتغذى ، بكل قلبٍ دام
وهُمُ في جحيمهمْ يتناغَوْن بما في الوجود من أنغام !
عجباً للنفوس ، وهي بواكٍ ، عجباً للقلوب ، وهي دوام
كيف تشدو وفي محاجرها الدمع ، وتلهو ما بينَ سُودِ المَوامي ؟!

* * *

يا رفيقي ! لقد ضللتُ طريقي ، وتخطَّت مَحَجَّتِي أقدامي
خذ بكفي ، فإنني تائهٌ ، أعمى ، كثير الضلال والأوهام
وانفخ النّايَ ، فالحياة ظلامٌ ، ما لمرتاده من الهول حام
مِلءُ آفاقه فحيحُ الأفاعي ، وعجيجُ الآثام والآلام
فانفخ النَّايَ ، إنه هبَةُ الأملاك للمستعيذ بالإلهام
واغذُذِ السَّيْرَ ، فالنهارُ بعيدٌ ، وسبيلُ الحياة جمُّ الظلام ...

إلى الموت

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 12/ 8/ 1928.

صبيَّ الحياة ، الشقيّ العنيدْ   ألا قد ضللتَ الضلال البعيدْ !
أتُنشدُ صوتَ الحياة الرخيمَ ،   وأنت سجينٌ بهذا الوجودْ ؟!
وتطلب وَرْدَ الصباح المخضَّب من كف حقلٍ ، جديبٍ ، حصيدْ ؟!
إلى الموت ! إنْ شئتَ هَوْنَ الحياة ، فخلف ظلام الردى ما تريد ..

* * *

إلى الموت يا ابن الحياة التعيسَ ، ففي الموت صوتُ الحياة الرخيم
إلى الموت ؟ إن عذّبتكَ الدهور ، ففي الموت قلبُ الدهور الرحيم
إلى الموت ! فالموت رُوحٌ جميل ، يرفرف من فوق تلك الغيوم
فَروحاً بفجر الخلود البهيج ، وما حوله من بنات النجوم ....

* * *

إلى الموت ! فالموت جامٌ رويٌّ لمن أظمأته سَمُومُ الفلاة
ولستَ براوٍ - إذا ما ظمئتَ - من المنبع العذب قبل الممات
فما الدمع إلا شراب الدهور ، وما الحزن إلا غذاءُ الحياة
إلى لموت ! فالموت مَهْدٌ وثير ، تنام بأحضانه الكائنات

* * *

إلى الموت ! إن حاصرتكَ الخطوبُ ، وسدَّتْ عليكَ سبيل السلامْ
ففي عالم الموت تنضو الحياةُ رداءَ الأسى ، وقناعَ الظلام
وتبدو ، كما خُلِقَتْ غضَّةً يفيض على وجهها الابتسام
تعيدُ عليها ظِلال الخلود ، وتهفو عليها قلوبُ الأنام

* * *

إلى الموت ! لا تخشى أعماقه ففيها ضياء السماء الوديع
وفيها تميس عذارى السماء ، عواريَ ، ينشدن لحناً بديع ...

وفي راحهنَّ غصونُ النخيل يحرِّكْنها في فضاءٍ يضوع ...
تضيء به بسمات القلوب ، وتخبو به حسرات الدموع

* * *

هو الموت طيفُ الخلودِ الجميلُ ، ونصف الحياة الذي لا ينوحْ
هنالكَ ... خلف الفضاء البعيد ، يعيش المنونُ القويُّ الصَّبُوحْ
يضمُّ القلوب إلى صدره ، ليأسوَ ما مضَّها من جروح
ويبعثَ فيها ربيعَ الحياة ، ويبهجَها بالصباح الفَروح

إلى عازف أعمى

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 18/ 8/ 1928.

أدركتَ فجر الحياة أعمى … وكنتَ لا تعرف الظلامْ
فأطبقت حولك الدَّياجي … وغام من فوقك الغمام
وعشتَ في وحشة ، تقاسي … خواطراً ، كلها ضرام
وغربةٍ ، ما بها رفيق … وظلمةٍ ، ما لها ختام
تشقُّ تِيهَ الوجودِ فرداً … قد عضَّك الفقر والسقام
وطاردت نفسك المآسي … وفرَّ من قلبك السلام

* * *

هوِّن على قلبك المعنَّى … إن كنت لا تبصر النجومْ
ولا ترى الغابَ ، وهو يلغو … وفوقه تخطر الغيوم
ولا ترى الجدول المغنِّي … وحوله يرقص الغيم
وكلّنا بائس ، جدير … برأفة الخالق العظيم
وكلّنا في الحياة أعمى … يسوقه زعزعٌ عقيم
وحوله تزعق المنايا … كأنها جِنَّة الجحيم :

* * *

يـا صـاح ! إن الحيـاة قفـرٌ ... مـروّع ، مـاؤه سراب
لا يجتنـي الطَّـرْفُ منـه إلاّ ... عواطـفَ الـشوك والـتراب
وأسـعد النـاس فيـه أعمـى ... لا يبـصر الهـول والمـصاب
ولا يـرى أنفـسَ البرايـا ... تـذوب في وقْـدة العـذاب
فاحمـد إلـه الحيـاة ، واقنـعْ ... فيهـا بألحانـكَ العِـذاب
وعِـشْ ، كـما شـاءت الليـالي ... مـن آهـة النَّـاي والرَّبـاب

صوت تائه

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 20/ 8/ 1928

قـضَّيتُ أدوارَ الحيـاة ، مفكِّـراً ... في الكائنـات ، معـذَّباً ، مهمومـا
فوجـدتُ أعـراسَ الوجـود مـآتماً ... ووجـدت فـردوسَ الزمـان جحيما
تـدوي مخارمـه بـضجَّة صرصرٍ ، ... مـشبوبة ، تَـذَرُ الجبـال هـشيما
وحـضرتُ مائـدةَ الحيـاة فلـم أجـد ... إلاّ شرابـاً ، آجنـاً ، مـسموما
ونفـضتُ أعـماق الفـضاء ، فلـم أجـد ... إلا سـكوناً ، مُتْعَبـاً محمومـا
تتبخَّـرُ الأعـمار في جَنَبَاتِـه ... وتمـوتُ أشـواقُ النفـوس وُجومـا
ولمـست أوتـار الـدهور ، فلـم تُفِـضْ ... إلاّ أنينـاً ، داميـاً ، مكلومـا
يتلـو أقاصـيص التعاسـة والأسـى ... ويـصيرُ أفـراح الحيـاة همومـا

* * *

شُرِّدْتُ عـن وطنـي الـسماويِّ الـذي ... مـا كـان يومـاً واجمـاً ، مغمومـا
شرِّدْتُ عـن وطنـي الجميـل ... ، أنـا الـشقيّ ، فعـشت مـشطورَ الفـؤاد ، يتـيما ...
في غُربـةٍ ، روحيَّـةٍ ، ملعونـةٍ ... أشـواقُها تقـضي ، عِطاشـاً ، هِـيما ...
يـا غربـةَ الـرُّوحِ المفكِّـرِ ! إنـه ... في النـاس يحيـا ، سـائماً ، مـسئوما
شُرِّدتُ للـدنيا .. ، وكـلّ تائـهٌ ... فيهـا يُـروَّعُ راحـلاً ومقـيما
يدعو الحيـاة ، فـلا يُجيبُ سوى الـرَّدى ... ليدُسَّـه تحـت الـتراب رمـيما

وتظلُّ سائرةً، كأنَّ فقيدها   ما كان يوماً صاحباً وحميما!

* * *

يا أيُّها الساري! لقد طال السُّرى   حتّامَ ترقب في الظلام نجوما..؟
أتخالُ في الوادي البعيدِ المُرْتَجَى؟   هيهات! لن تلقى هناك مَرُوما
سِرْ ما استطعت، فسوف تُلْفِي - مثلما   خلّفتَ - تَمْشوقَ الغصون حطيما

قبضة من ضباب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 20/ 10/ 1928.

مهما تأملت الحياة، وجبت مجهلها الرهيب
ونظرت حولي، لم أجد إلا شكوك المستريب
حتى دَهِشتُ، وما أفدت بدهشتي رأياً مصيب
لكنني أجهدتُّ نفسي، وهي بادية اللَّغوب
ودفعتها وهي الهزيلةُ في مغالبة الكروب
في مَهْمَهٍ متقلِّب، تُخشى غوائله، جديب
فإذا أصابت من مناهله شراباً تستطيب
أروتْ جوانحها وذلك حسبُها كَيْمَا تؤوب
ومَن ارتوى في هذه الدنيا تسنَّمها خطيب؟
أولا فقد ركبت من الأيام مركبها العصيب
رقضت كما شاء الخلود، وفي جوانحها اللهيب!

في ظلال الغاب

أو: نشيد الأسى

نظمها الشاعر بتاريخ 28/ 10/ 1928.

يا ليتَ شعري! هل لليل النفسِ من صبحٍ قريبْ..

فتفـــرُّ عاصـــفةُ الظـــلام .. وتهجـــع الـــريح الغـــضوبْ ..
ويرتّـــلُ الإنـــسانُ أغنيـــةً مـــع الـــدنيا طـــروبْ ..؟!

* * *

مـــا للريـــاح تهـــبُّ في الـــدنيا ، ويـــدركُها اللغـــوبْ
إلا ريـــاحي ، فهـــيَ جامحـــةٌ تمرُّدُهـــا عـــصيبْ ؟
مـــا لي تعـــذِّبُني الحيـــاةُ كـــأنّني خلـــقٌ غريـــبْ ؟
وتهـــدُّ مـــنْ قلبـــي الجميـــلِ ، فهـــلْ لقلبـــي مـــن ذنـــوبْ ؟
وإذا ســـألتُ : لمَ الوجـــودُ ، وكلُّـــه هـــمٌّ مـــذيبْ ؟
قالـــتْ : «نـــواميسُ الـــسماءِ قـــضتْ ومـــا لَـــكَ مـــن هـــروبْ»
آهٍ عـــلى قلبـــي ! وإن شـــقيتْ كـــشقوتِهِ قلـــوبْ
أنقـــى مـــن المـــوجِ الـــوضيءِ ... ومـــن نـــشيدِ العنـــدليبْ
لم تقـــترفْ إثـــمَ الحيـــاةِ وكـــان مأواهـــا اللهيـــب

* * *

يـــا مهجـــةَ الغـــابِ الجميـــلِ   ألم يـــصدِّعْكِ النحيـــبْ ؟
يـــا وجنـــةَ الـــوردِ الأنيـــقِ   ألمْ تـــشوِّهْك النُّـــدوبْ ؟
يـــا جـــدولَ الـــوادي الطـــروبِ   ألمْ يرنِّقْـــك القطـــوبْ ؟
يـــا غيمـــةَ الأفـــق الخـــضيبِ   ألمْ تمزِّقْـــك الخطـــوبْ ؟
يـــا كوكـــبَ الـــشفَقِ الـــضحوكِ   أمـــا ألمَّ بـــك الـــشحوبْ ؟
هـــا أنـــتَ ذا في الأفـــق تـــضحك لا تهـــمُّ ولا تَخيـــبْ !
تُلقـــي عـــلى قُـــنَنِ الجبـــال رداءَ لألاءٍ قـــشيب
لتنـــام أوراد الجبـــال الـــشمِّ ، في مهـــد عجيـــب
ولكـــي تغنِّيـــك الجـــداولُ لحنَهـــا العـــذبَ الحبيـــبْ
وتـــرى جمالَـــكَ مـــن بنـــاتِ الغـــابِ معطـــارٌ لعـــوبْ
معـــشوقة في فرعهـــا تـــاجٌ مـــن الـــوردِ الخـــضيبْ
تتلـــو أناشـــيدَ الربيـــع كأنهـــا نجـــوى القلـــوبْ

يا كوكبَ الشفقِ الجميلِ ! وأنتَ مبتهلُ الكئيبْ
لُجْ في السماء ... وغنِّ أبناءَ الشقاوةِ والخطوبْ
أنشودة تهَبُ العزاء لكلِّ مبتئسٍ غريبْ
فالطيرُ قد أغفتْ وأسكت صوتَها الليلُ الهيوبْ
وابسط جناحَكَ في الوجودِ ... فإنّه عذبٌ خلوبْ
متألقٌ بينَ النجومِ كأنّه حلمٌ طروبْ
وانشر ضياءَكَ ساطعاً لينيرَ أعماقَ القلوبْ
فعلى جوانبِها من الأحزانِ ديجورٌ رهيبْ

* * *

ما للمياهِ نقيّة حولي ، وينبوعي مشوبْ ؟
ما للصباحِ يعودُ للدنيا ، وصبحي لا يؤوبْ ؟
ما لي يَضيق بيَ الوجودُ ، وكلُّ ما حولي رحيبْ ؟
ما لي وجمتُ ، وكلّ ما في الغابِ مغتردٌ طروبْ ؟
ما لي شقيتُ ، وكلُّ ما في الكونِ أخّاذٌ عجيب ؟
في الأرض أقدامَ الربيعِ تُلامسُ السهلَ الجديب
فإذا بهِ يحيا ويُنبتُ رائقَ الزهرِ الرطيبْ
وهناك أنوار النهار تطلُّ من خلف الغروب
فتخضب الأمواج والآفاق ، والجبل الخصيب
إن الوجودَ الرحبَ والغاباتِ والأفقَ الخضيبْ
لم تخبُ أشواق الحياةِ بها ، فغادرها القطوبْ
أمّا أنا ففقدتها والليلُ مُرَبَّدٌ عصيبْ
والريحُ تعصِفُ بالورودِ فعشتُ سخريةَ الخطوبْ

* * *

مهما تضاحكتِ الحياةُ فإنّني أبداً كئيبْ
أصغي لأوجاعِ الكآبةِ ... والكآبةُ لا تُجيبْ

في مهجتـــــــي تتـــــأوَّهُ البلــــــوى ويعــــــتلجُ النحيــــــبْ
ويـــــضجُّ جبــــارُ الأســـــى وتجـــيش أمـــواج الكـــروبْ
إني أنـــــا الـــــروحُ الـــــذي ســـيظلّ في الـــدنيا غريـــبْ
ويعـــــيشُ مـــــضطلعاً بـــــأحزانِ الـــــشبيبةِ والمـــــشيبْ

قلت للشعر

او: مناجاة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 28/ 10/ 1928

أنــت يــا شــعر ، فلــذة مــن فــؤادي | تتغنَّــــى ، وقطعــــةٌ مــــن وجــــودي
فيــك مــا في جــوانحي مــن حَنــينٍ | أبـــديٍّ إلى صـــميم الوجـــود
فيــك مــا في خــواطري مــن بكــاء | فيــك مــا في عــواطفي مــن نــشيد
فيــك مــا في مــشاعري مــن وُجــومٍ | لا يغنـــي ، ومـــن سرور عهيـــد
فيــك مــا في عــوالمي مــن ظــلامٍ | سرمـــدي ، ومـــن صـــباحٍ وليـــد
فيــك مــا في عــوالمي مــن نجــوم | ضــاحكات خلــف الغَــمام الــشرود
فيــك مــا في عــوالمي مــن ضــباب | وسراب ، ويقظـــــة ، وهجـــــود
فيــك مــا في طفــولتي مــن ســلامٍ ، | وابتـــسامٍ ، وغبطـــةٍ ، وســـعود
فيــك مــا في شــبيبتي مــن حنــينٍ ، | وشـــجون ، وبهجـــة ، وجمـــود
فيــك - إن عــانق الربيــع فــؤادي - | تتثنَّـــــى ســـــنابلي وورودي
ويغنِّـــي الـــصباحُ أنـــشودة الحـــب ، | عـــلى مـــسمع الـــشباب الـــسعيد
ثـــم أجنـــي في صـــيْف أحلامـــيَ | الـــساحر مـــا لـــذَّ مـــن ثـــمار الخلـــود
فيــك يبــدو خريــف نفــسي مَلــولاً ، | شـــاحبَ اللـــون ، عـــاريَ الأملـــود
جلّلتْـــه الحيـــاةُ بـــالحَزَن الـــدَّا | مـــي وغـــشته بـــالغيوم الـــسود
فيــك يمــشي شــتاءُ أَيّــاميَ البــا | كـــي ، وتُرغـــي صـــواعقي ورعـــودي
وتجــفُّ الزهــور في قلبــيَ الــدا | جـــي ، وتهـــوي إلى قـــرار بعيـــد ...

أنت يا شعر قصة عن حياتي · أنت يا شعر صورة من وجودي
أنت يا شعر - إن فرحتُ - أغاريدي · - وإن غنَّت الكآبة - عودي
أنت يا شعر كأسُ خمرٍ عجيبٍ · أتلَّهى به خلال اللحود ..!
أتحسَّاه في الصباح ، لأنسى · ما تقضَّى في أمسيَ المفقود
وأناجيه في المساء ، ليلهيني · مَرْآءُ عن ظلام الوجود
أنا لولاك لم أطق عَنَتَ الدَّهر ، · ولا فُرْقة الصباح السعيد
أنت ما نِلْتُ من كهوف الليالي · وتصفَّحتُ من كتاب الخلود
فيك ما في الوجود من حَلكٍ ، دا · جٍ ، وما فيه من ضياء ، بعيد
فيك ما في الوجود من نَغَمٍ ، · حلوٍ ، وما فيه من ضجيج ، شديد
فيك ما في الوجود من جبل ، وغْرٍ ، وما فيه من حضيضٍ ، وهِيد
فيك ما في الوجود من حسكٍ ، يُدْمِي ، وما فيه من غضيضِ الورود
فيك ما في الوجود ... ، حَبَّ بنو الأرض قصيدي ، أم لم يُحِبُّوا قصيدي
فسواءٌ على الطيور - إذا غنّتْ - هُتافُ السَّؤوم والمستعيد
وسواء على النجوم - إذا لاحت - سكونُ الدجى وقصفُ الرعود
وسواء على النسيم أفي القفر تَغَنّى ، أمْ بين غضِّ الورود
وسواء على الورود ، أفي الغيران فاحتْ ، أم بين نهدٍ وجيد

قصائد عام 1929

وعددها ست قصائد:

- يا ابن أمي.
- إلى قلبي التائه.
- يا موت.
- أغاني التائه.
- أكثرت يا قلبي فماذا تروم؟
- إلى الله.

يا ابن امي

نظم الشاعر قصيدته هذه بتاريخ 20/ 2/ 1929.

خُلِقْـتَ طليقـاً كـطيفِ النسيم وحـراً كنـورِ الـضحى في سماهْ
تغـرد كـالطير أيـن انـدفعتَ وتـشدو بـما شـاءَ وحـيُ الإلـهْ
وتمـرحُ بـين ورود ... الـصباح وتـنعمُ بـالنورِ أنّـى ... تـراهْ
وتمـشي كـما شـئتَ بـينَ المـروجِ وتقطـفُ وردَ الربـى في رُبـاهْ

* * *

كـذا صـاغك الله يـا ابـن الوجـودِ وألقتـك في الكـون هـذي الحيـاه
فـما لـكَ تـرضى بـذلِّ ... القيـودِ وتحنـي لمـن كبّلـوكَ الجبـاهْ ؟!
وتُـسكتُ في الـنفسِ صـوت الحيـاة القـويِّ إذا مـا تغنَّـى صـداه
وتُطبـق أجفانـك النـيرات ... عـن الفجـرِ والفجـرُ عـذبٌ ضياهْ
وتقنـعُ بـالعيشِ بـين الكهـوفِ فـأينَ النـشيدُ ؟ وأيـن الأيـاه ؟
أتخـشى نـشيدَ الـسماء الجميـل ؟ أترهـب نـور الـسما في ضحـاه
ألا انهـض وسرْ في سـبيلِ الحيـاة فمـن نـام لم تنتظـرْه الحيـاهْ !!
ولا تخـشَ ممـا وراء القـلاع فـما ثـمَّ إلا الـضحى في صـباه
وإلا ربيـعُ الوجـودِ الغريـر .. ، يُطـرِّزُ بـالورد ضـافي رِداه !
وإلا أريـجُ زهـورِ الـصباح ورقـص الأشـعّة بـينَ المِيـاه !!
وإلا حمـامُ المـروجِ الأنيـقِ يُغـرِّد منطلقـاً في غنـاه !
إلى النـور فـالنور عـذب جميـل إلى النـور فـالنور ظـلّ الإلـه !

اغاني التائه

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 27/ 3/ 1929.

كـانَ في قلبـيَ فجـرٌ ونجـومْ وبحـارٌ لا تُغـشّيها الغيـومْ

وأناشـــيد وأطيـــارٌ تحـــومْ ... وربيـــعٌ مـــشرقٌ حلـــوٌ جميـــلْ
كـــانَ في قلبـــي صـــباحٌ وإيـــاهْ ... وابتـــسامات ولكـــن واأســـاهْ !
آه مـــا أهـــول إعـــصار الحيـــاه ... آه مـــا أشـــقى قلـــوب النـــاس آه !

كـــان في قلبـــيَ فجـــرٌ ونجـــومْ
فـــإذا الكـــلُّ ظـــلامٌ وســـديمْ
كـــانَ في قلبـــيَ فجـــرٌ ونجـــومْ

يـــا ابـــن أمِّـي ! أتـــرى أيـــن الـــصباحْ ؟ ... قـــد تقـــضَّى العمـــرُ والفجـــرُ بعيـــدْ
وطغـــى الـــوادي بمـــشبوبِ النـــواحْ ... وانقـــضت أنـــشودةُ الفـــصلِ الـــسعيدْ
أيـــنَ نـــايي ؟ هـــل ترامتـــه الريـــاح ؟ ... أيـــن غـــابي ، أيـــنَ محـــراب الـــسجودْ ؟
خـــبروا قلبـــي فـــما أقـــسى الجـــراح ... كيـــف طـــارت نـــشوةُ العـــيشِ الحميـــدْ ؟

يـــا ابـــنَ أمـــي ! تـــرى أيـــن الـــصباحْ .. ؟
أوراءَ البحـــرِ ؟ أم خلـــفَ الوجـــودْ .. ؟
يـــا ابـــنَ أمـــي ! تـــرى أيـــن الـــصباحْ .. ؟

ليـــت شـــعري هـــل ستـــسليني الغـــداة ... وتعزينـــي عـــن الأمـــسِ الفقيـــدْ
وترينـــي أن أفـــراحَ الحيـــاة ... زمـــرٌ تمـــضي وأفـــواجٌ تعـــودْ
فـــإذا قلبـــي صـــباحٌ وإيـــاه ... وإذا أحلامـــيَ الأولى ورودْ
وإذا الـــشحرور حلـــوُ الـــنغماتْ ... وإذا الغـــابُ ضـــياءٌ ونـــشيدْ ؟

ليـــتَ شـــعري هـــل ستـــسليني الغـــداة ؟
أم ستنـــساني وتبقينـــي وحيـــدْ ؟
ليـــتَ شـــعري هـــل تعزينـــي الغـــداة ؟

إلى قلبي التائه

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 20/ 4/ 1929.

مـــا لآفاقـــك يـــا قلبـــيَ ســـوداً ، حالكـــات ؟

ولأورادكَ بـــين الـــشوك صـــفراً ، ذاويـــات ؟
ولأطيـــارك لا تلغـــو ؟ فـــأين الـــنغمات ؟
مـــا لمزمـــارك لا يـــشدو بغـــير الـــشهقات ؟
ولأوتـــارك لا تخفـــق إلا شـــاكيات
ولأنغامـــك لا تنطـــق إلا باكيـــات
ولقـــد كانـــت صـــباحَ الأمـــس بـــين النـــسمات
كعـــذارى الغـــاب ، لا تعـــرف غـــير البـــسمات ؟
هـــو ذا يـــا قلبـــيَ البحـــر ، وأمـــواج الحيـــاة !
هـــو ذا القـــارب مـــشدوداً إلى تلـــك الـــصفاة !
هـــو ذا الـــشاطئ ! لكـــن أيـــن رُبَّانُـــكَ ؟ مـــات !
أيـــن أحلامـــك يـــا قلبـــي ؟ لقـــد فـــات الفـــوات !
تلـــك أطيـــارٌ ، أنيقـــاتٌ ، طـــرابٌ ، فرحـــات
غـــرّدتْ ، ثـــم تـــوارتْ في غيابـــات الحيـــاة

* * *

أنـــت يـــا قلبـــيَ قلـــبٌ ، أنـــضجته الزفـــرات
أنـــت يـــا قلبـــيَ عـــشٌّ ، نفـــرت عنـــه القطـــاة
فأطارتـــه إلى النهـــر الريـــاحُ العاتيـــات
فهـــو في التيَّـــار أوراق ، وأعـــواد عـــراة
أنـــت حقـــلٌ ، مُجْـــدبٌ ، قـــد هزئـــت منـــه الرعـــاة
أنـــت ليـــلٌ ، مُعْـــتِمٌ ، تنـــدب فيـــه الباكيـــات
أنـــت كهـــف ، مظلـــم ، تـــأوي إليـــه البائـــسات
أنـــت صَرْحٌ ، شـــاده الحـــب عـــلى نهـــر الحيـــاة
لبنـــات الـــشعر .. ، لكـــن قوَّضـــته الحادثـــات
أنـــت قـــبرٌ ، فيـــه مـــن أيـــامِيَ الأولى رفـــات
أنـــت عـــودٌ ، مزّقـــتْ أوتـــارَه كـــفُّ الحيـــاة

فهـــو في وحـــشته الخرســـاء ، بـــين الكائنـــات
صـــامتٌ كـــالقبر ، إلا مـــن أنـــينِ الـــذكريات
أنـــت لَحْـــنٌ ســـاحرٌ ، يخـــبط في التّيـــهِ المَـــوَات
أنـــت أنـــشودةُ فَجْـــرٍ .. ، رتَّلَتْهـــا الظلـــمات ..

* * *

أيهـــا الـــساري مـــع الظلمـــة ، في غـــير أنـــاة
مُطرِقـــاً ، يخـــبطُ في الـــصحراء ، مكبـــوحَ الـــشكاة
تُهْـــتَ في الـــدنيا ، ومـــا أُبْـــتَ بغـــير الحـــسرات
صـــلِّ يـــا قلبـــي إلى الله ، فـــإن المـــوت آت
صـــلِّ فالنّـــازعُ لا تبقَـــى لـــه غـــير الـــصلاة

أكثرت يا قلبي فماذا تروم ؟

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 20/ 7/ 1929، والقصيدة مليئة بعبارات الشكوى وهو يتحرى الخلاص دون العثور عليه.

يـــا قلبـــيَ الـــدامي ! إلامَ الوجـــومْ ؟
يكفيـــك ! إن الحـــزن فـــظّ ، غـــشوم
هـــذي كـــؤوسي مُـــرَّةٌ ، كـــالردى
مـــا مِلْؤُهـــا إلا عـــصير الهمـــوم
وذاك نـــايي صـــامتٌ ، واجـــمٌ
يُـــصغى إلى صـــوت الغـــرام القـــديم
يـــا قلبـــي البـــاكي إلام البُكَـــى ؟
مـــا في فـــضاء الكـــون شيء يـــدوم
فـــانْثُرْ غُبـــارَ الحـــزن فـــوق الـــدجى
واســـمعْ إلى صـــوت الـــشباب الـــرخيم

وانْقُــــــزْ عــــــلى دفِّ الهـــــوى لحنَــــــه
وارقـــص مـــع النـــور ، الـــضحوك الوســـيم
يـــا قلبـــيَ الـــداجي ! إلام الوجـــوم ؟
إن لم ألُمْ قلبـــي فَمَـــنْ ذا ألـــوم ؟
مالـــك لا تـــصغي لغـــير الأســـى ؟
مالـــك لا ترْنُـــو لغـــير الكلـــوم ؟
مالـــك قـــد أصـــبحتَ لا تـــصرف الأيـــامَ
إلا في شِـــعاب الجحـــيم ؟
أمـــا تـــر البلبـــل في غابـــه
يـــشدو وفـــوق الغـــاب تخطـــو النجـــوم ؟
أمـــا تـــرى الأســـحار تبـــدو بهـــا الغابـــات
كـــالأحلام - خلْـــفَ الـــسديم
أمـــا تـــرى الآمـــال في ســـحرها ؟
أمـــا تـــرى الليـــل ينـــاغي النجـــوم ؟

* * *

يـــا قلبـــيَ الـــداجي ! إلام الوجـــوم ؟
أكثـــرت يـــا قلبـــي ، فـــماذا تَـــروم ؟
هـــل تحـــسبُ الأيـــامَ في زَحْفِهـــا
ترثِـــي لمـــن قـــد هدَّمتْـــهُ الرجـــوم ،
كـــلا ! فـــإن الـــدهر يمـــضي ولا
يلـــوي عـــلى مـــا خلفـــه مـــن كلـــيم
والـــسيمُّ لا يرثـــي لمـــن طمَّـــه
والـــسيل لا يبكـــى لنـــوح الهـــشيم
والعاصـــف الجبَّـــار في ســـخطه
لا يـــرحم الغـــصن ، الرشـــيق ، القـــويم

هـــــذي هِـــي الـــدنيا فـــماذا الأســـى
يـــا قلبـــيَ الـــدامي، ومـــاذا الوجـــوم ؟

يا موت

نظم الشاعر هذه القصيدة في بداية الشهر العام 1929 وهي صرخة من صرخات نفس الشاعر المملوءة بالأحزان والذكريات وشظية من شظايا قلبه المحطم على صخور الحياة، قالها في أيام الأسى التي تلت نكبته بوفاة والده.

يـــا مـــوتُ ! قـــد مزقـــت صـــدري
وقـــصمْتَ بـــالأرزاء ظهـــري
ورميْتَنـــي مـــن حـــالقٍ ، وســـخرتَ منِّـــي أيَّ ســـخر
فلبثـــتُ مرضـــوضَ الفـــؤاد اجـــرُّ أجنحتـــي بـــذُعْر ...
وقـــسوْتَ إذ أبقيتنـــي في الكـــون أذْرَعُ كـــلَّ وعْـــر
وفجعتنـــي فـــيمن أحـــب ، ومـــن إليـــه أَبُـــثُّ سري
وأعـــدُّه ، فجـــرى الجميـــلَ ، إذا ادلهـــمَّ عـــليَّ دهـــري
وأعـــدُّه ، وَرْدِي ، ومزمـــاري ، وكاســـاتي ، وخمـــري
وأعـــده ، غـــابي ، ومحـــرابي ، وأغنيتـــي ، وفجـــري ...
ورزأتنـــي في عمـــدتي ، ومـــشورتي في كـــل أمـــر
وهـــدمتَ صرْحـــاً، لا ألـــوذ بغـــيره ، وهتكـــت ســـتري
ففقـــدْتُ روحـــاً ، طـــاهراً ، شـــهماً ، يجـــيش بكـــل خـــير
وفقـــدتُ قلبـــاً ، همُّـــه أن يـــستوي في الأفـــق بـــدْري
وفقـــدتُ كفّـــاً ، في الحيـــاة يـــصُدُّ عنِّـــي كـــل شر
وفقـــدتُ وجهـــاً ، لا يُعَبِّـــسه ســـوى حـــزني وضُري
وفقـــدتُ نفـــساً ، لا تَنـــي عـــن صـــوْن أفراحـــي وبـــشري
وفقـــدت رُكْنِـــي في الحيـــاة ، ورايَتـــي ، وعـــمادَ قـــصري

يـا مـوت ! قـد مزَّقـتَ صـدري

وقـصْمت بـالأرزاء ظهـري

يـا مـوت ! مـاذا تبتغـي منِّـي وقـد مزَّقـتَ صـدري ؟

مـاذا تـودُّ ، وأنـت قـد سـوَّدتَ بـالأحزان فكـري

وتركتنـي في الكائنـات أئـنُّ ، منفـرداً بـإصْري

وأجـوبُ صـحراء الحيـاة ، أقـول : «أيْـنَ تُـراهُ قـبري ؟»

مـاذا تَـوَدُّ مـن المعـذَّب في الوجـود بغـير وِزْر ؟

مـاذا تَـوَدُّ مـن الـشقيِّ بعيـشه ، النكِـدِ ، المُـضِر ؟

إن كنـتَ تطلبنـي فهـاتِ الكـأسَ ، أشربُهـا بـصبر

أو كنـتَ ترقبنـي فهـاتِ الـسَّهمَ ، أرشـقه بنحـري

خـذني إليـك ، فقـد تبخَّـرَ في فـضاء الهـمِّ عُمـري ...

وتهـدَّلتْ أغـصانُ أيـامي ، بـلا ثَمَـرٍ وزهْـر

وتنـاثرتْ أوراق أحلامـي عـلى حـسك الممـر ...

خـذني إليـك ! فقـد ظمِئْـتُ لكأسـكَ ، الكـدِرِ ، الأمـرِّ ...

خـذني فقـد أصـبحتُ ارقُـبُ في فـضاكَ الجـوْنِ فجـري

خـذني ، فـما أشـقى الـذي يقـضي الحيـاة بمثـل أمـري ...

* * *

يـا مـوت ! قـد مزّقْـتَ صـدري

وقـصمتَ بـالأرزاء ظهـري

يـا مـوت ! قـد شـاع الفـؤاد ، وأقفـرتْ عرصـات صـدري

وغـدوت أمـشي مطرقـاً مـن طـول مـا أثقلـت فكـري

يـا مـوت ! نفـسي ملّـت الـدنيا ، فهـل لم يـأت دوْري

إلى الله

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 29/ 10/ 1929 ونفسه متشحة بلهيب آلامها الحزينة الدامية.

يـا إلـه الوجـود ! هـذي جـراح — في فـؤادي ، تـشكو إليـك الـدواهي
هـذه زفـرةٌ يـصعدها الهـمُّ — إلى مـسمع الفـضاء الـساهي
هـذه مهجـة الـشقاء تناجيـك — فهـل أنـت سـامع يـا إلهـي ؟
أنـتَ أنزلتنـي إلى ظلمـة الأرض — وقـد كنـتُ في صـباحٍ زاه
كالـشعاع الجميـل ، أسبَحُ في الأفْـق — أصـغي إلى خريـر الميـاه
وأغنِّـي بـين النيـابيع للفجـر — وأشـدو كالبلبـل التيَّـاه
أنـتَ أوصـلتني إلى سـبل الـدنيا — وهـذي كثـيرة الاشـتباه
ثـم خلَّفْتَنـي وحيـداً ، فريـداً — بـين داعٍ مـن الريـاح ونـاه
أنـتَ أوقفتنـي عـلى لُجَّـة الحـزن — وجرَّعتنـي مـرارة «آه !»
أنـتَ أنـشأتني غريبـاً بنفـسي — بـين قـومي ، في نـشوتي وانتبـاهي
أنـتَ كرَّهْتَنـي الحيـاة ومـا فيهـا — وحَبَّبْتَنـي جُمُـودَ الـساهي
أنـتَ جَبَّلْـتَ بـين جنْبـيَّ قلبـاً — سرمـديَّ الـشُّعور والانتبـاه
عبقـريَّ الأسـى : تعذِّبـه الـدنيا — وتـشجيه سـاحرات الملاهـي !
أنـت عـذَّبتني بدِقَّـةِ حـسِّي — وتعقَّبْتَنـي بكـل الـدواهي
بالأسـى ، بالـسقام ، بـالهم ، بالوحـشة ، باليـأس ، بالـشقا المتنـاهي
بالمنايـا تغتـال أشْـهى أمـانيَّ — وتُـذوي محـاجري ، وشـفاهي
فـذا مـن أحـب حفنـة تُـرْب — تافـهٍ ، مـن ترائـب وجبـاه
وإذا فتنـةُ الحيـاة وسـحرُ الكـون — ضَرْبٌ مـن الغـمام الزاهـي
يتلاشـى فـوق الخـضم : ويبقـى الـيمُّ – كالعهـد مُزْبِـدَ الأمـواه ...

* * *

يـا إلـه الوجـود ! مالـك لا ترثـي — لحـزن المعـذَّب الأوَّاه

قد تأوَّهتُ في سكون الليالي ثم أطبقتُ في الصباح شفاهي
وتغزَّلتُ بالحياة ، وبالحبِّ ، وغنَّيتُ كالسعيد اللاهي
وزرعتُ الأحلام في قلبيَ الدامي ، وحوَّطتها بكل انتباهي
ثم لما حصدت لم أجن إلاّ الشوكَ ، ماذا تُرى فعلتُ ؟ إلهي !

* * *

يا رياحَ الوجود ! سيري بعنفٍ وتغنَّيْ بصوتك الأوَّاه
وانفحيني من روحِك الفَخْم ما يُبْلِغُ صوْتِي آذانَ هذا الإله
فهو يُصغِي إلى القويِّ ، ولا يُصغي لصوتٍ بين العواصف واه
وانثُري الوردَ للثلوج بدَاداً واصعقي كلَّ بلبل تَيَّاه
فالوجود الشقيُّ غير جدير بالأغاني ، وبالجمال الزَّاهي
واسحقي الكائنات كوْناً بكوْنٍ ، قبلَ أن تنتهي أذلَّ تناه
فالإله العظيم لم يخلق الدنيا سوى للفناء تحت الدواهي

* * *

يا ضمير الوجود ! يا عالم الأرواح ! يا أيها الفضاء الساهي !
يا خضمَّ الحياةِ ، يزخر في الآفاق في التراب ، في قرار المياه !
خبّروني ، هل للورى من إلهٍ ، راحم - مثل زعمهم - أواه
يخلُق الناسَ باسماً ، ويواسيهم ، ويرنو لهم بعَطفِ إلهي
ويرى في وجودهم روحَه الساِمي ، وآيات فنِّه المتناهي
إنني لم أجده في هاته الدنيا ، فهل خلف أفقها من إله ؟!

* * *

ما الذي قد أتيتَ يا قلبيَ الباكي ؟! وماذا قد قلته يا شفاهي
يا إلهي ! قد أنطق الهمُّ قلبي بالذي كان ... ، فاغتفر يا إلهي !
قَدَمُ اليأسِ والكآبةِ داستْ قلبيَ المُتْعَبَ ، الغريبَ ،الواهي

فتـــشظَّى ، وتلـــك بعـــضُ شـــظاياه .. ، فـــسامحْ قنوطَـــه المتنـــاهي

فهـــو يـــا ربِّ معبـــدُ الحـــقِّ ، والإيـــمانِ والنـــورِ والنقـــاءِ الإلهـــي

وهـــو نـــايُ الجـــمالِ ، والحـــبِّ ، والأحـــلامِ ، لكـــن قـــد حطّمتْـــه الـــدواهي

قصائد عام 1930

وعددها ثماني قصائد:

- النبي المجهول.
- صفحة من كتاب الدموع.
- طريق الهاوية.
- شجون.
- الأبد الصغير.
- الجمال المنشود.
- يا حماة الدين.
- الأشواق التائهة.

النبي المجهول

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 20/ 1/ 1930

أيُّهـا الـشعبُ ! ليتنـي كنـتُ حطّـا ... بـاً ، فـأهوي عـلى الجـذوعِ بفـأسي !
ليتنــي كنــتُ كالــسيول إذا ســا ... لــتْ تهـدُّ القبـورَ رمـساً بـرمسِ !
ليتنــي كنــتُ كالريــاح فــأطوي ... كـلَّ مـا يخنـقُ الزهـورَ بنحـسي !
ليتنــي كنــتُ كالــشتاءِ أغـشيِّ ... كـلَّ مـا أذبـلَ الخريـفُ بقَـرسي
ليــتَ لي قــوَّةَ العواصــف يــا شعـ ... ـبي فـالقي إليـكَ ثـورة نفـسي
ليــتَ لي قــوَّةَ الأعاصــيرِ إن ضجّـ ... ـت فـأدعوك للحيـاةِ بنبـسي !
ليــتَ لي قــوَّة الأعاصــير! .. لكــن ... أنـت حـيٌّ يقـضي الحيـاةَ بـرمسِ !
أنــتَ روحٌ غبيّــة تكــرهُ النــو ... رَ وتقـضي الـدهورَ في ليـلِ مَلـسِ
أنــتَ لا تُــدركُ الحقــائقَ إن طافـ ... ـتْ حواليْـك دونَ مـسٍ وجـسِّ

* * *

في صـباحِ الحيـاةِ ضـمَّختُ اكـوا ... بي وأترعتُهـا بخمـرةِ نفـسي
ثــمَّ قــدمتُها إليــكَ فأهرقــ ... ـتَ رحيقـي ودسـتَ يـا شعبُ كـأسي
فتألمــتُ ... ثــمَّ أســكتُّ آلا ... مـي وكفكفـتُ مـن شعوري وحِـسّي
ثــمَّ نــضَّدتُ مــن أزاهــير قلبــي ... باقــةً لمْ يمــسَّها أيُّ إنــسي
ثــمَّ قــدَّمتُها إليــكَ فمزَّقــ ... ـتَ ورودي ودسـتَهـا أيَّ دوس !
ثــمَّ ألبــستني مــن الحــزن ثوبــاً ... وبـشوك الجبـال توَّجـتَ رأسي !

* * *

هــا أنــا ذاهــبٌ إلى الغــاب يــا شعـ ... ـبي لأقـضي الحيـاةَ وحـدي بيـأس[1]
هــا أنــا ذاهــبٌ إلى الغــاب عــلِّي ... في صـميم الغابـات أدفـنُ بـؤسي
ثــم أنــساك مــا اســتطعتُ فــما أنــ ... ـتَ بأهـلِ لخمـرتي ولكـأسي
ســوفَ أتلــو عــلى الطيــور أناشيـ ... ـدي وأفـضي لهـا بأشـواق نفـسي

(1) هاأنا: في الديوان إنني آليته والبيت الذي تلاه.

فهـي تـدري معنـى الحيـاة وتـدري أنَّ مجـدَ النفـوس يقظـةُ حـسٍّ !
ثـمَّ أقـضي هنـاكَ في ظلمـة الليـل وألقـي إلى الوجـود بيـأسي
ثـمَّ تحـتَ الـصنوبر النـاضر الحلـو تخُـطُّ الـسيولُ حفـرةَ رمـسي
وتظـلُّ الطيـورُ تلغـو عـلى قبـري ويـشدو النسيمُ فـوقي بهمـس
وتظـلُّ الفـصولُ تمـشي حـواليَّ كـما كـنَّ في غـضارة أمـس

* * *

أيُّهـا الـشعبُ ! أنـتَ طفـلٌ صـغيرٌ لاعـبٌ بـالتراب والليـل مُغـسي !
أنـتَ في الكـون قـوة لم تسُـسْها فكـرة عبقريَّـة ذاتُ بـأس !
أنـتَ في الكـون قـوَّة كبَّلتهـا ظُلُـمات العـصور مـن أمـس أمـس
والـشقيُّ الـشقيُّ مـن كـان مـثلي في حـساسيتي ورقَّـةِ نفـسي !

* * *

هكـذا قـال شـاعرٌ نـاول النـاس رحيـقَ الحيـاة في خـير كـأس
فأشـاحوا عنهـا ، ومـرُّوا غِـضاباً واسـتخفُّوا بـه وقـالوا بيـأس:
«قـد أضـاعَ الرشـادَ في ملعـب الجـنِّ فيـا بؤسَـه أصـيبَ بمـسٍّ ! »
«طالمـا خاطـب العواطـف في الليـل ونـاجى الأمـوات في غـير رمـس»
«طالمـا رافـقَ الظـلامَ إلى الغـاب ونـادى الأرواحَ مـن كـلِّ جنس»
«طالمـا حـدَّث الـشياطينَ في الـوادي وغنَّـى مـع الريـاح بجـرس»
«إنـه سـاحرٌ تعلَّمـه الـسحـرَ الـشياطينُ كـلَّ مطلـع شـمس»
«فابعـدوا الكـافرَ الخبيـثَ عـن الهيكـل ، إنَّ الخبيـثَ منبـعُ رجـس»
«اطـردوهُ ، ولا تُـصيخوا إليـه فهـو روحٌ شريـرة ذاتُ نحـس» !

* * *

هكـذا قـال شـاعرٌ فيلـسوفٌ عـاشَ في شـعبِه الغبـيِّ بـتعس
جهِـلَ النـاسَ روحَـهُ وأغانيـها ، فـساموا شعورَهُ سـومَ بخـس
فهـو في مـذهب الحيـاة نبـيٌّ وهـو في شـعبِه مـصابٌ بمـسٍّ !

هكـــذا قـــال .. ، ثـــم ســـار إلى الغـــا ب ، ليحيـــا حيـــاةَ شـــعرٍ وقـــدس

* * *

وبعيـــداً هنـــاك في معبـــد الغـــا ب الـــذي لا يُظلّـــه أيُّ بـــؤس
في ظـــلال الـــصنوبر الحلـــو والزيـــ ـــتون يقـضي الحيـاةَ : حرسـاً بحـرس
في الـصباح الجميـل يـشدو مـع الطـ ـــير ، ويمـــشي في نـــشوة المتحـــسّي
نافخـــاً نايَـــهُ حواليْـــه تهتـــزُّ وورودُ الربيـــع مـــن كـــل قـــنس
شَـــعْرُهُ مُرسَـــلٌ - تداعبـــه الريـــ ـــحُ - عـــلى منكبيـــه مثـــلَ الـــدمَقْس
والطيـــورُ الطِّـــراب تـــشدو حواليـــ ـــه ، وتلغـــو في الـــدوح مـــن كـــلِّ جنس
وتَـــراه عنـــد الأصـــيل لـــدى الجـــد ول يرنـــو للطـــائر المتحـــسِّي
أو يُغنِّـــي بـــين الـــصنوبر أو يـــر نـــو إلى سُـــدْفة الظـــلام الممـــسي
فـــإذا أقبـــل الظـــلام وأمـــستْ ظُلُـماتُ الوجـود في الكـون تُغْـسي[1]
كـــان في كوخِـــه الجميـــل مُقيـــماً يـــسألُ الكـــونَ في خـــشوعٍ وهمـــس
عـــن مـــصبِّ الحيـــاة أيـــنَ مـــداهُ ؟ .. وصـــميم الوجـــود أيّـــانَ يُـــرسي ؟
وأريـــــج الـــــورود في كـــــلِّ وادٍ ونـــشيد الطيـــور حـــينَ تُمـــسي
وهـــزيم الريـــاحِ في كـــلِّ فـــجٍّ ورســـومِ الحيـــاةِ مـــن أمـــسِ أمـــسِ
وأغـــاني الرعـــاةِ أيـــنَ يواريـــ ـــها سـكونُ الفـضا ؟ وأيّـان تُمـسي ؟

* * *

هكـــذا يـــصرِفُ الحيـــاةَ ويُفنـــي حلقـــات الـــسنين : حرســـاً بحـــرسِ
يـــا لهـــا مـــن معيـــشةٍ في صـــميمِ الـــ ـــغابِ تُـضحي بـين الطيـور وتُمـسي !
يـــا لهـــا مـــن معيـــشةٍ لم تدنِّـــ ـــسْها نفـوسُ الـورى بخبـثٍ ورجـسِ
يـــا لهـــا مـــن معيـــشةٍ هـــي في الكـــو نِ حيـــاةٌ غريبـــةٌ ذاتُ قـــدسِ

---

(1) تغسي : تظلم.

الأبد الصغير

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 19/ 2/ 1930 .

يـا قلـبُ ! كـم فيـكَ مـن دنيـا محجَّبـةٍ … كأنهـا حـين يبـدو فجرهـا «إرمُ»
يا قلب ! كم فيك من كـون قـد اتَّقـدت … فيـه الـشموسُ وعاشـت فوقَـه الأمـمُ
يـا قلـبُ ! كـم فيـكَ مـن أفـق تنمِّقـهُ … كواكـبُ تـتجلَّى ، ثـمَّ تنعـدمُ
يا قلبُ ! كم فيـكَ مـن قـبرٍ قـد انطفـأتْ … فيـهِ الحيـاةُ وضـجَّتْ تحتَـهُ الـرممُ
يا قلبُ ! كم فيكَ مـن غـابٍ ومـن جبـلٍ … تـدوي بـه الـريحُ أو تـسمو بـه القِمـمُ
يا قلبُ ! كم فيكَ من كهفٍ قد انبجستْ … منـه الجـداولُ تجـري مـا لهـا لُجُـمُ
تمـشي ، فتحمـلُ غـصناً مزهـراً نـضراً … أو وردةً لم تـشوِّه حُـسنَها قُـدَمُ
أو نحلـةً جرَّهـا التيـارُ منـدفعاً … إلى البحـارِ ، تُغنِّـي فوقَهـا الـدِّيمُ
أو طـائراً سـاحراً ميتـاً ، قـد انفجـرتْ … في مُقلتيْـهِ جـراحٌ جمَّـةٌ ودمُ
يـا قلـبُ ! إنَّـكَ كـونٌ مـدهشٌ عجـبٌ … إن يُـسألِ النـاسُ عـن آفاقِـه يجمـوا
كأنَّـك الأبـدُ المجهـولُ قـد عجـزتْ … عنك النهى واكفَهَـرَّتْ حولـكَ الظّلـمُ !

* * *

يـا قلـبُ ! كـم مـن مـسرَّاتٍ وأخيلـةٍ … ولـذة ، يتحـامى ظِلَّهـا الألمُ
غنـت لفجـركَ صـوتاً حالمـاً ، فرحـاً … نـشوانَ ، ثـم تـوارتْ وانقـضى الـنَغَمُ
وكـمْ رأى ليلُـك الأشـباحَ هائمـةً … مـذعورةً تتهـاوى حولَهـا الـرُجُمُ
ورفـرفَ الألمُ الـدامي بأجنحـةٍ … مـن اللهيـبِ ، وأنَّ الحـزنُ والنـدمُ
وكـم مـشتْ فوقَـكَ الـدنيا بأجمعهـا … حتـى تـوارتْ ، وسـار المـوتُ والعـدمُ !
وشـيَّدتْ حولَـكَ الأيَّـامُ أبنيـةً … مـن الأناشـيدِ ، تُبنـى ، ثـمَّ تنهـدمُ

* * *

تمـضي الحيـاةُ بماضـيها وحاضرِهـا … وتـذهبُ الـشمسُ والـشطآنُ والقمـمُ
وأنتَ ، أنـتَ الخـضمُّ الرحـبُ ، لا فـرحٌ … يبقـى علـى سـطحِكَ الطـاغي ، ولا ألمُ

* * *

يا قلبُ ! كم قد تملَّيتَ الحياة ، وكم راقصتَها مَرَحاً ما مسَّكَ السأمُ
وكمْ توشَّحتَ من ليلٍ ومن شَفَقٍ ومن صباحٍ توشّي ذيلَه السُدُمُ
وكم نسجتَ من الأحلام أرديةً قد مزقتها الليالي وهي تبتسمُ
وكم ضفَّرت أكاليلاً موردةً طارت بها زعزعٌ تدوي وتحتدمُ
وكم رسمتَ رسوماً لا تشابهها هذي العوالمُ والأحلامُ النُظُمُ
كأنّها ظُلَلُ الفردوسِ حافلةٌ بالحورِ ثم تلاشتْ واختفى الحلُمُ
تبلو الحياةَ ، فتُبليها وتخلعُها وتستجدُّ حياة ما لها قِدَمُ
وأنتَ أنتَ : شباب خالدٌ نَضِرٌ مثل الطبيعة : لا شَيْبٌ ولا هرمُ !

صفحة من كتاب الدموع

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 7/ 6/ 1930.

غنَّاه الأمسُ ، وأطربه وشجاه اليومُ ، فما غده ؟
قد كان له قلبٌ ، كالطفل ، يدُ الأحلام تهدهده
مُذْ كان له مَلَكٌ في الكون جميلُ الطلْعَة ، يعبده
في جَوْفِ الليل ، يناجيه وأمامَ الفجر ، يمجده
وعلى الهضبات ، يغنِّيه آياتِ الحب ، ويُنشده
لولاه لما عَذُبَتْ في الكون مصادره وموارده
ولَما فاضتْ بالشِّعْر الحيِّ مشاعره وقصائده
تمشي في الغاب فتَتْبَعه أفراح الحُبّ ، وتنشده
ويرى الآفاقَ فيُبْصِرها زُمراً في النُّور ، تُراصده
ويرى الأطيارَ ، فيحسبُها أحلامَ الحب تغرده
ويرى الأزهار ، فيحسبها بَسماتِ الحب تواده
فيخال الكون يناجيه وجمالَ العالم يسعده !
ونجومُ الليل تضاحكه ! ونسيمَ الغاب يطارده !

ويخــــال الــــوردَ يداعبـــــه فرِحـــــاً ، فتعابثــــه يــــده ! ..
ويــــرى الينبــــوعَ ، ونَــــضرتَه ، ونــــسيمُ الــــصُّبْح يجعِّـــده
وخريــــــرُ المــــاء لــــه نَغَــمٌ نــــسماتُ الغــــاب تـــردده
ويــرى الأعــشاب وقــد ســمقت بــين الأشــجار تــشاهده
ونِطـــــافُ الطِّفـــــل تُنَمِّقُهـــــا فيجـــــل. «الحـــبّ» ويحمـــده

* * *

يـــا للأيـــــام ! فكـــم سرَّتْ قلْبـــاً في النـــاس لتكمـــده
هـــي مثـــل العــــاهر ، عاشـــقها تــــسقيه الخمــــر .. ، وتطــــرده !
يعطيــــكَ اليــــومُ حلاوتَهـــا كالـــشهد ، ليـــسلبَها غـــدُه !

* * *

بـــالأمس يعانقهـــــا فرِحـــــاً ويـــــضاجعُها ، فتُوَسِّـــده
واليـــومَ، يُـــسايرها شـــبَحاً أضـــناه الحـــزنُ ، ونكّـــده
يتلـــو في الغـــاب مراثيـــه وجـــذوعُ الـــسَّرْوِ تـــسانده
ويـــماشي النـــاس ، ومـــا أحـــد مـــنهم يـــشجيه تفـــرُّده
في ليـــل الوحـــشةِ مَـــسْراه وبكهـــف الوحـــدة مرقـــده
أصـــوات الأمـــس تعذّبـــه وخيـــال المـــوت يُهـــدِّده

* * *

بـــالأمس لـــه شَـــفقٌ في الكـــون يـــضيء الأفْـــقَ تـــورُّدُه
واليـــومَ ، لقـــد غـــشَّاه الليـــلُ فـــما في العـــالم يُـــسْعده
غنَّـــاه الأمـــسُ وأطربـــه وشـــجاه اليـــوم ، فـــما غـــده ؟

إلى عذارى أفروديت

(1) الجمال المنشود

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 19/ 7/ 1930.

يا عذارى الجمال ، والحب ، والأحلام ، بـــل يـــا بهـــاء هـــذا الوجـــود !

قد رأينا الشعورَ منسدلاتٍ   كَلّلَتْ حسنَها صِباحُ الورود
ورأين الجفون تبسم .. ، أو تحلم   بالنورِ ، بالهوى ، بالنشيد ..
ورأينا الخدودَ ، ضرَّجَها السِّحْرُ ،   فآهاً من سحر تلك الخدود !
ورأينا الشفاهَ تبسم عن دنْيا   من الورد ، غضّةٍ ، أمْلود
ورأينا النهودَ تهتزُّ ، كالأزهار   في نشوة الشباب السعيد
فتنةٌ ، توقظ الغرام وتذكيه ،   ولكن ماذا وراء النهود ؟
ما الذي خلْف سحرها الحالم ، السكران ،   في ذلك القرار البعيد .. ؟
أنفوس جميلةٌ ، كطيور الغاب   تشدو بساحر التغريد
طاهرات ، كأنها أرَجُ الأزهار   في مولد الربيع الجديد ؟
وقلوبٌ مُضيئة ، كنجوم الليل   ضَوّاعةٌ ، كغضِّ الورود ؟
أم ظلامٌ ، كأنه قِطَعُ الليل ،   وهولٌ يُشيبُ قلبَ الوليد
وخِضمٌّ ، يموج بالإثم والنُّكر ،   والشر ، والظلال المديد ؟
لستُ أدري ، فرُبَّ زهرٍ شذيّ   قاتل رغم حسنه المشهود
صانكنَّ الإله من ظلمةِ الروح   ومن ضِلة الضمير المُريد
أن ليلَ النفوس ليلٌ مُريعٌ   سرمديُّ الأسى ، شنيع الخلود
يرزح القلب فيه بالألم المرّ ،   ويشقى بعيشه المنكود
وربيع الشباب يُذبله الدهر ،   ويمضي بحسنه المعبود
غير باقٍ في الكون إلا جمال   الرُّوح غضّاً على الزمان الأبيد

(2) طريق الهاوية

يا عذارى الجمال ، والحب ، والأحلام   بل يا بهاءَ هذا الوجود !
خُلِقَ البلبل الجميل ليشدو   وخُلُقْتِنَّ للغرام السعيد
والوجودُ الرحيبُ كالقبر ، لولا   ما تُجلّينَ من قُطوب الوجود
والحياةُ التي تخِرُّ لها الأحلامُ   موتٌ مثقلٌ بالقيود ...
والشبابُ الحبيبُ شيخوخةٌ تسعى   إلى الموت في طريق كؤود ...

والربيـــعُ الجميـــلُ في هاتـــه الـــدنيا   خريـــفٌ يُـذوِي رفيـفَ الـــورود ...
والـــورودُ العِـــذابُ في ضـــفّة الجـــدول   شـــوكٌ، مُـــصفّحٌ بالحديـــد ...
والطيـــورُ التـــي تُغنِّـــي، وتقـــضي   عَيْــــشها في تـــرنمٍ وغريـــد ؟
إنهـــا في الوجـــود تـــشكو إلى الأيَّـــام   عـــبءِ الحيـــاة بالتغريـــد ...
والأناشـــيد إنهـــا شـــهقات   تتـــشظّى مـــن كـــل قلـــب عميـــد ...
صـــورة للوجـــود شـــوْهاء، لـــولا   شَـــفقُ الحـــسن فـــوق تلـــك الخُـــدود

* * *

يـــا زهـــور الحيـــاة، للحـــب أنـــتنَّ   ولكنـــــه مُحيـــــفُ الـــــورود
فـــسبيلُ الغـــرام جـــمُّ المهـــاوي   وافـــرُ الهـــول، مـــستراب الـــصعيد
رغـــمَ مـــا فيـــه مـــن جمـــالٍ، وفـــنٍّ   عبقـــريٍّ، مـــا إنْ لـــه مـــن مزيـــد
وأناشـــيدَ، تُـــسْكِرُ المَـــلأَ الأعـــلى،   وتُـــشْجِي جـــوانحَ الجلمـــود
وأريـــج، يكـــاد يـــذهب بالألبـــاب   مـــا بـــين غـــامضٍ وشـــديد
وســـبيلُ الحيـــاة رحْـــبٌ، وأنـــتنَّ   اللـــواتي تفرشـــنه بـــالورود
إن أردتُـــنَّ أن يكـــون بهيجـــاً   رائـــع الـــسحر، ذا جمـــالٍ فريـــد
أو بـــشوكٍ، يُـــدمِي الفـــضيلةَ والحـــبَّ   ويقـــضي عـــلى بهـــاء الوجـــود
إن أردتـــن أن يكـــون شـــنيعاً،   مظلَـــم الأفْـــقِ ميِّـــتَ التغريـــد

يا حماة الدين

نظم الشاعر هذه القصيدة، وكُتب التاريخ بخط الشاعر 16 جمادى الأولى 134هـ ولم أجد هذه القصيدة إلا في الديوان، وأعتقد أنها بتاريخ 1349هـ.

لقـــد نـــام أهـــل العلـــم نومـــاً مغنطَـــساً   فلـــم يـــسمعوا مـــا ردَّدَتـــهُ العـــوالمُ
ولكـــن صـــوتاً صـــارخاً، متـــصاعداً   مـــن الـــروح يـــدري كنهَـــه المتـــصامِمُ
ســـيوقظُ مـــنهم كـــلَّ مـــن هـــو نـــائمٌ   ويُنطـــقُ مـــنهم كـــلّ مـــن هـــو واجـــم

* * *

سكتم حماةَ الدين ! سكتة واجم ونمتم بملء الجفن ، والسيلُ داهم
سكتم وقد شِمْتُمْ ظلاماً غضونه علائمُ كفرٍ ثائرٍ ومعالم
مواكب إلحادٍ وراء سكوتكم تضجُّ ، وها إنّ الفضاء مآتم
أفيقوا فليلُ النوم ولّى شبابُه ولاحت لِلألاءِ الصباح علائم
فدون ضجيج الفاسقين سكينةٌ هي الموت ، مما أورثته التمائم
عوائد تحيي في البلاد نوائبا تَقدُّ قوام الدين ، والدينُ قائم
أفيقوا وهبوا هَبَّةً ضيغميَّةً ولا تُحجموا ، فالموتُ في الجبن جاثمُ
فدون نقابِ الصمت تنمو ملامح تبرقعت الشرّ الذي لا يقاوَمُ
فقد فتَّ في زنْدِ الديانة معشرٌ أثاروا على الإسلام مَن قد يهاجم
فوالحقّ ، ما هذي الزوايا وأهلها سوى مصنع فيه تُصاغُ السّخائم
لحى الله من لم تستثره حميةٌ على دينه ، إن داهمته العظائم
لحى الله قوماً ، لم يبالوا بأسهمٍ يُصوِّبها نحو الديانة ظالم

شجون

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 28/ 10/ 1930، وهي تجربة ترفد بالتأمل وإن كانت معاناة مخضبة بالتشاؤم وقد حاول الشاعر فيها فهم الكون وفهم نفسه.

عجباً لي ! أودُّ أن أفْهَمَ الكونَ ، ونفسي لم تستطع فهم نفسي !
لم أُفِدْ من حقائق الكون إلاّ أنني في الوجود مُرْتادُ رمس
كلَّ دهر يمُرُّ يفجع قلبي ليت شعري ! أيْنَ الزمان المُؤسّي
في ظلام الكهوف أشباحُ شؤمٍ وبهذا الفضاء أطيافُ نحس
وخلالَ القصور أنَّاتُ حُزْنٍ وبتلك الأكواخ أنضاء بؤس !
والقضاءُ الأصمُّ يعتسف النـ ـاسَ ويقضي ما بين سيف وقوس !

* * *

هذه صورة الحياة وهذا لونُها في الوجود ، من أمس أمس

صــورةٌ للــشقاء دامعــة الطــرف ولــونٌ يــسودُ في كــل طِــرس

الأشواق التائهة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 26/ 12/ 1930.

يــا صــميمَ الحيــاة إني وحيــد مــدلجٌ تائــهٌ فــأينَ شروقــكْ ؟
يــا صــميمَ الحيــاةِ إنِّي فــؤاد ضــائعٌ ظــامئٌ فــأينَ رحيقــكْ ؟
يــا صــميمَ الحيــاةِ قــد وجــمَ النــايُ وغــام الفــضا فــأينَ بروقــكْ ؟
يــا صــميمَ الحيــاةِ أيــنَ أغانيــكِ فتحــتَ النجــومِ يُــصغي مــشوقكْ ؟

* * *

كنــتُ في فجــرك الموشــح بــالأحلام عطــراً يــرفُّ فــوقَ ورودكْ
حالمــا ينهــل الــضياء ويُــصغي لــك في نــشوة بــوحيِ نــشيدكْ
ثــم جــاء الــدجى فأمــسيتُ أوراقــاً بــداداً مــن ذابــلاتِ الــورودِ
وضــباباً مــن الــشذى يتلاشــى بــينَ هــولِ الــدُّجى وصــمتِ الوجــود
كنــتُ في فجــركِ المغلــفِ بالــسحرِ فــضاءً مــن النــشيدِ الهــادي
وســحاباً مــنَ الــرؤى يتهــادى في ضــميرِ الآزالِ والآبــادِ
وضــياءً يُعــانقُ العــالمَ الرحــبَ ويَــسري في كــلِّ خــافٍ وبــادي
وانقضى الفجــر ، فانحــدرتُ مــن الأفــق ترابــاً إلى صــميمِ الــوادي

* * *

يــا صــميمَ الحيــاةِ كــمْ أنــا في الــدنيا غريــبٌ أشــقى بغربــةِ نفــسي
بــين قــومٍ لا يفهمــون أناشــيدَ فــؤادي ولا معــاني بــؤسي
في وجــودٍ مكبــلٍ بقيــودٍ تائــهٍ في ظــلامِ شــكٍّ ونحــسِ
فاحتــضني وضُــمَّني لــكِ كالماضــي فهــذا الوجــودُ علَّــة يــأسي

* * *

لم أجـد في الوجـودِ إلاَّ شـقاءً سرمـدياً ولـذةً مـضمحلهْ
وأمـاني يُغـرقُ الـدمعُ أحلاهـا ويُفنـي يـمُّ الزمـان صـداها
وأناشـيدَ يأكـلُ اللهـب الـدامي مـسرَّاتها ويُبقـي أسـاها
وورداً تمـوتُ في قبـضةِ الأشـ ـواكِ ... مـا هـذه الحيـاةُ المملـهْ

* * *

سـأمٌ هـذه الحيـاةُ معـادٌ وصـباحٌ يكـرُّ في إثـرِ ليـلِ
ليتنـي لم أفـد إلى هـذه الـدنيا ولمْ تـسبحِ الكواكـبُ حـولي
ليتنـي لم يُعـانقِ الفجـرُ أحلامـي ولم يَلـثمِ الـضياءُ جفـوني
ليتنـي لم أزلْ كـما كنـتُ ضـوءاً شـائعاً في الوجـودِ غـيرَ سـجين

قصائد عام 1931

وعددها إحدى عشرة قصيدة:

- أحلام شاعر أو أمل شاعر.
- حيرة أو ؟
- أنا أبكيك للحب.
- صلوات في هيكل الحب.
- فكرة الفنان.
- قلب الأم.
- قيود الأحلام.
- رثاء فجر.
- أبناء الشيطان.
- أراك.
- سر النهوض.

احلام شاعر

او : امل الشاعر

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 4/ 4/ 1931، والقصيدة من نوع الحلم الرومانسي المأثور الذي يعني التفرد والاعتزال بين أحضان الطبيعة ابتعاداً عن أذى البشر وشرورهم.

ليـتَ لي أنْ أعـيشَ في هـذه الدنـ ـيا سـعيداً بوِحـدتي وانفـرادي
أصرفُ العمـرَ في الجبـالِ وفي الغـا بـاتِ وبـينَ الـصنوبر الميـادِ
لـيسَ لي مـن شـواغلِ العيشِ مـا يصـ ـرفُ نفسي عـن استماعِ فـؤادي
أرقـب المـوت والحيـاة وأصـغي لحـديث الأزال والآبـادي
وأغنـي مـعَ البلابـلِ في الغـابِ وأصـغي إلى خريـرِ الـوادي
وأنـاجي النجـومَ والفجـرَ والأطـ ـيارَ والنهـرَ والـضياءَ الهـادي
عيـشةً للجـمالِ والفـنِّ أبغيـ ـها بعيـداً عـن أمتـي وبـلادي
لا أعنـيً نفـسي بـأحزانِ شـعبي فهـو حـيٌّ يعـيش عـيش الجـمادِ
وبحـسبي مـن الأسـى مـا بنفـسي مـن طريـفٍ مُـستحدَثٍ وتـلادِ
وبعيـداً عـن المدينـة والنـا س بعيـداً عـن لغـو تلـك النـوادي
فهـو مـن معـدنِ الـسخافةِ والإفـ ـكِ ، ومـن ذلـك الهـراء العـادي
أيـنَ هـو مـن خريرِ سـاقية الـوادي وخفـق الـصدى وشـدوُ الـشادي
وحفيـفُ الغـصونِ نمقهـا الطـ ـلُّ وهمْـسُ النـسيم لـلأورادِ
هـذه عيـشةٌ تُقدِّسـها نفـسي وأدعـو لمجـدِها وأنـادي

قيود الاحلام

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 24/ 6/ 1931.

وأوَدُّ أنْ أحيـا بفكـرة شـاعر فـأرى الوجـودَ يـضيق عـن أحلامـي
إلاّ إذا قطّعـتُ أسـبابي مـع الـدنيا وعـشتُ لوحـدتي وظلامـي

في الغاب، في الجبل البعيد عن الورى ... حيث الطبيعة، والجمال السامي
وأعيش عيشةَ زاهدٍ مُتَنَسِّكٍ ... ما إنْ تُدَنِّسه الحياة بذام
هَجَرَ الجماعةَ للجبال، تورُّعاً ... عنها وعن بطش الحياة الدامي
تمشي حواليْه الحياة كأنها ... الحلمُ الجميل، خفيفةَ الأقدام
وتَخِرُّ أمواج الزمان بهيبةٍ ... قدسيَّةٍ، في يمِّها المترامي
فأعيش في غابي حياةً، كلها ... للفنِّ للأحلام، للإلهام
لكنني لا أستطيع، فإنَّ لي ... أمّاً، يصدُّ حنانُها أوهامي
وصِغارَ إخوانٍ، يرون سلامهم ... في الكائنات معلَّقاً بسلامي
فقدوا الأب الحاني، فكنتُ لضعفهم كهْفاً يَصُدّ غوائلَ الأيام
ويَقيهم وَهَجَ الحياة، ولفحَها ... ويَذود عنهم شِرَّةَ الآلام
فأنا المكبَّلُ في سلاسلَ، حيَّةٍ، ... ضحَّيْتُ من رأْفي بها أحلامي
وأنا الذي سكَنَ المدينة، مُكْرَهاً ... ومشى إلى الآتي بقلبٍ دام
يصغي إلى الدنيا السخيفةِ راغماً ... ويعيش مثل الناس بالأوهام
وأنا الذي يحيا بأرض، قفرةٍ ... مدحوَّةٍ للشكِّ والآلام ...
هجمتْ بيَ الدنيا على أهوالها ... وخِضمِّها الرحب، العميق الطامي
من غير إنذارٍ فأحمل عُدَّتي ... وأخوضه كالسابح العوّام
فتحطّمتْ نفسي على شطآنه ... وتأجَّجتْ في جوِّه آلامي

* * *

الويل في الدنيا التي في شرْعِها ... فأسُ الطّعام كريشةِ الرسام؟

حيرة

[و: ؟]

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 10/ 8/ 1931، وقد وردت في الديوان بلا عنوان (؟) ونشرتها مجلة المباحث التونسية بعنوان (حيرة).

أرى هيكل الأيامِ يعلو مُشيداً ... ولا بد أن يأتي على أسِّهِ الهدمُ

فيـصبح مـا قـد شـيد الله للـورى خرابـاً كـأن الكـلّ في أمسه وهـمُ
فقـل ليَ مـا جـدوى الحيـاةِ وكربهـا وتلك التـي تـذوي وتلـك التـي تنمـو؟
وفــوجٌ تغذّيــه الحيــاةُ لبانَهــا وفـوج غـدا تحت الـتراب لـه ردم؟[1]
وعقــل مــن الأضـواء في رأس نـابغ وعقـل مـن الظلـماء يحمله فـدمُ ؟!
وأفئــدة حــسرى تــذوب كآبــة وأفئـدة سـكرى يـرفُّ لهـا الـنجم ؟
لـتعسِ الـورى شـاء الإلـه وجـودَهم فكـان لهـم جهـل وكـان لهـم فهـم ..

رثاء فجر

نظم الشاعر أبياته بتاريخ 14/ 9/ 1931.

يــا أيهــا الغــاب ، المُنَمَّــقُ بالأشــعَّةِ والــورودْ !
يــا أيهــا النــور النقــيُّ ! وأيُّهــا الفجــر البعيــد !
أيــن اختفيــتِ ؟ ومــا الــذي أقــصاكَ عــن هــذا الوجــود
آهٍ ! لقـــد كانـــت حيـــاتي فيـــك حالمـــةً ، تميـــد
بـــين الخمائـــل ، والجـــداول ، والـــترنم ، والنـــشيد
تُـــصمي لنجـــواكَ الجميلـــةِ ، وهـــي أغنيـــةُ الخلـــود
وتعـــيش في كـــونِ مـــن الغفَـــلات ، فتَّـــانٍ ، ســـعيد
آهٍ ! لقـــد غنّـــى الـــصباحُ ، فَدَمْـــدَمَ الليـــلُ العتيـــد
وتـــألّق الـــنجمُ الـــوضيءُ ، فـــأعْتمَ الغـــيْمُ الركـــود
ومـــضى الـــردى بـــسعادتي ، وقـــضى عـــلى الحـــب الوليـــد

(1) ورد في الديوان عجز البيت : وفوج يُرى تحت التراب له ردم.

أنا أبكيك للحب

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 21/ 9/ 1931.

لست يا أمسي أبكيك لمجدٍ أو لجاهْ
سلَبَتْهُ منِّيَ الدنيا، وبزَّتني رداه
فأنا أحتقرُ المجدَ، وأوهامَ الحياةْ

* * *

أو لعُمْرٍ، بلغتْ منهُ الليالي منتهاهْ
وتلاشَتْ في خضمِّ الزمنِ الطاغي قواهْ
فأنا ما زلت في فجرِ شبابي أو ضحاهْ

* * *

لا، ولا أبكيكَ يا أمسي، إذا ما قلتَ آهْ
لنعيمٍ لم ينل قلبي منه مشتهاهْ
فبنوا الأيامِ في الدنيا كما شاءَ الإلهْ

* * *

إنما أبكيك للحب، الذي كان بَهاهْ
يملأ الدنيا، فأنّى سرتُ في الدنيا أراهْ
فإذا ما لاحَ فجرٌ، كان في الفجر سناهْ
وإذا غرد طيرٌ، كانَ في الشدوِ صداهْ
وإذا ما ضاع عِطرٌ، كانَ في العطرِ شذاهْ
وإذا ما رفّ زهرٌ، كان في الزَهر صباهْ
فهو في الكونِ جمالٌ، يملأ الأفقَ ضياهْ
وتوَشّي هذه الأكوانُ بالسحرِ رُؤَاهْ
وهو في قلبي - الذي عانقه الفجرُ - إلهْ!
عبقري السحرِ، بمراحٌ وديعٌ في سماهْ

ينــــسجُ الأحـــــلامَ في قلبـــــي بأضـــــواء الحيـــــاهْ
ويغنينـــــــي فأنـــــسَى في مـــــبسرَّاتِ غِنـــــاهْ
كــــلّ مـــــا في الكـــونِ مـــن حـــزنٍ وأفـــراحِ عـــداهْ

ابناء الشيطان

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 30/ 9/ 1931.

أيُّ نـــاسٍ هـــذا الـــورى ؟ مـــا أرى إلاّ مرايـــا ، شـــقيَّة ، مجنونـــه
جبَّلتْهـــا الحيـــاةُ في ثـــورة اليـــأسِ مـــن الـــشرِّ ، كـــيْ تُجَـــنّ جنونـــه
فأقامـــتْ لـــه المعابـــدَ ، في الكـــون ، وصـــلَّت لـــه وشـــادت حـــصونهْ

* * *

كـــم فتـــاةٍ ، جميلـــةٍ ، مـــدحوها وتغنَّـــوْا بهـــا لكـــيْ يُـــسْقِطُوها
فـــإذا صـــانت الفـــضيلة عابوهـــا ، وإن باعـــتْ الخنـــا عبـــدوها
أصـــبحَ الحـــسنُ لعنـــةً ، تهـــبط الأرض ، ليغـــوَى أبناؤُهـــا وذووهـــا

* * *

وشـــقي ، طـــاف المدينـــةَ ، يـــستجدي ليحيـــا ، فخيَّبـــوه احتقـــارا
أيقظـــوا فيـــه نزعـــةَ الـــشرِّ ، فـــانفضَّ عـــلى النـــاسِ فاتكـــاً جبَّـــارا
يبـــذر الرُّعـــبَ في القلـــوبِ ، ويـــذكِي - حيـــثما حـــلَّ - في الجـــوانح نـــارا

* * *

ونبـــي قـــد جـــاء للنـــاس بـــالحق ، فكـــالوا لـــه الـــشتائمَ كـــيْلا
وتنـــادَوْا بـــه : «إلى النـــار ! فالنـــار بـــروح الخبيـــث أحـــرى وأوْلى»
ثُـــمَّ ألقـــوْه في اللهيـــب ، وظلَّـــوا يمـــلأون الوجـــودَ رُعبـــاً وهـــوْلا
وشـــعوبٍ ضـــعيفةٍ ، تتلظَّـــى في جحـــيم الآلامِ عامـــاً فعامـــا
والقـــويُّ الظلـــومُ يَعْـــصِرُ مـــن آلامهـــا الـــسُّودِ لَـــذةً ومُـــدَاما

يتحسَّاه ضاحكاً .. ، لا يراها خُلِقَت في الوجود إلاّ طعاما !

* * *

وفتاةٍ حسبتُها مَعْبَدَ الحبِّ ، فألفيْتُ قلبَها مَاخورا !
ونبيلٍ وجدته في ضياء الفجر قلباً مدَنساً شرِّيرا !
وزعيمٍ أجلّه النَّاسُ حتى ظنَّ في نفسه إلهاً صغيرا !

* * *

وخبيثٍ ، يعيشُ كالفأسِ ، هدَّاماً ، لِيُعْلي بينَ الخراب بناءَهْ
وقميءٍ ، يُطاوِلُ الجَبلَ العالي ، فللّه ما أشدَّ غباءَهْ !
ودنيءٍ ، تاريخُه في سِجِلِّ الشرِّ : إفكٌ ، وقِحَّةٌ ، ودناءهْ

* * *

كان ظنّي أنَّ النفوس كِبارٌ فوجدتُ النفوس شيئاً حقيرا
لؤْتُهُ الحياةُ ثمَّ استمرَّتْ تبذرُ العالَمَ العريض شرورا
فاحصدوا الشَّوْكَ ... ، يا بنيها وضجُّوا وامْلأُوا الأرض والسماء حبورا

صلوات في هيكل الحب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 13/ 10/ 1931 .

عذبةٌ أنتِ كالطفولة كالأحلام كاللحنِ ، كالصباح الجديد !
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء كالورد ، كابتسام الوليدِ !
يا لها من وداعة وجمال وشباب مُنعم أملود !
يا لها من طهارة تبعثُ التقديسَ ، في مهجة الشقيِّ العنيدِ !
يا لها رقةٌ ، يكاد يرفُّ الورْدُ منها في الصخرة الجلمود !
أيُّ شيءٍ تراك ؟ هل أنت «فينيس» تهادت بين الورى من جديد؟
لتعيد الشباب والفرح المعسول للعالم التعيس العميدِ !
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأرض ليحيي روحَ السلام العهيدِ

أنتِ ما أنتِ ؟ أنتِ رسم جميلٌ عبقريٌّ من فنِّ هذا الوجودِ
فيكِ ما فيهِ من غموضٍ وعمقٍ وجمالٍ مقدَّسٍ معبودِ !
أنتِ ما أنتِ ؟ أنتِ فجر من الـ ـسحرِ تجلَّى لقلبي المعمودِ !
فأراه الحياةَ في مونقِ الحسن وجلَّى له خفايا الخلود !
أنتِ روح الربيع تختالُ في الدُّ نيا ، فتهتزُّ رائعات الورودِ
وتهبُّ الحياةُ سكرى من العطرِ ، ويدوي الوجودُ بالتغريدِ !
كلما أبصرتْكِ عيناي تمشينَ بخطوٍ ، موقّع كالنشيدِ
خفقَ القلبُ للحياةِ ورفَّ الزهرُ في حقلِ عمري المجرودِ
وانتشتْ روحي الكئيبةُ بالحبِّ وغنّتْ كالبلبلِ الغرّيدِ !
أنت تحيينَ في فؤادي ما قد مات في أمسيَ السعيد الفقيدِ
وتشيدين في خرائبِ روحي ما تلاشى في عهديَ المحدودِ
من طموحٍ إلى الجمالِ ، إلى الفنِّ إلى ذلك الفضاءِ البعيدِ
وتبثّين رقّة الشوقِ والأحلامِ والشجوِ ، والهوى في نشيدي ! (1)
بعدَ أنْ عانقتْ كآبةُ أيامي فؤادي وألجمتْ تغريدي
أنتِ أنشودةُ الأناشيدِ غنّا كِ إلهُ الغناءِ ربُّ القصيدِ !
فيك شبَّ الشباب وشّحه الـ ـسِّحرُ ، وشدوُ الهوى وعطرُ الورود
وتراءى الجمالُ يرقصُ رقصاً قُدُسيّاً على أغاني الوجودِ !
وتهاوت في أُفْقِ روحِكِ أوزا نُ الأغاني ، ورقّة التغريدِ !
فتمايلتِ في الوجود كلحنٍ عبقريَّ الخيال ، حلوِ النشيدِ
خطواتٌ سكرانة بالأناشيدِ وصوتٌ كرجع ناي بعيدِ !
وقوامٌ يكادُ ينطقُ بالألحانِ في كلِّ وقفةٍ وقعودِ !
كلُّ شيءٍ موقّعٌ فيكِ حتَّى لفتةُ الجيد ، واهتزازُ النهودِ !!
أنتِ ... أنتِ الحياة في قدسها السامي وفي سحرها الشجيِّ الفريدّ

---

(1) وردت (والشجو) في الديوان : والشدوِ.

أنــتِ ... أنــتِ الحيــاةُ في رقّــة الفجــرِ وفي رونــقِ الربيــع الوليــد!
أنــتِ ... أنــتِ الحيــاةُ كــل أوانٍ في رواء مــن الــشباب الجديــدِ !
أنــتِ ... أنــت الحيــاة في وفي عينيــك آيــاتُ ســحرها الممــدودِ
أنــتِ دنيــا مــنن الأناشــيد والأحــلام ، والــسحر ، والخيــال المريــدِ !
أنــتِ فــوق الخيــالِ ، والــشعر ، والفــنِّ ، وفــوقَ النهــى ، وفــوقَ الحــدود !
أنــتِ قــدسي ومعبــدي وصــباحي وربيعــي ، ونــشوتي ، وخلــودي !
يــا ابنــةَ النــور إنــني أنــا وحــدي مَــنْ رأى فيــكِ روعــةَ المعبــود !
فــدعيني أعــيشُ في ظلِّــكِ العــذبِ وفي قــربِ حــسنِكِ المــشهود
عيــشةً للجــمال والفــنِّ والإلهــام والطهــرِ والــسّنى ، والــسجودِ !
عيــشةَ الناســك البتــولِ يُنــاجي الــربّ في نــشوة الــذهول الــشديدِ !
وامنحينــي الــسلام والفــرحَ الروحــي ، يــا ضــوءَ فجــريَ المنــشودِ !
وارحمينــي فقــد تهــدَّمتُ في كــونٍ مــن اليــأسِ والظــلامِ مَــشيدِ
أنقــذيني مــن الأســى فلقــدْ أمــسيْتُ لا أســتطيع حمــلَ وجــودي
في شــعابِ الزمــانِ والمــوتِ أمــشي تحــتَ عــبءِ الحيــاةِ جــمَّ القيــودِ
وأمــاشي الــورى ونفــسي كــالقبرِ ، وقلبــي كالعــالمِ المهــدودِ !
ظلمــةً مــا لهــا ختــامٌ وهــولٌ شــائعٌ في ســكونها الممــدودِ
وإذا مــا اســتخفّني عَبَــثُ النــاس تبــسّمتُ في أســى وجمــودِ
بــسمةً مُــرَّةً كــأني أســتلُّ مــنَ الــشوكِ ذابــلاتِ الــورودِ !
وانفخــي في مــشاعري مــرح الــدنيا وشــدِّي مــن عزمــيَ المجهــودِ
وابعثــي في دمــي الحــرارة علِّي أتغنّــى مــع المنــى مــن جديــدِ !
وأبــثَّ الوجــودَ أنغــامَ قلــب بلــبليّ مكبــلٍ بالحديــدِ !
فالــصباحُ الجميــلُ يُــنعشُ بالــدفءِ حيــاةَ المحطّــم المكــدودِ !
أنقــذيني فقــد ســئمتُ ظلامــي أنقــذيني فقــد مللــتُ ركــودي

* * *

آه يــا زهــرتي الجميلــةَ لــو تــدرين مــا جــدَّ في فــؤادي الوحيــدِ !

في فـؤادي الغريـب تُخلَـقُ أكـوانٌ مـن الـسحر ذات حـسنٍ فريـدِ
وشـموسٌ وضـاءة ونجـوم تنثـرُ النـورَ في فـضاء مديـدِ
وربيـعٌ كأنّـه حلـمُ الـشاعرِ في سـكرةِ الـشبابِ الـسعيدِ
وريـاضٌ لا تعـرفُ الحلـكَ الـداجي ، ولا ثـورةَ الخريـف العتيـدِ
وطيـورٌ سـحريّة تتنـاغى بأناشـيدَ حلـوةُ التغريـدِ
وقـصور كأنهـا الـشفقُ المخـضوبُ ، أو طلعـةُ الـصباحِ الوليـدِ
وغيـومٌ رقيقـةٌ تتهـادى كأباديـدَ مـن نُثـارِ الـورودِ
وحيـاةٌ شـعريّةٌ هـيَ عنـدي صـورةٌ مـن حيـاةِ أهـلِ الخلـودِ
كـلّ هـذا يـشيدُه سـحرُ عينيْـكِ وإلهـامُ حـسنِك المعبـودِ !
وحـرامٌ عليـكِ أن تهـدمي مـا شـادهُ الحـسنُ في الفـؤادِ العميـدِ
وحـرامٌ عليـكِ أن تـسحقي آمـالَ نفـسٍ تـصبو لعـيشٍ رغيـدِ !
منـكِ ترجـو سـعادةً لم تجـدْها في حيـاةِ الـورى وسـحرِ الوجـودِ
فالإلـه العظـيمُ لا يَـرجُمُ العبـدَ ، إذا كـان في جـلالِ الـسجود !

أراك

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 24/ 10/ 1931.

أراكِ ، فتحلـو لـديّ الحيـاة ويمـلا نفـسي صـباحُ الأمـلْ
وتنمـو بـصدري وُرودُ عِـذابٌ وتحنـو عـلى قلبـيَ المـشتعلْ
ويفْتِننـي فيـكِ فـيضُ الحيـاة وذاكَ الـشّبابُ الوديـعُ ، الثمِـل
ويفتننـي سـحرُ تلـك الـشفاه ترفـرف مـن حـولهن القُبَـل
فاعبُـدُ فيـكِ جمـالَ الـسماء ، ورقّـةَ وَرْدِ الربيـع، الخـضِل
وطُهْـرَ الثلـوج ، وسِـحْرَ المـروج مُوشَـحَةً بـشعاع الطّفَـلْ

* * *

أراكِ ، فـأُخلَقُ خَلْقـاً جديـداً كـأنّيَ لم أبْـلُ حـربَ الوجـودْ

ولم أحتمل فيه عِبئاً، ثقيلاً ... من الذكريات التي لا تَبيدْ
وأضغاثِ أياميَ، الغابرات ... وفيها الشقيُّ، وفيها السعيدْ
ويغمُرُ روحِي ضياءٌ، رفيقٌ ... تكلله رائعاتُ الورد
وتُسْمعُني هاته الكائناتُ ... رقيقَ الأغاني، وحُلْوَ النشيد
وترقص حولي أمانٍ، طِرابٌ ... وأفراحُ عُمْرٍ خَلِّي، سعيد
أراكِ فتخفق أعصاب قلبي ... وتهتزُّ مثلَ اهتزازِ الوتَرْ
ويجري عليها الهوى في حنوٍّ ... أناملَ لُدْناً كرطْبِ الزهَرْ
فتخطو أناشيدُ قلبي، سكرى ... تغرِّد، تحت ظلالِ القَمَرْ
وتملأُني نشوةٌ، لا تُحَدّث ... كأنيَ أصبحتُ فوق البشر
أودُّ بروحي عناقَ الوجود ... بما فيه من أنْفسٍ أو شجر
وليلٍ يَفرُّ وفجر يكرُّ ... وغيمٍ يُوَشِّي رداء السحَرْ

فكرة الفنان

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 7/11/1931، ويوضح الشاعر فيها رأيه في الفن ويدعو إلى إعمال المشاعر فيه التي تفتح كوى النفس.

عش بالشعور، وللشعورِ فإنما ... دنياك كونُ عواطفٍ وشعورِ
شيدتْ على العطفِ العميق، وإنها ... لتجفُّ لو شيدتْ على التفكيرِ
وتظلُّ جامدةَ الجمالِ، كئيبةً ... كالهيكلِ المتهدِّم، المهجورِ
وتظلُّ قاسيةَ الملامح جهمةً ... كالموتِ .. مقفِرةً بغيرِ سرورِ
لا الحبُّ يرقصُ فوقَها، متغنِّياً ... للناسِ بينَ جداولٍ وزهورِ
متورِّدَ الوجناتِ سكرانَ الخُطى ... يهتزُّ مِنْ مرحٍ، وفرطِ حبورِ
متكلِّلاً بالوردِ ينثرُ للورى ... أوراق «وردِ اللذَّةِ» المنظورِ
كلاَّ، ولا الفنُّ الجميلُ بظاهرٍ ... في الكونِ تحتَ عمامةٍ من نورِ
متوِّشحاً بالسحر ينفخُ نايَه المشـ ... ـبوبَ بينَ خمائلٍ وغديرِ

أو يلمسُ العودَ المقدَّسَ ، واصفاً ... للموتِ ، للأيامِ ، للديجورِ
ما في الحياةِ من المسرَّة ، والأسى ... والسحرِ ، واللذَّات ، والتغريرِ
أبداً ، ولا الأملُ المجنحُ منشدٌ ... فيها بصوتِ الحالمِ المحبورِ
تلكَ الأناشيدُ التي تَهَبُ الورى ... عزمَ الشبابِ ، وغبطةَ العصفورِ

* * *

واجعلْ شعوركَ في الطبيعةِ قائداً ... فهو الخبيرُ بتيهها المسحورِ
صحِبَ الحياة صغيرةً ومشى بها ... بينَ الجماجم والدمِ المهدورِ
وعدا بها فوقَ الشواهقِ باسماً ... متغنِّياً من أعصرٍ ودهورِ
والعقلُ رغمَ مشيبهِ ووقارهِ ... ما زالَ في الأيام جِدَّ صغيرِ !
يمشي فتصرعه الرياحُ فينثني ... متوجعاً كالطائر المكسورِ
ويظل يسألُ نفسَه متفلسفاً ... متنطِّعاً في خفةٍ وغرورِ[1]
عما تُحجِّبه الكواكبُ خلفَها ... من سرِّ هذا العالم المستورِ
وهو المهشَّم بالعواصفِ يا لَهُ ... من ساذج متفلسفٍ مغرورِ

* * *

وافتح فؤادك للوجود وخلِّه ... لليمِّ ، للأمواجِ ، للديجورِ
للثلج تنثره الزوابعُ للأسى ... للهولِ ، للآلامِ للمقدورِ
واتركه يقتحمُ العواصفَ هائماً ... في أفقِها المتلبِّدِ المقرورِ
ويخوضُ أحشاءَ الوجودِ مقامراً ... في ليلِها المتهيِّبِ المحذورِ
حتى تعانقَه الحياةُ ويرتوي ... من ثغرها المتأجِّجِ المسجورِ
فتعيشُ في الدنيا بقلبٍ زاخرٍ ... يقظِ المشاعرِ حالمٍ مسحور
في نشوة صوفيَّة قدسيةٍ ... هي خير ما في العالم المنظور

(1) متنطعاً: وردت في الديوان متنطساً.

سر النهوض

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ 12/ 11/ 1931.

لا يـنهض الـشعبُ إلا حـين يدفعـه ... عـزمُ الحيـاة ، إذا مـا اسـتيقظتْ فيـه

والحَـبُّ يخـترق الغـبراءَ ، منـدفعاً ... إلى الـسماء ، إذا هبَّـتْ تناديـه

والقيْـدُ يألفُـه الأمـواتُ ، مـا لبثـوا ... أمّـا الحيـاةُ فيُبْليهـا وتُبْليـه

قلب الأم

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 16/ 12/ 1931.

يا أيُّها الطفـلُ الـذي قـد كـانَ كـاللحنِ الجميـلْ
والـوردة البيـضاء تعبـقُ في غيابـاتِ الأصيـلْ

يـا أيُّهـا الطفـلُ الـذي قـد كـانَ في هـذا الوجـودْ
حُلُـماً ينـاجي هاتِـهِ الـدنيا بمعـسولِ النـشيدْ[1]

ويعلّـم النـاسَ الـبراءة ، والمحبّـةَ ، والـسرورْ
ويُنـيرُ أعـماقَ القلـوبِ بروحِـهِ العـذبِ النـضيرْ

هـا أنـتَ ذا قـد أطبقَـتْ جفنيْـكَ أحـلامُ المنـونْ
وتطايرتْ زمرُ الملائـكِ حـولَ مـضجعِكَ الأمـينْ

ومضتْ بروحِكَ للسماء عـرائسُ النورِ الحبيبْ
يحملـنَ تيجانـاً مذهّبـةً مـنَ الزهـرِ الغريـبْ

هـا أنـتَ ذا قـد جلّلتـكَ سـكينةُ الأبـدِ الكبيرْ
وبكتكَ هاتيكَ القلـوب وضـمّك القـبرُ الـصغيرْ

وتفـرَّق النـاسُ الـذينَ إلى المقـابرِ شـيَّعوكْ
ونـسوكَ مـن دنيـاهم ، حتـى كـأنْ لم يعرفـوكْ

---

(1) حلماً: وردت في لديوان فَرِحاً.

شـغلَتْهُم عنـكَ الحياةُ وحـربُ هـذي الكائنـاتْ
إنَّ الحيـاةَ – وقـد قـضيتَ قُبيْـلَ معرفـةِ الحيـاةْ –
بحـرٌ ، قرارتُـهُ الـردى ، ونـشيدُ لجَّتـهِ شـكاةْ
وعـلى شـواطئِهِ القلـوبُ تـئنُ داميـةً عـراةْ
بحرٌ ، تجيشُ بـه العواصـفُ في العـشيَّةِ والغـداةْ
وتُظِلّـه سُـحُبُ الظـلامِ ، فـلا سـكونٌ ولا إيـاةْ
نـسيتكَ أمـواجُ البحـيرةِ والنجـومُ اللامعـهْ
والبلبـل الـشادي وهاتيـكَ المـروجُ الـشاسعهْ
وجـداولُ الـوادي النـضيرِ ، برقـصها وخريرِهـا
ومـسالكِ الجبـلِ الـصغيرِ ، بعـشبِها وزهورهـا
حتى الرفاقُ ... ، فـإنّهم لبثـوا مـدىً يتساءلونْ
في حيرةٍ مشبوبةٍ : «أيـنَ اختفـى عنـا الأمـينْ» ؟
لكـنَّهم عَلِمـوا بأنَّـك في الليـالي الداجيـهْ
حملتـكَ غـيلانُ الظـلامِ إلى الجبـال النائيـهْ
فنسوك مثلَ الناسِ وانصرفوا إلى اللهـوِ الجميـلْ
بين الخمائل ، والجـداول ، والـروابي ، والـسهولْ
ونسوا وداعةَ وجهِـكَ الهـادي ومنظـرَك الوسـيمْ
ونـسوا تغنيـك الجميـلَ بـصوتكَ الحلـوِ الـرخيمْ
ومـضوا إلى المـرج البهـيجِ يطـاردون طيـورهُ
ويُزحزحـون صـخورَه ، ويعـابثون زهـورهُ
ويشيِّدونَ من الرمـال البـيضِ والحـصبِ النـضيرْ
غُرفـاً ، وأكواخـاً ، تُكلِّلُهـا الحـشائش والزهـورْ
وينضِّدون منَ الرُّبـى بـينَ التـضاحكِ والحبـورْ
طاقـاتِ وردٍ آبـدٍ ، تُـزري بـأورادِ القـصورْ
يلقونهـا في النهـرِ ، قربانـاً لآلهـةِ الـسرورْ

فتـسيرُ في التيـارِ ، راقـصةً عـلى نَغَـمِ الخريـرْ

كـلّ نـسوك .. ولم يعـودوا يـذكرونَكَ في الحياةْ
والدهرُ يدفنُ في ظـلامِ المـوتِ حتَّـى الـذكرياتْ

إلا فـؤادٌ ظـلَّ يخفُـقُ في الوجـودِ إلى لقـاكْ
ويـودُّ لـو بـذلَ الحيـاةَ إلى المنيّـةِ ، وافتـداكْ

فإذا رأى طفـلاً بكـاكَ ، وإنْ رأى شـبحاً دعـاكْ
يُصغي لصوتِكَ في الوجودِ ، ولاَ يـرى إلا بهـاكْ

يُـصغي لنغمتـكَ الجميلـةِ ، في خريـرِ الـساقيهْ
في آنّـةِ المزمـارِ ، في لغـوِ الطيـورِ الـشاديهْ

في ضجّةِ البحـرِ المجلجِـلِ ، في هـديرِ العاصـفهْ
في لجـة الغابـاتِ ، في صـوتِ الرعـودِ القاصـفهْ

في ثغيـة الحمـلِ الوديـعِ ، وفي أناشـيدِ الرعـاةْ
بـينَ المـروجِ الخـضرِ والـسفحِ المجلّـل بالنبـاتْ

في آهة الـشاكي ، وضوضـاءِ الجمـوعِ الـصاخبهْ
في شـهقةِ البـاكي يؤجّجهـا نـواحُ النادبـهْ

في كـلِّ أصـواتِ الوجـود : طَروبُهـا وكئيبُهـا
ورخيمُهـا ، وعنيفُهـا ، وبغيـضُها وحبيبُهـا

ويـراكَ في صـورِ الطبيعـةِ : حلوهـا ودميمِهـا
وأليفهـا ومخيفهـا ، وحقيرهـا ، وعظيمهـا[1]

في رقّـة الفجـرِ الوديـعِ ، وفي الليـالي الحالمـهْ
في فتنـةِ الـشفقِ البـديعِ ، وفي النجـومِ الباسـمهْ

في رقصِ أمواجِ البحيرةِ تحتَ أضـواءِ النجـومْ
في سـحرِ أزهـارِ الربيـعِ ، وفي تهاويـلِ الغيـومْ

---

(1) وأليفها ومخيفها : ورددت في الديوان: وحزينها وبهيجها.

في لمعـةِ الـبرقِ الخفـوقِ ، وفي هُـوِيِّ الـصاعقةْ
في ذلَّـةِ الـوادي ، وفي كـبر الجبـالِ الـشاهقةْ
في مشهدِ الغابِ الكئيب ، وفي الورودِ العاوية[1]
في ظُلمةِ الليـلِ الحـزينِ ، وفي الكهـوفِ العاريـةْ
أعرفتَ هذا القلبَ ، في ظلماءِ هاتيـكَ اللحـودْ ؟!
هو قلبُ «أمِّك» أمُّك السكرى بأحزانِ الوجودْ !!
هو ذلكَ القلبُ الذي سيعيشُ كالشادي الضريرْ
يشدو بشكْوى حزنِهِ الداجي إلى النفَسِ الأخـيرْ
لا ربّـةُ النـسيان تـرحَمُ حزنَـهُ ، وتـرى شـقاهْ
كـلا ! ولا الأيـامُ تَـبلى في أناملهـا أسـاهْ
إلا إذا ضَـفَرَتْ لـه الأقـدارُ إكليـل الجنـونْ
وغـدا شـقياً ضـاحِكاً تلهـو بمـرآهُ الـسنونْ
هـو ذلـكَ القلـبُ الـذي مهـما تغلّبـتِ الحيـاةْ
وتـدفَعَ الـزمنُ المدمـدمُ في شـعابِ الكائنـاتْ
وتغنّـتِ الـدنيا ، وغـرَّدَ بلبـلُ الغـابِ الجميـلْ
سـيظلُ يعبـدُ ذكرياتِـكَ ، لا يمـلَّ ولا يميـلْ
كـالأرضِ تمـشي فـوقَ تربتِهـا المـسرّةُ والـشبابْ
والليل ، والفجر المجنّح ، والعواطف والـسحابْ
والحـبُّ ، تنبـتُ في مواطنـه الـشقائقُ والـورودْ
والمـوت ، يحفـرُ أينـما يخطـو المقـابرَ واللحـودْ
وتمـرُّ بـين فِجاجِهـا اللـذاتُ راقـصةً تميـدْ
سكرى .. وأحلامُ الورى ترنـو إلى الأفـقِ البعيـدْ
وتظلّ ترقُصُ للأسـى ، للّهـوِ ، أشـباحُ الـدهورْ

(1) الورود: جمع ورد وهو الأسد.

حتـى يواريَهـا ضـبابُ المـوتِ في وادي الـدثورْ

وتظل تـورقُ ، ثـم تُزهـرُ ، ثـم ينـشرها الـصباحْ
للمـوت ، للـشوك الممـزَّق ، للجـداولِ ، للريـاحْ

بـسماتِ ثغـرِ حـالم يفـترُّ في سـهوِ الـسرورْ
وورودِ روضٍ باسـمٍ يُـصغي لألحـانِ الطيـورْ

وتظـلّ تخفُـقُ ، ثـمَّ تـشدو ، ثـمَّ يطويهـا الـترابْ
قُبَـلٌ وأطيـارٌ تغـرِّدُ للحيـاةِ وللـشبابْ

وتظـلّ تمـشي في جـوارِ المـوتِ أفـراحُ الحيـاةْ
ويغـرِّدُ الـشحرورُ مـا بـينَ الجماجِـمِ والرفـاتْ

والأرض حالمـةٌ تغنـي بـين أسرابِ النجـومْ
أنـشودةَ المـاضي البعيـدِ وسُـورةَ الأزل القـديمْ !

قصائد عام 1932

وعددها ثلاث قصائد:

- حديث المقبرة.
- في ظل وادي الموت.
- الساحرة.

حديث المقبرة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 3/ 4/ 1932.

وهو حوار فلسفي، مداره الحياة والموت، والخلود والكمال.

في ليلة مظلمة، من ليالي الصيف، خرج الشاعر بنفسه من القرية الصغيرة النائمة في سفح الجبل، وفي ذلك السكون الشامل، والظلام المركوم، أخذ يمشي بين أشجار الزيتون المزهرة في مسلك منفرد، ثم اعتلى تلك الربوة الصغيرة، حيث كانت مدافن القرية وحيث ينام الموتى في صمت الدهور.

وبين القبور الخرساء الجاثمة تحت أضواء النجوم، حيث يتحدث كل شيء بجلال الموت وتفاهة الحياة، جلس الشاعر بأقدام متعبة، ونفس ثائرة، وأجفان قد أذبلتها الأحزان، فطافت بنفسه الأحلام والأفكار والذكريات، وتقلبت أمامه صور الموت وأمواج الحياة، وتتابعت أمامه رسوم الأيام الكثيرة، ما نام منها في قلب الأزل وما لم يزل ينمو في أحشاء الأبد الكبير، وجاشت في قلبه هاته العصور والخواطر، وعجت في صدره عجيج الأمواج الثائرة، فألقاها إلى الليل في النشيد التالي:

أتفنى ابتسامات تلك الجفون؟ ويخبو توهُّجُ تلك الخدود؟
وتذوِي وُرَيْداتُ تلك الشفاه؟ وتهوى إلى الترب تلك النهود؟
وينهدُّ ذاك القوامُ الرشيق وينحلُّ صدرٌ، بديعٌ، وجيد
وتربد تلك الوجوه الصِّباحُ وفتنةُ ذاك الجمال الفريد
ويغبرُّ فرْعٌ كجُنْح الظلام أنيقُ الغدائر، جعدٌ، مديد
ويُصبحُ في ظلمات القبور هباءً، حقيراً، وتُرْباً، زهيد
وينجاب سحرُ الغرام القويِّ وسُكرُ الشباب، الغرير، السعيد

* * *

أتُطوَى سماواتُ هذا الوجود؟ ويذهب هذا الفضاء البعيد؟
وتهلك تلك النجومُ القُدامى؟ ويهرم هذا الزمان العهيد
ويقضِي صباحُ الحياة البديعُ؟ وليلُ الوجود، الرهيب، العتيد!

وشـــمسٌ تـــوشّي رداء الغـــمام ؟ وبـــدرٌ يـــضيء ، وغـــيمٌ يجـــود ؟
وضـــوءٌ ، يرصّـــع مـــوجَ الغـــدير ؟ وسِـــحْرٌ ، يطـــرِّز تلـــك الـــبرود ؟
وبحـــرٌ فـــسيحٌ ، بعيـــد القـــرار ، يـــضجُّ ، ويـــدوي دويَّ الرعـــود ؟
وريـــحٌ ، تمـــرُّ مـــرورَ المَـــلاك ، وتخطـــو إلى الغـــاب خطْـــوَ الوليـــد ؟
وعاصـــفةٌ ، مـــن بنـــات الجحـــيم ، كـــأنَّ صـــداها زئـــيرُ الأســـود
تعـــجُّ ، فتـــدوِي حنايـــا الجبـــال وتمـــشي ، فتهـــوى صـــخور النُّجـــود ؟
وطـــيرٌ ، تغنِّـــي خـــلال الغـــصون وتهتـــف للفجـــر بـــين الـــورود ؟
وزهـــرٌ ، ينمِّـــقُ تلـــك الـــتلالَ وينهَـــلُ م كـــلّ ضـــوء جديـــد ؟
ويعبَـــق منـــه أريـــجُ الغـــرام ونفـــحُ الـــشباب ، الحِيـــيِّ ، الـــسعيد ؟

* * *

أيـــسطو عـــلى الكـــلِّ ليـــلُ الفنـــاء ليلهُـــو بهـــا المـــوتُ خلـــفَ الوجـــود ..
وينثرهـــا في الفَـــراغِ المخيـــف كـــما تنثـــر الـــورد ريـــحٌ شَرود
فينـــضب يـــمُّ الحيـــاة ، الخـــضم ويخمـــد روحُ الربيـــع، الوَلـــود
فـــلا يلـــثم النـــورُ سِـــحْرَ الخـــدود ولا تُنْبِـــتُ الأرضُ غَـــضَّ الـــورود ؟

* * *

كبـــيرٌ عـــلى الـــنفس هـــذا العفـــاء ! وصـــعبٌ عـــلى القلـــب هـــذا الهمـــود !
ومـــاذا عـــلى القَـــدَر المـــستمرِّ لـــو اســـتمرَأ النـــاسُ طعـــمَ الخلـــود
ولم يُخْفَـــروا بـــالخراب المحـــيط ولم يُفْجَعـــوا في الحبيـــب الـــودود
ولم يَـــسلكوا للخلـــود المرجَّـــى ســـبيلَ الـــرَّدى ، وظـــلامَ اللحـــود
فـــدامَ الـــشبابُ ، وســـحرُ الغـــرام ، وفـــنُّ الربيـــعِ ، ولطـــفُ الـــورود
وعـــاش الـــورى في ســـلامٍ ، أمـــين وعـــيشٍ ، غـــضيرٍ ، رخـــيٍّ ، رغيـــد ؟
ولكـــنْ هـــو القـــدرُ المـــستبدُّ يَلـــذُّ لـــه نوْحُنـــا ، كالنّـــشيد !

* * *

وكانت بين القبور روح فيلسوف قديم مجهول فجاءت تزور جسمها الذي أصبح رمة بالية في أحشاء التراب، فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه الروحية وحيرته الظامئة، فأرادت أن تعلمه الحكمة وتسكب في قلبه برد اليقين فخاطبته بهاته الأبيات:

تبرَّمتَ بالعيش خوف الفناء ولو دمتَ حيًّا سئمتَ الخلود
وعشت على الأرض مثل الجبال جليلاً، رهيباً، غريباً، وحيد
فلم ترتشف من رُضاب الحياة ولم تصطبح من رحيق الوجود
ولم تدر ما فتنة الكائنات وما سحر ذاك الربيع الوليد
وما نشوة الحب عند المحبِّ وما صرخة القلب عند الصدود
ولم تفتكر بالغد المستراب ولم تحتفل بالمرام البعيد
وماذا يُرجِّى ربيب الخلود من الكونِ - وهو المقيم البعيد - ؟
وماذا يودُّ، وماذا يخافُ من الكونِ - وهو المقيم الأبيد - ؟
تأمَّلْ.. ، فإنَّ نظام الحياة نظام، دقيق، بديع، فريد
فما حبَّبَ العيش إلاّ الفناء ولا زانَه غيرُ خوف اللحود
ولولا شقاء الحياة الأليم لما أدركَ الناسُ معنى السعود
ومن لم يرُعْه قطوبُ الدياجيرِ لم يغتبطْ بالصباح الجديد

* * *

وراق حديث الروح الشاعر العائش بين الهواتف والأشباح، فقال يحاورها:

إذا لم يكن من لقاء المنايا مناصٌ لمن حلَّ هذا الوجود
فأيُّ غناء لهذي الحياة وهذا الصراع، العنيف، الشديد
وذاك الجمال الذي لا يُمَلُّ وتلك الأغاني، وذاك النشيد ؟؟
وهذا الظلام، وذاك الضياء وتلك النجوم، وهذا الصعيد
لماذا نمر بوادي الزمان سِراعاً، ولكننا لا نعود
فنشرب من كل نبعٍ شراباً ومنه الرفيع، ومنه الزهيد
ومنه اللذيذ، ومنه الكريه، ومنه المُشيد، ومنه المُبيد

وتحمـــل عِبْئــاً مــن الــذكريات   وتلـــك العهـــود التـــي لا تعـــود
ونــشهد أشــكال هـــذي الوجـــوه   وفيهـــا الـــشقي ، وفيهـــا الـــسعيد
وفيهـــا البـــديع ، وفيهـــا الـــشنيع ،   وفيهـــا الوديـــع ، وفيهـــا العنيـــد
فيُـــصبح منهـــا الـــوليُّ ، الحمـــيم   ويـــصبح منهـــا العـــدو ، الحَقُـــود
وكـــلٌّ - إذا مـــا ســـألنا الحيـــاةَ -   غريـــبٌ لعمـــري بهـــذا الوجـــود
أتينــــاه مــــن عــــالَمٍ ، لا نــــراه   فُــرادى ، فــما شــأْنُ هــذي الحُقُــود ؟
ومــا شــأنُ هــذا العــداء العنيــفِ ؟   ومــا شــأن هــذا الإخــاء الــودود؟

* * *

روح الفيلسوف:

خلقنـــا لنبلـــغ شـــأو الكـــمال   ونـــصبح أهـــلاً لمجـــد الخلـــود
وتطهـــر أرواحنـــا في الحيـــاة   بنـــــار الأســـــى ... [1]
ونكـــسب مـــن عثـــرات الطريـــق   قُـــوىً ، لا تُهـــدُّ بـــدأْب الـــصعود
ومجـــداً ، يكـــون لنـــا في الخلـــود   أكاليـــلَ مـــن رائعـــات الـــورود

ومر بالمقبرة سرب من الأرواح ، في طريقها إلى العالم المجهول ؛ فطارت معها روح الفيلسوف، وخلفت عالم الشك والكآبة لأبنائه البائسين. وظل الشاعر يردد بينه وبين نفسه:

«خلقنـــا لنبلـــغ شـــأوَ الكـــمال   ونُـــصبح أهـــلاً لمجـــد الخلـــود»

ولكن أفكاره الثائرة التي لا تهدأ كانت لا تزال تلح عليه بالأسئلة الكثيرة المرهقة فقال يناجي روح الفيلسوف التي حسبها ما زالت قريبة منه:

ولكـــن إذا مـــا لبـــسنا الخلـــود   ونلنـــا كـــمال النفـــوس البعيـــد
فهـــل لا نَمَـــلُّ دوام البقـــاء ؟   وهـــل لا نـــودُّ كـــمالاً جديـــد
وكيـــف يكـــوننَّ هـــذا «الكـــمال»:   مـــاذا تـــراه ؟ وكيـــف الحـــدود؟

---

(1) هكذا ورد البيت في الديوان وفي غيره.

وإنَّ جمالَ «الكمال» «الطّموحُ» وما دام «فكراً» يُرى من بعيد
فما سِحره إنْ غداً «واقعاً» يُحسُّ ، وأصبح شيئاً شهيد ؟
وهل ينطفي في النفوس الحنين وتصبح أشواقاً في خمود
فلا تطمح النفس فوق الكمال وفوق الخلود لبعض المزيد ؟
إذا لم يَزَلْ شوْقُها في الخلودِ فذاك لعمري شقاء الجدود
وحربٌ ، ضروس ، - كما قد عهدتُ - ونصرٌ ، وكسرٌ ، وهمٌّ مديد
وإنْ زال عنها فذاك الفناء وإنْ كان في عرَصَات الخلود

* * *

كذلك ناجى الشاعر روح الفيلسوف، ولكنها كانت إذ ذاك بعيدة عنه في عالم بعيد لا يسمع نجواه، وكذلك ضاعت أسئلة الشاعر في ظلمة الليل الذي لا يسمع ولا يجيب.

في ظل وادي الموت

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 5/ 4/ 1932.

نحنُ نمشي وحولَنا هذه الأكوانُ تمشي ، لكنْ لأيّة غايهْ ..؟
نحنُ نشدو مع العصافير للشمسِ ، وهذا الربيعُ ينفخُ نايهْ .. ؟
نحنُ نتلو روايةَ الكونِ للموتِ ، ولكنْ ماذا ختام الروايه ..؟
هكذا قلتُ للرياحِ فقالتْ : سلْ ضميرَ الوجودِ كيفَ البدايهْ ؟!

* * *

وتغشَّى الضبابُ نفسي فصاحتْ في ملالٍ مرَّ : إلى أينَ أمشي ..؟
قلتُ : سيري مع الحياةِ فقالتْ : ما جنينا ترى من السيرِ أمسِ ..؟
فتهافتُّ كالهشيمِ على الأرضِ وناديتُ : أينَ يا قلبُ رفشي ؟
هاتِه ، علّني أخطُّ ضريحي في سكونِ الدجى ، وأدفنُ نفسي

* * *

هاتـــه ، فـــالظلامُ حــولي رهيــبٌ وضــبابُ الأســى مُنيخٌ عليّــا
وكـــؤوسُ الغـــرامِ أترعَهـــا الفجـــرُ . ولكـــنْ تحطّمــت في يـــديّا !
والـــشبابُ الغريـــرُ ولّى إلى المــا ضي ، وخــلَّى النحيــبَ في شــفتيّا
هاتِـــهِ يـــا فـــؤادُ إنّـــا غريبـــا ن نـــصوغُ الحيـــاةَ فنّـــاً شــجيّاً

* * *

قــد رقــصْنا مــعَ الحيــاةِ طــويلاً وشــدونا مــعَ الــشبابِ ســنينا
وعــدوْنا مـــع الليـــالي حفـــاةً في شـــعابِ الزمـــانِ حتَّـــى دُمينـــا[1]
وأكلنـــا الـــترابَ حتَّـــى مللْنـــا وشربنـــا الـــدموعَ حتَّـــى روينـــا
ونثرنـــا الأحـــلامَ والحـــبَّ والآلا مَ واليـــأس والأســـى حيـث شـــينا

* * *

ثـــمَّ مـــاذا ..؟ هـــذا أنـــا صرتُ في الـــدنيا بعيـــداً عـــن لهوِهـــا وغِناهـــا
في ظـــلامِ الفنـــاءِ ، أدفـــنُ أيّـــا مـــي ولا أســـتطيعُ حتَّـــى بُكاهـــا !
وزهـــورُ الحيـــاةِ تهـــوي بـــصمتٍ محـــزنٍ ، مـــضجرٍ ، عـــلى قـــدميّا
جـــف ســـحرُ الحيـــاةِ . يـــا قلبـــيَ البـــا كـــي فهيّـــا نجـــربِ المـــوت .. هيّـــا !

الساحرة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 19/ 7/ 1932.

راعهـــا منـــه صـــمتُه ووجومـــه وشـــجاها شـــحوبُه وســـهومُهْ
فأطلّـــت بوجهِهـــا الباســـمِ الحلـــ ـــوِ عـــلى خـــدِّه بـــسحرٍ يُهيمـــهْ
وأمـــرَّت كفـــاً عـــلى شـــعرِه العـــا ري برفـــقٍ كأنّهـــا ســـتُنيمهْ
ثـــم قالـــتْ كأنهـــا تتغنَّـــى بـــشجيٍّ مـــن الأغـــاني تلومـــه:[2]

(1) في شعاب الزمان: وردت في الديوان في شعاب الحياة.
(2) هذا البيت محذوف من الديوان.

أيُّها الطائرُ الكئيبُ تغرد   إنَّ شدوَ الطيور حلوٌ رخيمهْ
وأجبني - فدتك نفسي - ماذا ؟   أمصابٌ ؟ أم ذاك أمرٌ ترومُه ؟
بل هو الفنُّ واكتئابُه والفنّـ   ـان جمٌّ أحزانِهِ وهمومُه
أبداً يحمل الوجودَ بما فيه   كأن ليس للوجود زعيمُهْ
خلِّ عبءَ الحياةِ عنك وهيّا   بمحيّا كالصبح طلقٌ أديمه
فكثير عليك أن تحمل الدنـ   ـيا وتمشي بوقرها لا تريمه
والوجود العظيم أقعدَ في المـا   ـضي فما أنت ربه فتقيمه
وأمشي في روضة الشباب طروباً   فحواليْك ورده وكرومه
واتلُ للحبِّ والحياة أغانيـ   ـكَ وخلِّ الشقاء تدمي كلومه
واحتضني فإنّني لك حتى   يتوارى هذا الدجى ونجومه
ودعِ الحبَّ يُنشدُ الشعرَ للّيلِ   فكم يُسكر الظلامَ رنيمُه
واقطف الورد من خدودي وجيـ   ـدي ونهودي وافعل به ما ترومه
إنَّ للبيتِ لهوه الناعم الحلـ   ـو وللكون حربه وهمومه
وارتشفْ من فمي الأناشيدَ سكـ   ـرى فالهوى ساحر الدلال وسيمه
وانسَ فيَّ الحياة فالعمر قفر   مرعب إن ذوى وجفَّ نعيمه
وارْمِ لليل والضباب بعيداً   فنّك العابسَ الكثير وجومه
والهوى والشباب والمرح المعـ   ـسول تشدو أفنانه ونسيمه
هي فنُّ الحياة يا شاعري الفنـ   ـان بل لبُّ فنها وصميمه
تلك يا فيلسوف فلسفة الكو   ن ووحي الوجود هذا قديمه
وهي إنجيلي الجميل فصدقـ   ـه وإلا فللغرام جحيمه

* * *

فرماها بنظرة غشيتها   سكرة الحب والأسى وغيومه
وتلاها ببسمة رشفتها   منه سكرانة الشباب رؤومه
والتقت عندها الشفاه وغنت   قُبلٌ أجفلت لديها همومه

مـــا تريـــد الهمـــوم مـــن عـــالم ضـــا ءت مـــــسراته وغنّـــــت نجومـــــه

* * *

ليلـــــة أســـــبلَ الغـــــرامُ عليهـــــا ســـــحرَه النـــــاعمَ الطريـــــرَ نعيمُـــــه
وتغنـــــى في ظلهـــــا الفـــــرح الـــــلا هـــي فجـــف الأســـى وخـــرَّ هـــشيمه
اغـــرق الفيلـــسوفُ فلـــسفةَ الأحـــــ ــــزانِ في بحرهـــا ، فمـــن ذا يلومُـــه

* * *

إن في المـــرأة الجميلـــةِ ســـحراً عبقريـــاً يُـــذْكي الأســـى ويُنيمُـــهْ !

قصائد عام 1933

وعددها سبع عشرة قصيدة:

- الجنة الضائعة.
- من أغاني الحياة أو من أغاني الرعاة.
- للتاريخ.
- ذكرى صباح.
- الصباح الجديد.
- إرادة الحياة.
- إلى الشعب.
- متاعب العظمة.
- زوبعة في الظلام.
- السعادة.
- أيتها الحالمة بين العواصف.
- صوت من السماء.
- الرواية الغريبة.
- ألحاني السكرى.
- تحت الغصون.
- الناس.
- نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميثيوس.

الجنة الضائعة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 9/ 1/ 1933.

كــمْ مِــنْ عهــودٍ عذبــةٍ مــن عـدوةِ الــوادي النـضيرْ
فــضيّةِ الأســحارِ مذّهبــةِ الأصــائلِ والبكــورْ
كانــتْ أرقَّ مــن الزهــورِ ومِــنْ أغاريــدِ الطيــورْ
وألــذَّ مــن ســحرِ الـصِبا في بـسمةِ الطفـلِ الغريـرْ
قــضَّيتُها ومعــي الحبيبــةُ لا رقيــبَ ولا نــذيرْ
إلاَّ الطفولــةُ حولَنــا تلهــو مــع الحُــبِّ الـصغيرْ
أيّــامَ كانــتْ للحيــاةِ حــلاوةُ الــروضِ المطــيرْ
وطهــارةُ المــوجِ الجميــلِ ، وســحرُ شــاطئهِ المنــيرْ
ووداعــةُ العــصفورِ بــينَ جــداولِ المــاءِ النمــيرْ
أيــامَ لم نعــرفْ مــن الــدنيا ســوى مَــرَحِ الــسرورْ
وتتبُّــعِ النحــلِ الأنيــقِ وقطــفِ تيجــانِ الزهــورْ
وتــسلُّقِ الجبــلِ المكلّــلِ بالــصنوبرِ والــصخورِ
وبنــاءِ أكــواخِ الطفولــةِ تحــتَ أعــشاشِ الطيــورْ
مــسقوفة بــالورد ، والأعــشاب ، والــورق النــضير
نبنــي فتهــدُمها الريــاحُ فــلا نــضجُّ ولا نثــورْ
ونعــودُ نــضحكُ للمــروجِ وللزنــابقِ والغــديرْ
ونخاطِــبُ الأصــداءَ ، وهــي تــرفُّ في الــوادي المنــيرْ
ونعيــدُ أغنيــةَ الــسواقي وهــيَ تلغــو بــالخريرْ
ونظــل نــركضُ خلــفَ أسرابِ الفــراشِ المــستطيرْ
ونفــرُّ مــا بــينَ المــروجِ الخـضرِ في سُــكرِ الـشعورْ
نــشدو ونــرقصُ كالبلابــلِ ، للحيــاةِ وللحبــورْ
ونظــل ننثــرُ للفــضاءِ الرحــبِ والنهــرِ الكبــيرْ

مـــا في فؤادِنـــا مـــن الأحـلامِ أو حلـــوِ الغـــرورْ
ونـــشيدُ في الأفـــقِ المنـوّرِ مـــن أمانينـــا قـــصورْ
أزهـــى مـــن الـــشفَقِ الجميـــلِ ورونـــقِ المـــرجِ الخـــضيرْ
وأجـــلَّ مـــن هـــذا الوجـــودِ وكـــل أمجـــادِ الـــدهورْ
أبـــداً، تـــدلّلُنا الحيـــاةُ بكـــلِّ أنـــواعِ الـــسرورْ
وتبـــث فينـــا مـــن مـــزاح الكـــونِ مـــا يُغـــوي الوَقـــورْ
فنـــسيرُ، نُنـــشدُ لهوَنـــا المعبـــودَ في كـــلِّ الأمـــورْ
ونظـــل نعبـــثُ بالجليـــلِ مـــن الوجـــودِ وبـــالحقير:
بالـــسائِلِ الأعمـــى، وبـــالمعتوهِ، والـــشيخِ الكبـــيرْ
بالقطّـــةِ البيـــضاءِ، بالـــشاةِ الوديعـــةِ، بـــالحميرْ
بالعـــشْبِ، بـــالفننِ المنـــوِّرِ، بالـــسنابلِ، بالـــسفيرْ
بالرمـــلِ، بالـــصَّخرِ المحطّـــم، بالجـــداولِ، بالغـــديرْ
واللهـــوُ والعبـــثُ الـــبريءُ الحلـــوُ مطمحنُـــا الأخـــيرْ
ونظـــل نقفـــزُ، أو نُغنِّـــي، أو نثرثـــرُ أو نـــدورْ
لا نـــسأمُ اللهـــوَ الجميـــلَ، ولـــيسَ يـــدركُنا الفتـــورْ
فكأنّنـــا نحيـــا بأعـــصابٍ مـــن المـــرحِ المثـــيرْ
وكأنّنـــا نمـــشي بأقـــدامٍ مجنّحـــةٍ تطـــيرْ
أيّـــامَ كنـــا لـــبَّ هـــذا الكـــونِ، والبـــاقي قـــشورْ
أيّـــامَ تَفـــرُشُ سُـــبْلَنَا الـــدنيَا بـــأوراقِ الزهـــورْ
وتمـــر أيـــامُ الحيـــاةِ بنـــا، كـــأسراب الطيـــورْ
بيـــضاءَ، لاغيـــةً، مغـــردةً، مجنّحـــةً بنـــورْ
وترفـــرفُ الأفـــراحُ فـــوقَ رؤوســـنا أنّـــى نـــسيرْ

* * *

آه تـــوارى فجـــري القـــدسيُّ في ليـــلِ الـــدهورْ
وفنـــى، كـــما يفنـــى النـــشيدُ الحلـــوُ، في صـــمتِ الأثـــيرْ

أواهُ! قد ضاعتْ عليّ سعادةُ القلبِ الغريرْ
وبقيتُ في وادي الزمانِ الجهنم أدأبُ في المسيرْ
وأدوسُ أشواكَ الحياةِ بقلبيَ الدامي الكسيرْ
وأرى الأباطيلَ الكثيرةَ والمآثمَ والشرورْ
وتصادُمِ الأهواءِ بالأهواءِ في كلِّ الأمورْ
ومذلّةَ الحقِّ الضعيفِ وعزةَ الظلمِ القديرْ!
وأرى ابن آدمَ سائراً في رحلةِ العمرِ القصيرْ
ما بينَ أهوالِ الوجود، وتحتَ أعباء الضميرْ
متسلّقاً جبلَ الحياةِ الوعرِ كالشيخِ الضريرْ
دامي الأكف، ممزَّق الأقدامِ، مغبرَّ الشعورْ
مترنِّحَ الخطواتِ ما بينَ المزالقِ والصخورْ
هالتْهُ أشباحُ الظلامِ، وراعهُ صمتُ القبورْ
ودويُّ إعصارِ الأسى، والموتِ في تلكَ الوعورْ!

* * *

ماذا جنيت من الحياةِ ومن تجاريبِ الدهورْ
غيرَ الندامةِ والأسى واليأس والدمعِ الغزيرْ؟
هذا حصادي من حقولِ العالم الرحبِ الخطيرْ!
هذا حصادي كلّه في يقظةِ العهدِ الأخيرْ!

* * *

قد كنتُ في زمنِ الطفولةِ والسذاجةِ والطهورْ
أحيا كما تحيا البلابلُ والجداولُ والزهورْ
لا أحفلُ، الدنيا تدورُ بأهلِها أو لا تدورْ
واليومَ أحيا مُرْهَقَ الأعصابِ مشبوبَ الشعورْ
متأجِّجَ الإحساسِ، أحفلُ بالعظيمِ وبالحقيرْ
تمشي على قلبي الحياةُ، ويزحفُ الكونُ الكبيرْ!

هذا مصيري ..

يا بَني الدنيا ..

فما أشقى المصيرْ !!

السعادة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 23/ 1/ 1933 .

ترجو السعادةَ يا قلبي ولو وُجِدَتْ — في الكونِ لم يشتعلْ حُزْنٌ ولا ألَمُ
ولا استحالتْ حياةُ الناسِ أجمعُها — وزُلزلتْ هاتِه الأكوانُ والنُّظُمُ
فما السعادة في الدُّنيا سوى حُلُمٍ — ناءٍ تُضَحّي له أيّامها الأمَمُ
ناجتْ به الناسَ أوهامٌ مُعَرْبِدَةٌ — لَمّا تَغَشَّتْهُمُ الأحلامُ والظُّلَمُ
فَهَبَّ كُلٌّ يُناديهِ ويَنْشُدُهُ — كأنما الناسُ ما ناموا ولا حَلُمُوا(1)

* * *

خُذ الحياةَ كما جاءتك مبتسماً — في كفِّها ، الغارُ أو في كفِّها العدم
وارقصْ على الوَردِ والأشواكِ مُتَّئِداً — غنَّتْ لك الطيرُ ، أو غنَّت لك الرُّجُمُ
واعملْ كما تأمُرُ الدُّنيا بلا مَضَضٍ — والجِمْ شُعورَكَ فيها ، إنها صَنَمُ
فَمَنْ تألّمَ لم تُرْحَمْ مضاضتُهُ — ومَنْ تجلّدَ لم تَهْزأ به القِمَمُ
هذي سعادةُ دُنيانا ، فكن رجُلاً — إن شِئْتَها - أَبَدَ الآبادِ - يبتسم !
وإنْ أردتَ قضاء العيش في دَعَةٍ — شِعْرِيَّةٍ لا يُغَشّى صَفْوَها نَدَمُ
فاتْرُكْ إلى الناس دُنياهم وضجَّتَهمْ — وما بنَوْا لنظام العيْش أو رَسَمُوا
واجعلْ حياتك دَوْحاً مُزْهِراً نَضِراً — في عزلةِ الغابِ يَنْمو ثم يَنْعَدِمُ
واجعل لياليك أحلاماً مُغَرِّدةً — إن الحياةَ وما تُدوِي به حُلُمُ !

---

(1) حلم: كان ذا حلم، أي ذا عقل.

من اغاني الحياة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 6/ 2/ 1933، وقد نظمها عندما كان يستشفي بـ «عين دراهم» فوق الطبيعة العذراء الساحرة، والغابات الملتفة الهائلة، والجبال الشاهقة المجللة بالسنديان.

أقبــلَ الــصبحُ يغنّــي للحيــاةِ الناعــسهْ
والربــى تحلــمُ في ظــلِّ الغــصونِ المائــسهْ
والــصبا تُــرقص أوراقَ الزهــورِ اليابــسهْ
وتهــادى النــورُ في تلــكَ الفجــاجِ الدامــسهْ

* * *

أقبــلَ الــصبحُ جمــيلاً يمــلأ الأفــقَ بَهــاهْ
فتمطّــى الزهــرُ والطــيرُ وأمــواجُ الميــاهْ
قــد أفــاقَ العــالمُ الحــيُّ، وغنَّــى للحيــاهْ!
فــأفيقي يــا خِــرافي وهلمــي يــا شــياهْ

* * *

واتبعينــي يــا شــياهي بــينَ أسرابِ الطيــورْ
واملئــي الــوادي ثغــاءً ومراحــاً وحبــورْ
واســمعي همــسَ الــسواقي وانــشقي عطــرَ الزهــورْ
وانظــري الــوادي يُغــشِّيه الــضبابُ المــستنيرُ
واقطفــي مــن كــلأ الأرضِ ومرعاهــا الجديــدْ
واســمعي شــبابتي تــشدو بمعــسولِ النــشيدْ
نغــمٌ يــصعدُ مــن قلبــي كأنفــاسِ الــورودْ
ثــمَّ يــسمو طــائراً كالبلبــلِ الــشادي الــسعيدْ

* * *

وإذا جئنــا إلى الغــابِ وغطَّانــا الــشجرْ
فــاقطفي مــا شــئتِ مــن عــشبٍ وزهــرٍ وثمــرْ

أرضــــعتْه الـــــشمسُ بالـــضوءِ وغـــذَّاه القمـــرْ
وارتـــوى مـــن قطـــراتِ الطـــلِّ في وقـــتِ الـــسحرْ

* * *

وامرحـــي مـــا شـــئتِ في الوديـــانِ أو فـــوقَ الـــتلالْ
واربـــضي في ظلِّهـــا مـــا شـــئتِ إنْ خفـــتِ الكـــلالْ[1]
وامـــضغي الأعـــشابَ والأفكـــارَ في صـــمتِ الظـــلالْ
واســـمعي الـــريحَ تُغنـــي في شـــماريخِ الجبـــالْ

* * *

إن في الغـــابِ أزاهـــيراً وأعـــشاباً عِـــذابْ
يُنـــشدُ النحـــلُ حواليْهـــا أهازيجـــاً طِـــرابْ
لم تـــدنِّسْ عطرَهـــا الطـــاهرَ أنفـــاسُ الـــذئابْ
لا ولا طـــافَ بهـــا الثعلـــبُ في بعـــضِ الـــصحابْ
وشـــذاً حلـــواً، وســـحراً وســـلاماً وظـــلالْ
ونـــسيماً ســـاحرَ الخطـــوة موفـــورَ الـــدلالْ
وغـــصوناً يـــرقصُ النـــورُ عليْهـــا والجـــمالْ
واخـــضراراً أبـــدياً لـــيسَ تمحـــوه الليـــالْ

* * *

لـــن تَمَـــلِّي يـــا خـــرافي في حمـــى الغـــابِ الظليـــلْ
فزمـــان الغـــابِ طفـــلٌ لاعـــبٌ عـــذبٌ جميـــلْ
وزمـــانُ النـــاس شـــيخٌ عـــابسُ الوجـــهِ ثقيـــلْ
يتمـــشَّى في مـــلالٍ فـــوقَ هاتيـــكَ الـــسهولْ

* * *

لـــك في الغابـــات مرعـــاكِ ومـــسعاكِ الجميـــلْ

---

(1) ورد البيت في الديوان: واربضي في ظلها الوارف إن خفت الكلال.

وليَ الإنــــشادُ والعــــزفُ إلى وقــــتِ الأصــــيلْ
فــإذا طالــتْ ظــلالُ الكــلأ الغــضِّ الــضئيلْ
فهلمِّــي نُرجــع المــسعى إلى الحــيِّ النبيــلْ

أيتها الحالمة بين العواصف

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 11/ 2/ 1933.

أنــت كــالزهرة الجميلــةِ في الغــابِ ولكــنْ مــا بــينَ شــوكٍ ودودِ
والريــاحينُ تحــسبُ الحــسَكَ الــشرِّيــرَ والــدودَ مــن صنوفِ الــورودِ
فــأفهمي النــاسَ : إنــما النــاس خَلْــقٌ مفــسدٌ في الوجــودِ غــيرُ رشــيدِ
والــسعيدُ الــسعيدُ مــن عــاش كالليــل غريبــاً في أهــلِ هــذا الوجــودِ
ودعــيهمْ يحيــونَ في ظلمــةِ الإثــمِ وعيــشي في طهــرك المحمــودِ
كــالملاكِ الــبريءِ ، كــالوردةِ البيــضاء كــالموجِ في الخــضمِّ البعيــدِ
كأغــاني الطيــورِ ، كالــشفقِ الــساحر كالكوكــبِ البعيــدِ الــسعيدِ
كثلــوجِ الجبــالِ ، يغمرُهــا النــورُ وتــسمو عــلى غبــارِ الــصعيدِ

* * *

أنــتِ تحــتَ الــسماءِ روحٌ جميــل صــاغهُ اللهُ مــن عبــيرِ الــورودِ
وبنــو الأرضِ كــالقرودِ ، ومــا أضــيَعَ عطــرَ الــوردِ بــينَ القــرودِ
أنــتِ مــن ريشةِ الإلــهِ ، فــلا تُلــقي بفــنِّ الــسما لجهــلِ العبيــدِ
أنــتِ لم تُخلقــي ليقربَــكِ النــاسُ ولكــن لتُعبــدي مــن بعيــدِ !!

للتاريخ

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ 16/ 2/ 1933.

البــؤسُ لابــن الــشعب يأكــل قلبــه والمجــد ، والإثــراءُ للأغــراب

والشعب معصوب الجفون، مقسَّم كالشاة، بين الذئب والقصاب
والحق مقطوعُ اللسان مكبَّل والظلم يمرح مُذْهَب الجلباب
هذا قليلٌ من حياةٍ مُرَّة في دولة الأنصاب والألقاب

صوت من السماء

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 8/ 3/ 1933، وبيّن الشاعر رأيه فيها بأن الفجر لا يولد في الطبيعة إلا من الظلام.

في الليل ناديتُ الكواكب ساخطاً متأجِّجَ الآلام والآراب:
«الحقلُ يملكه جبابرة الدجى والروض يسكنه بنو الأرباب»
«والنهر، للغول المقدسة التي لا ترتوي. والغاب للحطّاب»
«وعرائس الغاب الجميلِ، هزيلةٌ ظمآى لكل جَنّي، وكل شراب»
«ما هذه الدنيا الكريهةُ؟ ويلَها! حَقّتْ عليها لعنة الأحقاب!»
«الكونُ مُصْغ، يا كواكبُ، خاشعٌ طال انتظاري، فانطقي بجواب!»

* * *

فسمعتُ صوتاً ساحراً، متموِّجاً فوق المروج الفيحِ، والأعشاب
وحفيفَ أجنحةٍ ترفرف في الفضا وصدىً يَرنُّ على سكون الغاب: «
«الفجرُ يولدُ باسماً، مُتهَلِّلاً في الكونِ، بين دُجنَّةٍ وضباب»

ذكرى صباح

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 9/ 3/ 1933.

قدَّس الله ذكره من صباح ساحرٍ، في ظِلال غاب جميل
كان فيه النسيم، يرقص سكراناً على الورد، والنبات البليل
وضَباب الجبال، ينساب في رفقٍ بديعٍ، على مروج السهول

وأغاني الرعاةِ ، تخفقُ في الأغوارِ   والسهلِ ، والربا ، والتلول
ورحابُ الفضاءِ ، تعبقِ بالألحانِ   والعطرِ ، والضياء الجميل
والمَلاكُ الجميلُ ، ما بين ريحانٍ   وعُشْبٍ ، وسِنديانٍ ، ظَليل
يتغنَّى مع العصافير ، في الغاب   ويرنو إلى الضباب الكسول
وشعور الملاك ترقص بالأزهار   والضوء ، والنسيم ، والعليل

* * *

حُلمٌ ساحرٌ ، به حلمَ الغابُ   فواهاً لحلْمه المعسول !
مثل رؤيا تلوح للشاعر الفنَّان   في نشوة الخيال الجليل
قد تملّيْتُ سِحرَهُ في أناةٍ   وحنانٍ ، ولذةٍ ، وذهول
ثم ناديتُ ، حينما طفح السِّحر   بأرجاء قلبيَ المتبول
يا شعورٌ تميد في الغاب بالر   يحان ، والنور ، والنسيم البليل
كَبِّليني بهاته الخُصَلِ المُرْخاةِ   في فتنةِ الدَّلالِ المُلول
كبلي يا سلاسلَ الحبِّ أفكا   رِي ، وأحلامَ قلبيَ الضِّلِّيل
كبِّليني بكل ما فيكِ من عِطرٍ   وسحرٍ مقدّسٍ ، مجهول
كبِّليني ، فإنما يُصبح الفنَّان   حرّاً ، في مثل هذي الكبول

* * *

ليت شعري ! كم بين أمواجِكِ السو   دِ ، وطيَّاتِ ليلِكِ المسدول
من غرامٍ ، مُذَهَّبِ التاجِ ، ميْتٍ   وفؤادٍ ، مُصَفَّدٍ ، مغلول
وزهورٍ من الأمانيِّ تَذوِي   في شحوبٍ ، وخيبةٍ ، وخمول
أنتِ لا تعلمين .. ، والليلُ لا يعلم   كم في ظلامِه من قَتيل
أنتِ أرْجُوحَةُ النسيمِ فميلي   بالنسيمِ السعيدِ كلَّ مَميل
والبثي للورودِ والظِّلِّ ، والأضواء   في عُرْيكِ ، الجميلِ ، النبيل
ودَعِي الشمسَ والسماء تُسَوِّي   لكِ تاجاً ، من الضياء الجميل
ودعي مُزْهِرَ الغصونِ يُغَشِّـ   ـكِ بأوراق وَردِه المطلول

* * *

للشعاع الجميلِ أنتِ، وللأنسا | مِ، والزهرِ، فالعَبي، وأطيلي
ودعي للشقيِّ أشواقَه الظمْأى | وأوهامَ ذِهْنِه المعلول
يا عروسَ الجبالِ، يا وردةَ الآ | مالِ، يا فتنةَ الوجودِ الجليل
ليتني كنتُ زهرةً، تتثنَّى | بين طيات شَعْرِكِ المصقول !
أو فَراشاً، أحومُ حولكِ مسحوراً | غريقاً، في نشوتي، وذهولي !
أو غصوناً، أحنو عليكِ بأوراقي | حُنُوَّ المُدَلَّهِ، المتبول !
أو نسيماً، أضمُّ صدرَكِ في رِفْقٍ، | إلى صدْرِيَ، الخفوقِ، النحيل
آه ! كم يُسْعِدُ الجمالُ، ويُشْقِي | من قلوبٍ شعْرِيَّةٍ، وعقول ...

الرواية الغريبة

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ 17/ 3/ 1933.

ضحكنا على الماضي البعيد وفي غدٍ | ستجعلُنا الأيامُ أضحوكةَ الآتي
وتلكَ هي الدنيا روايةُ ساحرٍ | عظيمٍ، غريبِ الفن مبدعِ آياتِ
يمثِّلها الأحياءُ في مسرح الأسى | ووسطَ ضبابِ الهمِّ تمثيلَ أمواتِ
ليشهدَ من خلفِ الضبابِ فصولَها | ويضحك منها من يمثِّلُ ما يأتي
وكلٌّ يؤدي دوره ... وهو ضاحكٌ | على الغير مضحوكٍ على دورِه العاتي !

الصباح الجديد

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 9/ 4/ 1933، وتعتبر واحة من الأمل والتفاؤل في مفازة الحزن الكبير، بث خلال أبياتها فرحه وعبّر عن إيمانه بالحياة وجدواها.

اسكني يا جراحْ | واسكتي يا شجونْ
مات عهدُ النواحْ | وزمانُ الجنونْ

وأطــــــلَّ الــــــصباحْ　　　مـــــن وراءِ القـــــرونْ

* * *

في فجـــــاجِ الهـــــوى　　　قـــــد دفنـــــتُ الألمْ[1]

ونثـــــرتُ الـــــدموعْ　　　لريـــــاحِ العـــــدمْ

واتخـــــذتُ الحيـــــاة　　　معزفـــــاً للـــــنغمْ

أتغنّـــــى عليـــــهِ　　　في رحـــــابِ الزمـــــانْ

* * *

وأذبـــــت الأســـــى　　　في جمـــــالِ الوجـــــودْ

ودحـــــوت الفـــــؤادْ　　　واحـــــةً للنـــــشيدْ

والـــــضِّيا والظـــــلال　　　والـــــشذى والـــــورود

والهـــــوى والـــــشبابْ　　　والمنـــــى والحنـــــانْ

اســـــكني يـــــا جـــــراحْ　　　واســـــكتي يـــــا شـــــجونْ

مـــــات عهـــــدُ النـــــواحْ　　　وزمـــــانُ الجنـــــونْ

وأطـــــلَّ الـــــصباحْ　　　مـــــن وراء القـــــرونْ

* * *

في فـــــؤادي الرحيـــــبْ　　　معبـــــدٌ للجـــــمالْ

شـــــيدته الحيـــــاة　　　بـــــالرؤى والخيـــــالْ

فتلـــــوتُ الـــــصلاةْ　　　في خـــــشوعِ الظـــــلالْ

وحرقـــــتُ البخـــــورْ　　　وأضـــــأتُ الـــــشموعْ

* * *

إنَّ ســـــحرَ الحيـــــاةْ　　　خالـــــدٌ لا يـــــزولْ

فعـــــلامَ الـــــشكاة　　　مـــــن ظـــــلامٍ يحـــــولْ

ثـــــم يـــــأتي الـــــصباحْ　　　وتمـــــرُّ الفـــــصول

---

(1) الهوى: وردت في الديوان الردى.

سوفَ يأتي ربيعْ | إن تقضَّى ربيعْ

* * *

اسكني يا جراحْ | واسكتي يا شجونْ
ماتَ عهدُ النواحْ | وزمانُ الجنونْ
وأطلَّ الصباحْ | من وراء القرونْ

* * *

من وراء الظلامْ | وهديرِ المياهْ
قد دعاني الصباحْ | وربيعُ الحياهْ
يا لهُ من دعاء | هزّ قلبي صداهْ
لم يعدْ لي بقاء | فوقَ هذي البقاعْ
«ألوداعُ الوداعْ | يا جبالَ الهمومُ»
«يا ضبابَ الأسى | يا فجاجَ الجحيمْ»
«قد جرى زورقي | في الخضمِّ العظيمْ»
«ونشرتُ القلاعْ | فالوداعُ الوداعْ !! »

ألحاني السكرى

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 15/ 9/ 1933 .

قد سكرنا بحبِّنا واكتفينا | يا مديرَ الكؤوس فاصرفْ كؤوسك
واسكبِ الخمرَ للعصافير والنحـ | ـل وخلِّ الثرى يضمُّ عروسَك

* * *

ما لنا والكؤوس نطلب منها | نشوةً والغرام سحرٌ وسكرُ ؟!
خلِّنا منكَ فالربيعُ لنا سا | قٍ وهذا الفضاءُ كأسٌ وخمرُ !

* * *

نحـــنُ نحيـــا كـــالطيرِ في الأفـــق الـــ ـــساجي وكالنحـلِ فـوق غَـضِّ الزهـور
لا نـــرى غـــيرَ فتنـــةِ العـــالمِ الحـــيِّ وأحـــــلامَ قلبهـــا المـــسحورِ !

* * *

نحـــن نلهـــو تحـــتَ الظـــلام كطفليْـــ ـــن سـعيديْن في غـرورِ الطفولــهْ
وعـــلى الـــصخرة الجميلـــة في الـــواد ي وبـــين المخـــاوف المجهولـــهْ

* * *

نحـــنُ نغـــدو بـــين المـــروجِ ونمـــسي ونغنّـــي مـــع النـــسيمِ المغنـــي
ونناجي روحَ الطبيعـــةِ في الكـــو نِ ونُـــصغي لقلبِهـــا المتغنّـــي

* * *

نحـــنُ مثـــل الربيـــعِ نمـــشي عـــلى أر ضٍ مـــن الزهـــرِ والـــرؤى والخيـــالِ
فوقهـــا يـــرقصُ الغـــرامُ ويلهـــو ويغنّـــي في نـــشوةٍ ودلالِ

* * *

نحـــنُ نحيـــا في جنَّـــة مـــن جنـــانِ الـــسحـ ـــرِ في عـــالمٍ بعيـــدٍ ... بعيـــدِ
نحـــن في عُـــشنا المـــوَرَّدِ ، نتلـــو سُـــوَرَ الحـــبِّ للـــشباب الـــسعيدِ !

* * *

قـــد تركنـــا الوجـــودَ للنـــاسِ فليقـــضـ ـــوا الحيـــاة كيـــف أرادوا
وذهبنـــا بلبِّـــه ، وهـــو روحٌ وتركنـــا القـــشورَ ، وهـــي جمـــاد

* * *

قـــد ســـكرنا بحبنـــا واكتفينـــا طفـــح الكـــأسُ فـــاذهبوا يـــا ســـقاةُ
نحـــن نحيـــا فـــلا نريـــدُ مزيـــداً حـــسبُنا مـــا منحتِنـــا يـــا حيـــاةُ

* * *

حـــسبُنا زهونـــا الـــذي نتنـــشى حـــسبُنا كأســـنا التـــي نترشـــفْ
أن في ثغرنـــا رحيقـــاً سماويـــ ـــاً وفي قلبنـــا ربيعـــاً مفـــوفْ ... !

* * *

أيُّهــا الــدهرُ أيُّهــا الــزمن الجا ري إلى غــير وجهــةٍ وقــرارِ
أيُّهــا الكــونُ أيُّهــا الفلــكُ الــدوّ ارُ ، بــالفجر ، والــدجى والنهــارِ

* * *

أيُّهــا المــوتُ أيُّهــا القَــدَرُ الأعــ ـمى ! قفـوا حيث أنـتمُ ، أوْ فـسيروا
ودعونــا هنــا تغنّــي لنــا الأحــ ـلامُ والحــبُّ والوجــودُ الكبــيرُ

* * *

وإذا مــا أبيــتم فاحملونــا ولهيــب الغــرامِ في شــفتيْنا
وزهــورُ الحيــاةِ تعبــقُ بالعطـ ـرِ وبالــسحرِ والــصبا في يــديْنا

إرادة الحياة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 16/ 9/ 1933.

إذا الــشعبُ يومــاً أرادَ الحيــاة فــلا بــدَّ أن يــستجيبَ القــدَرْ !!
ولا بــدَّ لليــلِ أن يــنجلي ولا بــدَّ للقيــدِ أن ينكــسرْ !!
ومــن لم يعانقْــه شــوق الحيــاة تبخّــر في جوِّهــا وانــدثرْ
فويــل لمــن لم تــشقه الحيــاة مــن صــفعة العــدم المنتــصرْ
كــذلك قالــت لي الكائنــات وحــدَّثني روحُهــا المــستترْ

* * *

ودمــدمتِ الــريح بــينَ الفِجــاجِ وفــوقَ الجبــالِ وتحــتَ الــشجرْ :
«إذا مــا طمحــتُ إلى غايــةٍ لبــستُ المنــى وخلعــتُ الحــذرْ !
ولم أتخــوَّفْ وعــورَ الــشِعابِ ولا كبّــةَ اللهــبِ المــستعرْ[1]
ومــن لا يُحــبُّ صــعودَ الجبــال يعــشْ أبــدَ الــدَّهرِ بــين الحفــرْ» !
فعجّــت بقلبــي دمــاءُ الــشباب وضــجّت بــصدري ريــاحٌ أخــرْ

(1) أتخوف: جاءت في الديوان: أتجنب.

وأطرقتُ أصغي لقصف الرعود وعزف الرياح، ووقعِ المطرْ
وقالت لي الأرضُ لما تساءلت يا أمَّ هل تكرهين البشرْ ؟! :
«أبارك في الناسِ أهلَ الطموحِ ومن يستلذّ ركوبَ الخطرْ !
وألعن من لا يماشي الزمان ويقنعُ بالعيشِ عيشَ الحُجرْ !
هو الكون حي يُحبُّ الحياةَ ويحتقرُ الميِّتَ المندثرْ !
فلا الأفقُ يحضُنُ ميتَ الطيورِ ولا النحلُ يَلثمُ ميتَ الزهرْ !
ولولا أمومةُ قلبي الرؤوم لما ضمت الميتَ، تلك الحفرْ !
فويل لمن تَشُقْهُ الحياة من لعنةِ العَدَم المنتصرْ» !

* * *

وفي ليلة من ليالي الخريف مثقلةٍ بالأسى والضجرْ
سكرتُ بها من ضياءِ النجومِ وغنّيت للحزن حتى سَكِر !1
سألت الدجى هل تعيد الحياة لما أذبلته ربيع العمر ؟
فلمْ تتكلم شفاه الظلام ولم تترنّم عذارى السَحَرْ
وقال لي الغاب في رقةٍ محببةٍ مثل خفق الوتَرْ:
«يجيءُ الشتاءُ شتاء الضباب شتاء الثلوج شتاء المطرْ
فينطفئ السحر، سحرُ الغصونْ وسحرُ الزهور، وسحر الثمر
وسحر السماءِ الشجي الوديع وسحر المروج الشهي العَطِر
وتهوي الغصون وأوراقُها وأزهار عهد حبيب نَضِرْ
وتلهو بها الريحُ في كلِّ واد ويدفنها السيل أنّى عَبَرْ
ويفنى الجميعُ كحلمٍ بديع تألّق في مهجةٍ واندثَرْ
وتبقَى البذورُ التي حَملتْ ذخيرةَ عمرٍ جميلٍ غبرْ
وذكرى فصولٍ، ورؤيا حياة وأشباحَ دنيا تلاشت زُمَرْ
معانقةً وهي تحت الضباب وتحتَ الثلوج وتحتَ المدَرْ
لِطَيْفِ الحياة الذي لا يُمَلّ وقلب الربيع الشذي الخضر
وحالمةً بأغاني الطيور وعُطرِ الزهورِ، وطعمِ الثّمَرْ

ويمشي الزمانُ، فتنمو صروفٌ ... وتذوي صروفٌ، وتحيا أُخَرْ
وتصبح أحلامها يقظةً ... موشّحةً ببرداءِ السّحَرْ
تُسائلُ: أينَ ضبابُ الصباح ... وسحرُ المساء، وضوءُ القمرْ
وأسرابُ ذاك الفراشِ الأنيق ... ونحلٌ يغنّي، وغيمٌ يَمُرْ؟
وأين الأشعة والكائنات ... وأين الحياة التي أنتظر
ظمئتُ إلى النورِ فوقَ الغصونِ ... ظمئتُ إلى الظلِّ تحتَ الشجرْ
ظمئتُ إلى النبعِ بينَ المروجِ ... يُغنّي ويرقصُ فوقَ الزَهرْ
ظمئت إلى نغمات الطيور ... وهمس النسيم ولحن المطر
ظمئتُ إلى الكونِ.. أينَ الوجودِ ... وأنى أرى العالَمَ المنتظرْ؟!
هو الكون خلف سبات الجمود ... وفي أفق اليقظاتِ الكُبَرْ!
وما هو إلاّ كخفق الجناح ... حتى نما شوقها وانتصرْ!
فصدّعت الأرض من فوقها ... وأبصرت الكون عذب الصورْ!
وجاء الربيع بأنغامه ... وأحلامِه وصباه العطر
وقبّلها قبلاً في الشفاه ... تُعيدُ الشبابَ الذي قد غبرْ
وقال لها قد منحتُ الحياة ... وخلّدتُ من نسلِكِ المدَّخَرْ
وباركك النور فاستقبلي ... شباب الحياة وخصب العمر
ومن تعبد النورَ أحلامُهُ ... يباركُهُ النورُ أنّى ظهرْ!
إليكِ الفضاء إليكِ الضياء ... إليك الثرى الحالم المزدهرْ!
إليكِ الجمال الذي لا يبيد ... إليك الوجود الرحيب النضر
فميدي كما شئتِ فوق الحقول ... بحلو الثمار، وغضِّ الزَهَرْ
وناجي النسيم وناجي الغيومَ ... وناجي النجومَ، وناجي القمر
وناجي الحياة وأشواقها ... وفتنة هذا الوجود الأغر

* * *

وشفّ الدجى عن جمالٍ عميقٍ ... يشبُّ الخيال ويذكي الفكر
ومُدّ على الكون سحر غريب ... يُصرِّفه ساحر مقتدِرْ

وضــاءت شــموع النجـوم الوضــاء ... وضــاع البخــور ، بخــور الزهــر
ورفــرف روح غريــب الجــمال ... بأجنحــةٍ مــن ضــياء القمــر
ورنَّ نــشيدُ الحيـاة المقــدَّ ... س في هيكــل حــالم قــد سُــحِر
وأُعلــنَ في الكــون أن الطمــوحَ ... لهيــب الحيــاة وروحُ الظفَــرْ
إذا طَمحَــتْ للحيــاة النفــوس ... فــلا بــد أن يــستجيب القــدر !!

تحت الغصون

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 21/ 9/ 1933.

هاهنــا في خمائــلِ الغــاب ، تحــتَ الــزانِ ... والــسنديان والزيتــون
أنــتِ أشــهى مــن الحيــاةِ وأبهــى ... مــن جمــالِ الطبيعــة الميمــونِ
مــا أرقَّ الــشبابَ في جــسمِكِ الغــضِّ ... وفي جيــدكِ البــديعِ الثمــين !
وأدقَّ الجــمالَ في طرفِــكِ الــساهي ... وفي ثغــركِ الجميــلِ الحــزينِ !
وألـــذَّ الحيـــاةَ حـــين تُغنـــينَ ... فأصــغي لــصوتِكِ المحــزونِ
وأرى روحَــكِ الجميلــةَ عطــراً ... ضــائعاً في حــلاوة التلحــينِ !
قــد تغنَّيــتُ منــذ حــينٍ بــصوتٍ ... نــاعم ، حــالم ، شــجيٍّ حنــونِ
نَغَــماً كالحيــاة عــذْباً عميقــاً ... في حنــانٍ ، ورقــة ، وحنــينِ
فــإذا الكــونُ قطعــةٌ مــن نــشيدٍ ... علــويٍّ ، مــنغَّمٍ ، مــوزونِ
فلمــنْ كنــتِ تُنــشدين ؟ فقالــتْ : ... «للــضياءِ» البنفــسجيِّ الحــزينِ
للــضبابِ المــورَّد المــتلاشي ... كخيــالاتِ حــالمٍ مفتــونِ
للمــساءِ المطــلِّ ، للــشَّفقِ الــساجي ... لــسحرِ الأســى ، وســحرِ الــسكون
للعبــيرِ الــذي يرفــرفُ في الأفــقِ ... ويفنــى ، مثــلَ المنــى في ســكونِ
للأغــاني التــي يردِّدهــا الراعــي ... بمزمــارِه الــصغيرِ الأمــينِ
للربيــعِ الــذي يــؤجِّج في الــدنيا ... حيــاةَ الهــوى وروحَ الحنــينِ
ويــوشِّي الوجــودَ بالــسحرِ والأحــلامِ ... والزهــرِ والــشذى واللحــونِ

للحيـــاةِ التــي تغنِّــي حــواليَّ ... عـــلى الســهلِ ، والربــى ، والحــزونِ
للينـــابيعِ ، للعـــصافيرِ، للظـــلِّ ، ... لهـــذا الثـرى ، لتلـــكَ الغـصونِ
للنـسيمِ الــذي يُـضمِّخُ أحلامــي ... بعطـــرِ الأقـــاحِ والليمـــونِ
للجـمالِ الـذي يفـيضُ عـلى الـدنيا ... لأشـــواقِ قلبـــيَ المـــشجونِ
للزمـــان الـــذي يوشِّـــح أيَّـــامي ... بـــضوءِ المنـــى ، وظـــلِّ الـــشجونِ
للـــشبابِ الـسكرانِ ، للأمـــلِ المعبـودِ ... لليـــأس ، للأســـى ، للمنـــونِ

* * *

فتنهَّـــدتُ ، ثـــمَّ قلـــتُ : «وقلبـــي» ... مـــن يغنِّيـــهِ ؟ مـــن يجيبُ شـجوني؟(1)
قالـــتِ : «الحـــبُّ» ثـــم غنَّـت لقلبـي ... قُـــبَلاً عبقريّـــةَ التلحـــينِ
قُـــبلاً ، علمـــتْ فـــؤادي الأغـــاني ... وأنـــارتْ لـــه ظـــلامَ الـــسنينِ
قُـــبَلاً ، تُـــرقصُ الــسعادة والحـــبَّ ... عـــلى لحنهـــا العميـــقِ الرصـــينِ

* * *

وأفقنـــا ، فقلـــتُ كالحـــالم المـــسحورِ : ... قـــولي ، تكلمـــي ، خبرينـــي
أي دنيـــا مـــسحورة ؟ أيُّ رؤيـــا ... طـــالعتني في ضـــوءِ هـــذي العيـــونِ ؟
زمـــرٌ مـــن ملائـــكِ المـــلأ الأعـــلى ... يُغنُّـــونَ في حنـــوٍّ حنـــونِ
وصـــبايا رواقـــصُ ... يتراشـــقنَ ... بزهـــرِ التفـــاحِ والياســـمينِ
في فـــضاءٍ ، مـــورَّدٍ ، حـــالمٍ ، ســـاهٍ ... أطافـــتْ بـــه عـــذارى الفنـــونِ
وجحـــيمٍ تـــؤج تحـــتَ فـــراديسَ ... كـــأحلامِ شـــاعرٍ مجنـــونِ !
أيُّ خمـــرٍ مـــؤجَّجٍ ، ولهيـــبٍ ... مـــسكرٍ ؟ أيُّ نـــشوةٍ وجنـــونٍ ؟
أي خمـــر رشـــفتِ ؟ بـــل أيُّ نـــارٍ ؟ ... في شـــفاهٍ ، بديعـــةِ التكـــوينِ
ورَّدتهـــا الحيـــاةُ في لهـــبِ الـــسحرِ ، ... ونـــورِ الهـــوى ، وظـــلِّ الـــشجونِ
أيُّ إثـــمٍ مقـــدَّسٍ قـــد لبـــسنا ... بـــردَه في مـــسائنا الميمـــونِ ؟
فبـــدا طيـــفُ بـــسمةٍ ســـاحرٍ ، عـــذبٍ ... عـــلى ثغرهـــا ، قـــويُّ الفتـــونِ

(1) كلمة يجيب ، في الديوان: يبيد.

وأجابــتْ ... وكلهـــا فتنـــة تُغــوي — وتُغــري بالحــبِّ بــل بــالجنونِ :
أبـــداً أنـــتَ حـــالمٌ .. فاســـألِ الليـــلَ — فعنـــدَ الظـــلامِ علـــمُ اليقـــينِ

* * *

وســكتنا ، وغــرَّد الحــبُّ في الغــابِ — فأصــغى حتــى حفيــفُ الغــصونِ
وبنـــى الليـــلُ والربيـــعُ حواليْنـــا — مـــن الـــسحرِ ، والـــرؤى ، والـــسكونِ
معبـــداً للجـــمالِ والحـــبِّ ، شِـــعْرِيّاً — مـــشيداً عـــلى فجـــاجِ الـــسنينِ
تحتَـــهُ يزخـــرُ الزمـــانُ ويجـــري — صـــامتاً في مـــسيله المحـــزونِ
وتمـــرُّ الآلامُ ، والحـــزنُ ، والمـــوتُ — بعيـــداً عـــن ظلِّـــه المـــأمونِ
معبـــداً ســـاحراً ، مبـــاخره الزهـــرُ — عـــلى الـــصخرِ ، والثـــرى ، والغـــصون
كـــلَّ زهـــرٍ يـــضوع منـــه أريـــجٌ — مـــن بخـــورِ الربيـــع ، جـــمٌّ الفتـــونِ
ونجـــوم الـــسماء فيـــه شـــموعٌ — أوقـــدتها للحـــبِّ روحُ القـــرونِ
ومـــضت نـــسمة توســـوسُ للغـــابِ — وتـــشدو في عمـــقِ ذاك الـــسكونِ
وطغـــى الـــسحرُ والغـــرامُ بقلبـــي — فتوسّـــلت ... ضـــارعاً .. بجفـــوني :
طهِّـــري يـــا شـــقيقةَ الـــروحِ ثغـــري — بلهيـــبِ الحيـــاةِ بـــلْ قبلينـــي !
إنَّ نـــارَ الحيـــاةِ ، والكـــوثرِ المنـــشودِ — في ثغـــرِكِ الـــشهيِّ الحـــزينِ
فهـــو كـــأسٌ ســـحريةٌ لرحيـــقِ الخلـــد — قـــد صـــاغها إلـــهُ الفنـــونِ
قبلينـــي ، وأســـكري ثغـــرَي الـــصادي — وقلبـــي ، وفتنتـــي ، وجنـــوني
علّمنـــي أســـتطيعُ أن أتغنَّـــى — لجـــمالِ الـــدجى بـــوحيِ العيـــونِ
آه ! مـــا أجمـــلَ الظـــلامَ ! وأقـــوى — وحيَـــهُ في فـــؤاديَ المفتـــونِ ! (1)
انظـــري الليـــل فهـــو حُلَّـــة الأحـــلام — يمـــشي عـــل الـــذرى والحـــزون
واســمعي الغــاب ، فهــو قيثــارة الكــون — تغنـــي لحبنـــا الميمـــون
إن ســـحر الـــضباب والليـــل والغـــاب — بعيـــدُ المـــدى ، قـــويُّ الفتـــون
وجمـــال الظـــلام يعبـــق بـــالأحلام — والحـــبِّ .. فابـــسمي ، والثمينـــي

(1) في الديوان زيادات وتعديلات كثيرة.

آه مـــا أعـــذب الغـــرام ! وأحـــلى رَنَّـــةَ اللـــثم في خـــشوع الـــسكون

* * *

... وسكراناً هناك ... في عالم الأحلام تحت السماء ، تحت الغصون ..
وتــوارى الوجــود عنــا بــما فيــه .. وغبنــا في عــالم مفتــون ..
ونــسينا الحيــاة ، والمــوت ، والــسكون ومــا فيــه مــن مُنــى ومَنــون

إلى الشعب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 15/ 10/ 1933.

أين يا شعبُ قلبُكَ الخافقُ الحسَّاسُ ؟ أيــن الطمــوحُ ، والأحــلامُ ؟
أين يا شعبُ ، روحُك الشاعرُ الفنَّانُ ؟ أيــن ، الخيــال والإلهــامُ ؟
أين يا شعب ، فنُّك ، الساحرُ الخلاّقُ ؟ أيــن الرســومُ والأنغــام ؟
إنَّ يــمِّ الحيــاة يــدوي حوالَيْــكَ فــأين المُغــامِرُ ، المقــدام
أيــن عــزم الحيــاة ؟ لا شيء إلاّ الموتُ ، والصَّمتُ ، والأسى ، والظلام
عُمُــرٌ مَيِّــتٌ ، وقلــبٌ خَــواءٌ ودمٌ ، لا تثــيره الآلام
وحيــاةٌ ، تنــامُ في ظلمــة الــوادي وتنمــو مــن فوقهــا الأوهــام
أيُّ عــيش هــذا، وأيُّ حيــاة ؟! (رُبَّ عَـيْشٍ أخَـفُّ منـه الحِمَامُ) [1]

* * *

قــد مــشتْ حولَــك الفــصول وغَنَّتْــكَ فلــم تبــتهج ، ولم تــترنَّمْ
ودَوَتْ فوقــك العواصــفُ والأنــواءُ حَتَّــى أوْشَــكْتَ أن تــتحطّم
وأطافَــتْ بــكَ الوحــوشُ وناشــتك فلــم تــضطرب ، ولم تتــألمْ
يــا إلهــي ! أمــا تحــسُّ ؟ أمــا تــشدو ؟ أمــا تــشتكي ؟ أمــا تــتكلّمْ ؟

---

(1) عجز هذا البيت للمتنبي ، وصدره: ذلّ من يغبط الذليل بعيش.

مَـلّ نهْـرُ الزَّمـانِ أيامَـك المـوْتَى ... وأنقـاضَ عُمْـرِكَ المتهـدِّمْ
أنـتَ لا مَيِّـت فيـبلَى ، ولا حـيٌّ ... فيمـشي ، بـل كـائنٌ ، لـيس يُفْهَـمْ
أبـدا يرمـق الفـراغَ بطـرفٍ ... جامـدٍ ، لا يـرى العـوالمَ ، مُظْلِـمْ
أيُّ سِحْرٍ دهـاكَ ، هـل أنـتَ مسحورٌ ... شَـقيٌّ ؟ أو مـاردٌ ، يـتهكَّمْ ؟

* * *

آهِ ! بـل أنـت في الـشعوب عجـوزٌ ، ... فيلـسوفٌ ، مُحَطَّـمٌ في إهابـه
مـاتَ شوقُ الـشباب في قلبِه الـذاوي ، ... وعـزمُ الحيـاة في أعـصابهْ
فمـضى ينـشد الـسلامَ .. ، بعيـداً ... ... في «قبـور الزمـان» خلـفَ هـضابه
وهناكَ ، اصطفى البقاءَ مع الأموات ، ... في «قـبر أمـسه» غـيرَ آبِـهْ ...
وارتـضى القـبرَ مـسكناً ، تتلاشـى ... فيـه أيـامُ عُمْـرِهِ الُمتـشابهْ
وتناسـى الحيـاةَ والـزَّمَنَ الـدَّاوِي ... ومـا كـان مِـنْ قـديمِ رِغابِـهْ
فـالزَمِ القـبرَ ... فهـو بيـتٌ ، شبيهٌ ... بـكَ في صـمت قلبِـه ، وخرابِـه
واعْبـدِ «الأمـسَ» وادَّكِـر صُـوَرَ الماضي ... فـدُنْيا العجـوز ذِكـرى شـبابِهْ ...

* * *

وإذا مَـرَّت الحيـاةُ حوالَيْـكَ ... جمـيلاً ، كـالزهر غـضاً صِـباها
تتغنّـى الحيـاة بالـشوق والعـزم ... فيُحْيِـي قلـبَ الجـماد غِناهـا
والربيـعُ الجميـلُ يـرقص فـوق ... الـورد ، والعـشب ، مُنْشِداً ، تيَّاهـا
ومـشى النـاسُ خلفهـا ، يتَمَلّـوْنَ ... جمـالَ الوجـود في مَرْآهـا
فاحْذَرْ السِّحْرَ ! أيها الناسكُ القِدّيسُ ، ... إنَّ الحيـاةَ يُغْـوي بَهاهـا
والربيـعُ الفَنَّـانُ شـاعِرُها المفتـونُ ... يُغْـرِي بحبهـا وهواهـا
وتَمَـلَّ الجـمالَ في رِمَـم المـوتى ...! ... بعيـداً عـن سـحرها وصـداها
وتَغَـزَّل بـسحر أيامِـك الأولى ... وخَـلِّ الحيـاةَ تخطـو خطاهـا

* * *

وإذا هبّـت الطيـورُ مـعَ الفجـر ، ... تُغنِّـي بـين المـروج الجميلـة
وتُحَيِّـي الحيـاةَ ، والعـالَمَ الحـيَّ ، ... بـصوتِ المحبَّـةِ ، المعسولهْ

والفـراشُ الجميـلُ رَفْـرَفَ في الـروض ، ينـــاجي زهـــورَهُ المطلولـــهْ
وأفـــاقَ الوجـــودُ للعمـــل المُجْــدِي وللـــسَّعي ، والمعــــاني الجليلـــهْ
ومشى النـاس في الـشِّعاب ، وفي الغـاب وفـــوق المـــسالكِ المجهولـــهْ
ينـشدون الجـمالَ ، والنُّـورَ ، والأفـراحَ والمجـــدَ ، والحيــــاةَ النبيلـــهْ
فاغـضض الطـرفَ في الظـلام ! وحـاذِرْ فِتْنَـــةَ النُّـــورِ ! فهْـــيَ رؤْيَـــا مَهولَـــهْ
وصـباحُ الحيـاةِ لا يُـوقِظُ المَـوْتَى ولا يـــرحمُ الجفـــونَ الكليلـــهْ

* * *

كــلُّ شيءٍ يُعـاطِف العـالَمَ الحـيَّ ، ويُـــذكِي حياتـــه ، ويُفيـــدُهُ
والـذي لا يُجـاوِب الكـونَ بالإحـساس عِـــبْءٌ عـــلى الوجـــود ، وُجـــودُهْ
كــلّ شيء يُـسايرُ الـزمنَ المـاشي بعـــزمٍ ، حتـــى الـــترابُ ، ودودُهْ
كــلّ شيء - إلاّكَ - حــيٌّ ، عطــوفٌ يُـــؤْنِسُ الكـــونَ شَـــوْقُهُ، ونَـــشيدُهْ
فلِـماذا تعـيش في الكـون يـا صـاحِ ! ومـــا فيـــكَ مـــن جنـــىً يـــستفيدُهْ
لـستَ يـا شـيخُ للحيـاةِ بأهْـلٍ أنـــت داءٌ يُبيـــدُها وتُبيـــدُهْ
أنـــت قَفْـــرٌ جهنَّمـــيٌّ لَعـــينٌ ، مُظلِـــمٌ ، قاحـــلٌ ، مُريـــعٌ جمـــودُهْ
لا تَـرِفُّ الحيـاة فيـه ، فـلا طـيرٌ يُغنِّـــي ، ولا ســـحابٌ يَجُـــودُهُ

* * *

أنـتَ يـا كـاهنَ الظـلامِ حيـاةٌ تعبـد المـوتَ ، ! أنـت روحٌ شـقيٌّ
كـافرٌ بالحيـاةِ والنُّـورِ .. ، لا يُـصغى إلى الكـــون قلبُـــه الحَجَـــرِيُّ
أنـتَ قلـبٌ ، لا شـوقَ فيـه ولا عـزمَ وهـــذا داءُ الحيـــاةِ الـــدَّوِيُّ
أنـتَ دنيـا ، يُظَلِّلُهـا أفُـقُ المـاضي وليـــلُ الكآبـــةِ الأبـــديُّ
مـات فيهـا الزمـانُ ، والكـونُ إلاّ أمـسُها الغـابرُ ، القـديمُ ، القَـصِيُّ
والـشقيُّ الـشقيُّ في الأرض قلـبٌ يومُـــهُ مَيِّـــتٌ ، وماضـــيه حـــيُّ
أنـتَ لا شيءَ في الوجـودِ ، فغـادِرْهُ إلى المـوت فَهْـوَ عنـك غَنِـيُّ

الناس

نظم الشاعر الأبيات بتاريخ 8/ 12/ 1933.

مـا قـدَّس المثـل الأعـلى وجمَّلـه   في أعـينِ النـاسِ إلا أنّـه حلـمُ
ولـو مـشى فـيهم حيـاً لحطّمـهُ   قـومٌ، وقـالوا بخبـثٍ: إنّـه صـنمُ
لا يعبـد النـاسُ إلاَّ كـلَّ منعـدمٍ   ممنـعٍ، ولمـن حابـاهم العـدمُ
حتـى العبـاقرةُ الأفـذاذُ حبُّـهمُ   يلقـى الشقاءَ وتلقـى مجدَها الـرممُ
النـاسُ لا يُنـصفون الحـيَّ بيـنَهمُ   حتّـى إذا مـا تـوارى عـنهمُ نـدموا
الويـلُ للنـاسِ مـن أهـوائهم أبـداً   يمـشي الزمـانُ وريـحُ الشرِّ تحتـدمُ

متاعب العظمة

نظم الشاعر هذين البيتين بتاريخ 11/ 12/ 1933، وهما في الحكمة.

إذا صغرت نفس الفتـى كـان شـوقه   صـغيراً، فلـم يتعـب، ولم يتجـشَّمِ
ومـن كـان جبّـار المطـامع لم يـزل   يلاقـي مـن الـدنيا ضراوة قـشعَمِ

نشيد الجبار

أو: هكذا غنى بروميثيوس

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 15/ 12/ 1933، وفي القصيدة يعلن الشاعر ثورته وعصيانه وفيها يظهر الشاعر متمرداً.

سـأعيشُ رغـمَ الـداء والأعـداءِ   كالنـسرِ، فـوقَ القِمَّـة الـشمّاءِ
أرنـو إلى الـشمسِ المـضيئة هازئـاً   بالـسُّحبِ، والأمطـارِ، والأنـواءِ
لا أرمـق الظـلَّ الكئيـبَ ولا أرى   مـا في قـرارِ الهـوّةِ الـسوداءِ
وأسـيرُ في دنيـا المـشاعرِ حالمـاً   غَـرِداً، وتلـكَ سـعادة الـشعراءِ
أصـغي لموسـيقى الحيـاةِ ووحيِهـا   وأذيـبُ روحَ الكـونِ في إنـشائي

وأصيخُ للصوتِ الإلهي الذي ... يحيي بقلبي ميّتَ الأصداءِ

* * *

وأقولُ للقَدَرِ الذي لا ينثني ... عن حربِ آمالي بكلِّ بلاءِ :
«لا يُطفئُ اللهبَ المؤجّجَ في دمي ... موجُ الأسى ، وعواصفُ الأرزاءِ
فاهدمْ فؤادي ما استطعت فإنه ... سيكونُ مثلَ الصخرةِ الصمَّاءِ
لا يعرفُ الشكوى الذليلةَ والبكا ... وضراعةَ الأطفالِ والضعفاءِ
ويعيشُ جباراً يحدِّق دائماً ... بالفجر .. بالفجرِ الجميلِ النائي
واملأ طريقي بالمخاوف والدجى ... وزوابعِ الأشواك والحصباء
وانشرْ عليهِ الرعبَ وانثرْ فوقَهُ ... رُجُمَ الرّدى وصواعقَ البأساءِ
سأظلّ أمشي رغمَ ذلك عازفاً ... قيثارتي مترنّماً بغنائي
أمشي بروح حالمٍ ، متوهِّجٍ ... في ظلمةِ الآلام والأدواءِ
النورُ في قلبي وبينَ جوانحي ... فعلامَ أخشى السيرَ في الظلماءِ ؟
إني أنا النايُ الذي لا تنتهي ... أنغامُه ما دامَ في الأحياءِ
وأنا الخضمُّ الرحبُ ، ليس تزيده ... إلا حياةً سطوةُ الأنواءِ

* * *

أما إذا خمدتْ حياتي وانقضى ... عمري وأخْرَسَتِ المنيّةُ نائي
وخبا لهيبُ الكونِ في قلبي الذي ... قد عاشَ مثلَ الشعلةِ الحمراءِ
فأنا السعيدُ بأنني متحوِّلٌ ... عن عالمِ الآثامِ والبغضاءِ
لأذوبَ في فجرِ الجمالِ السرمد ... يِّ وأرتوي من منهلِ الأضواءِ

* * *

وأقولُ للجمعِ الذين تجشّموا ... هدمي وودُّوا لو يخرُّ بنائي
ورأوا على الأشواكِ ظلي هامداً ... فتخيلوا أني قضيتُ ذمائي
وغدوا يشبُّون اللهيبَ بكلِّ ما ... وجدوا ... ليشووا فوقَه أشلائي
ومضوا يمدُّون الخوانَ ليأكلوا ... لحمي ويرتشفوا عليه دمائي
إنِّي أقولُ لهمْ ووجهي مشرق ... وعلى شفاهي بسمةُ استهزاء :

«إن المعـــاولَ لا تَهـــدُّ منـــاكبي ... والنـــارُ لا تـــأتي عـــلى أعـــضائي
حتَّـــى ولـــو أمـــسيتُ جـــسماً ميِّتـــاً ... ملقـــى لعـــصفِ الزعـــزعِ النكبـــاءِ[1]
فـــارموا إلى النـــارِ الحـــشائشَ والعبـــوا ... يـــا معـــشرَ الأطفـــالِ تحـــتَ سمائي
وإذا تمـــرَّدت العواصـــفُ وانتـــشى ... بـــالهولِ قلـــبُ القبّـــةِ الزرقـــاءِ
ورأيتمـــوني طـــائراً مـــترنِّماً ... فـــوقَ العواصـــفِ في الفـــضاءِ النـــائي
فـــارموا عـــلى ظـــلي الحجـــارةَ واحتفـــوا ... خـــوفَ الريـــاحِ الهـــوج والأنـــواءِ
وهنـــاك في أمـــن البيـــوت تطـــارحوا ... غـــثَّ الحـــديثِ وميِّـــت الآراءِ
وترنّمـــوا مـــا شـــئتمُ بـــشتائمي ... وتجـــاهروا مـــا شـــئتمُ بعـــدائي
أمـــا أنـــا فـــأجيبكمْ مـــن فـــوقِكم ... والـــشمسُ والـــشفق الجميـــل إزائـــي:
«مـــن جـــاشَ بـــالوحيِ المقـــدَّس قلبـــه ... لم يحتفـــل بحجـــارةِ الفلتـــاءِ»!!

زوبعة في الظلام

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ 24/ 12/ 1933.

لـــو كانـــتِ الأيـــام في قبـــضتي ... أذريْتُهـــا للـــريحِ مثـــل الرمـــالْ
وقلـــتُ: «يـــا ريـــحُ بهـــا فـــاذهبي ... وبـــدِّديها في ســـحيقِ الجبـــالْ
بـــل في فجـــاجِ المـــوتِ في عـــالم ... لا يـــرقصُ النـــورُ بـــه والظـــلالْ»

* * *

لـــو كـــان هـــذا الكـــونُ في قبـــضتي ... ألقيتـــهُ في النـــارِ: نـــارِ الجحـــيمْ
مـــا هـــذه الـــدنيا وهـــذا الـــورى ... وذلـــك الأفـــقُ وتلـــكَ النجـــومْ
النـــارُ أولى بعبيـــدِ الأســـى ... ومـــسرحِ المـــوتِ وعُـــشِّ الهمـــومْ

* * *

يـــا أيهـــا المـــاضي الـــذي قـــد قـــضى ... وضـــمّه المـــوتُ وليـــلُ الأبـــدْ

(1) هذا البيت غير موجود في الديوان.

يــا حــاضرَ النـــاس الـــذي لم يـــزلْ	يـــا أيُّهـــا الآتي الـــذي لم يلـــدْ
ســـــخافةُ دنيـــاكم هــــذه	تائهـــة في ظلمــــةٍ لا تُحـــدْ

قصائد عام 1934

وعددها تسع قصائد:

- الإيمان بالحياة، أو الاعتراف.
- إلى طغاة العالم.
- الغاب.
- الدنيا الميتة.
- قال قلبي للإله.
- قلب الشاعر.
- حرم الأمومة.
- شكوى ضائعة.
- فلسفة الثعبان المقدس.

الإيمان بالحياة

أو: الاعتراف

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 17/ 2/ 1934، نشرت في مجلة أبولو بعنوان (الإيمان بالحياة)، لكن عنوانها في الديوان (الاعتراف).

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي — ومشاعري عمياء بالأحزان —
أني سأظمأ للحياة، واحتسي — من نهرها المتوهّج النشوان
وأعودُ للدنيا بقلبٍ خافقٍ — للحبِّ، والأفراح، والألحان
ولكل ما في الكون من صور المنى — وغرائب الأهواء والأشجان
حتى تحركت السنون، وأقبلت — فتن الحياة بسحرها الفتّان
فإذا أنا ما زلت طفلاً، مولَعاً — يتعقّب الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضُها — ضربٌ من البهتان والهذيان
إن ابن آدمَ في قرارة نفسه — عبدُ الحياة الصادقُ الإيمان

قلب الشاعر

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ 16/ 3/ 1934.

كلُّ ما هبَّ وما دبَّ وما — قامَ أو حامَ على هذا الوجودْ[1]
من طيورٍ وزهورٍ وشذى — وينابيعَ وأغصانٍ تميدْ
وبحارٍ وكهوفٍ وذرى — وبراكين ووديانٍ وبيدْ
وضياءٍ وظلالٍ ودجى — وفصولٍ وغيومٍ ورعودْ
وثلوجٍ وضبابٍ عابرٍ — وأعاصيرَ وأمطارٍ تجودْ
وتعاليمَ ودينٍ ورؤى — وأحاسيسَ وصمتٍ ونشيدْ
كلّها تحيا بقلبي حرةً — غضةَ السحرِ كأطفالِ الخلودْ

(1) في الديوان نام بدلاً من قام

هـــا هنــا في قلبــيَ الرحــبِ العميــقِ ... يــرقصُ المــوتُ وأطيــافُ الوجــودْ
هـــا هنـا تعــصفُ أهــوالُ الــدجى ... هـــا هنـــا تخفـــقُ أحـــلامُ الـــورودْ
هـــا هنـــا تهتـــفُ أصــداءُ الفنــونِ ... هـــا هنـــا تُعـــزفُ ألحـــانُ الخلـــودْ
هـــا هنـــا تمـــشي الأمـــاني والهـــوى ... والأســـى ؛ في موكـــبٍ فخـــمِ النـــشيدْ
هـــا هنـــا الفجـــرُ الـــذي لا ينتهـــي ... هـــا هنـــا الليـــلُ الـــذي لـــيسَ يبيـــدْ !
هـــا هنـــا ألـــفُ خِـــضَمٍّ ثـــائرٍ ... خالـــدِ الثـــورةِ مجهـــولِ الحـــدودْ
هـــا هنـــا في كـــلِّ آن تمَّحـــي ... صـــورُ الـــدنيا وتبـــدو مـــن جديـــد !

إلى طغاة العالم

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 8/ 4/ 1934، ويتوقع فيها الشاعر أن العاصفة سوف تجهز على الظالمين ليبزغ فجر الحياة الجديد:

ألا أيهـــــا الظـــــالم المـــــستبِد ... حبيـــب الظـــلام ، عـــدوّ الحيـــاهْ
ســـخرتَ بأنّـــات شـــعب ضـــعيف ... وكفـــك مخـــضوبة مـــن دمـــاهْ
وسرتَ تُـــشوِّه سِـــحْرَ الوجـــود ... وتبـــذر شـــوك الأســـى في رُبـــاهُ

* * *

رُوَيـــدَكَ ! لا يخـــدعنْك الربيـــعُ ... وصـــحوُ الفـــضاء ، وضـــوء الـــصباح
ففـــي الأفُـــق الرحـــب هـــولُ الظـــلام ... وقـــصفُ الرعـــود ، وعـــصف الريـــاح
حـــذار ! فتحـــت الرمـــاد اللهيـــبُ ... ومـــن يبـــذر الـــشوك يجـــنِ الجـــراح

* * *

تأمـــل ! هنالـــك أنّـــى حـــصدتَ ... رمـــوسَ الـــورى ، وزهـــورَ الأمـــلْ
وروَّيـــت بالـــدم قلـــبَ الـــتراب ... وأشْربتَـــه الـــدمعَ ، حتـــى ثمـــل
ســـيجرفكَ الـــسيلُ ، ســـيلُ الـــدماء ... ويأكلُـــك العاصـــفُ المـــشتعِل

الغاب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 23/ 7/ 1934.

بيتٌ ، بَنَتْه ليَ الحياةُ من الشذى ، والظل ، والأضواء ، والأنغام
بيتٌ ، من السحر الجميل ، مُشَيّدٌ للحبِّ ، والأحلام ، والإلهام
في الغاب سِحرٌ ، رائعٌ مُتجدِّدٌ باقٍ على الأيام والأعوام
وشذىً كأجنحة الملائك ، غامضٌ ساهٍ يُرفرف في سكونٍ سام
وجداولٌ ، تشدو بمعسول الغِنا وتسيرُ حالمةً ، بغير نظام
ومخارفٌ نَسَجَ الزمانُ بساطَها من يابسِ الأوراق والأكمام
وحَنَا عليها الدّوْحُ ، في جَبَروته بالظلِّ ، والأغصان والأنسام
في الغاب ، في تلك المخارف ، والرُّباء وعلى التِّلاع الخُضرِ ، والآجام
كم من مشاعِرَ ، حلوةٍ ، مجهولةٍ سَكْرَى ، ومِنْ فِكَرٍ ، ومن أوهام
غَنّتْ ، كأسراب الطيور ، ورفرفت حولي ، وذابت كالدخان ، أمامي
ولَكَمْ أصَخْتُ إلى أناشيد الأسى وتنهُّدِ الآلام والأسقام
وإلى الرياح النائحات كأنها في الغاب تبكي مَيِّتَ الأيام
وإلى الشبابِ ، مُغَنِّياً ، مُترَنِّماً حولي بألحان الغرام الظامي
وسمعتُ للطيْر ، المغرِّد في الفضا والسِّنديان ، الشامخ ، المتَسامي
وإلى أناشيد الرعاة ، مُرِفّةً في الغاب ، شاديةً كسِرب يَمام
وإلى الصدى ، المِمراح ، يهتف راقصاً بين الفجاج الفيح والآكام
حتى غَدَا قلبي كنايٍ ، مُترَعٍ ثَمِلٍ من الألحان والأنغام
فشدوتُ باللحن الغريب مُجَنَّحاً بكآبةِ الأحلام والآلامِ
في الغاب ، دنيا للخيال ، وللرُّؤى ، والشعرِ ، والتفكيرِ ، والأحلام
لله يومض مضيتُ أوّلَ مَرَّةٍ للغاب ، أرزحُ تحت عبء سقامي
ودخَلتُه وحدي ، وحوْلِي موكبٌ هَزِجٌ ، من الأحلام الأوهام
ومشيْتُ تحت ظِلالِه مُتَهَيِّباً كالطفل ، في صَمْتٍ ، وفي استسلام

أرنــــو إلى الأدْواحِ ، في جبروتهـــــا   فإخالهـــا عَمَـــدَ الـــسماء ، أمـــامي
قـد مـسَّها سِـحْرُ الحيـاة ، فأوْرَقَـتْ   وتَمَايَلَـــتْ في جَنَّـــةِ الأحـــلامِ
وأصـيخُ للـصَّمْتِ المفكـر ، هاتِفـاً   في مِـــسمعي بغرائـــب الأنغـــام
فـــإذا أنـــا في نَـــشْوَةٍ شـــعريَّةٍ   فَيّاضَـــةٍ بـــالوحي والإلهـــام
ومـــشاعري في يقظـــةٍ مـــسحورةٍ   ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟(1)
وَسْــــنَى كيقظـــة آدم لَمَّـــا سَرَى   في جـــسمه رُوحُ الحيـــاة النـــامي
وشَـــجَتْه موسـيقى الوجـودِ، وعانقـتْ أحلامَـــه ، في رقّـــةٍ وســـلام
ورأى الفــراديسَ ، الأنيقـــةَ ، تنثنـــي   في مُـــتْرَفِ الأزهـــار والأكـــمام
ورأى الملائـكَ ، كالأشـعَّةِ في الفـضا   تنـــسابُ ســـابحةً ، بغـــير نظـــام
وأحـسَّ رُوحَ الكـون تخفـق حولـه   في الظِّـــلِّ ، والأضـــواء ، والأنـــسام
والكائنـــاتِ ، تحوطـــه بحنانهـــا   وبحبِّهـــا ، الرحـــبِ ، العميـــقِ ، الطـــامي
حتـــى تمـــلأَ بالحيـــاة كِيانُـــه   وســـعى وراء مواكـــبِ الأيـــام
ولَـرُبَّ صُـبْحٍ غـائمٍ ، مُتحجِّـبٍ   في كِلّـــةٍ مـــن زَغْـــزَعٍ وغَـــمام
تتـنفَّسُ الـدنيا ضـباباً ، هـائماً   مُتـــدفِّعاً في أفقـــه المُترامـــي
والـرِّيحُ تخفـق في الفـضاء ، وفي الثـرى   وعـــلى الجبـــال الـــشُّمِّ ، والآكـــام
بـاكَرْتُ فيـه الغـاب مَوْهُـونَ القُـوَى   متخـــاذِلَ الخُطُـــوات والأقـــدام
وجلـستُ تحـتَ الـسنديانة ، واجمـاً   أرنـــو إلى الأُفـــق الكئيـــب ، أمـــامي
فـأرى المبـانيَ في الـضباب ، كأنهـا   فِكَـــرٌ ، بـــأرض الـــشكِّ والإبهـــام
أو عــالمٌ، مــا زال يُولَـدُ في فَـضَاء   الكـــونِ ، بـــين غياهـــبٍ وسِـــدام
وأرى الفجـاجَ الدامـساتِ ، خلالَـهُ   ومـــشاهدَ الوديـــان والآجـــام
فكأنهـا شُـعَبُ الجحـيم ، رهيبـةً   ملفوفـــةً في غُبْـــشَةٍ وظَـــلام
صُـوَرٌ ، مـن الفـنِّ المُـرَوِّعِ ، أعجـزت   وَحْـــيَ القـــريضِ وريـــشةَ الرســـام
ولكَـمْ مـساء ، حـالمٍ متوشِّـحٍ   بالظِّـــل ، والـــضوءِ الحـــزين الـــدامي

(1) غير موجود في الأصل والمسودات.

قَد سرتُ في غابي، كفكرٍ، هائمٍ   في نشوةِ الأحلام والإلهام
شِعْرِي، وأفكاري، وكُلُّ مشاعري   منشورةٌ للنُّور والأنسام
والأفْقُ يزخر بالأشِعّةِ والشذَى   والأرضُ بالأعشاب والأكمام
والغابُ ساجٍ، والحياةُ مصيخةٌ   والأفْقُ، والشفقُ الجميلُ، أمامي
وعروسُ أحلامي تُداعبُ عُودَها   فيَرِنّ قلبي بالصَّدَى وعِظامي
روحٌ أنا، مسحورةٌ، في عالَمٍ   فوق الزمان الزاخر الدَّوَّام

* * *

في الغاب، في الغاب الحبيب، وإنَّه   حَرَمُ الطبيعةِ والجمالِ السامي
طَهَّرْتُ في نار الجمال مشاعري   ولقيتُ في دنيا الخيال سَلامي
ونَسيتُ دنيا الناس، فهي سخافةٌ   سَكْرَى من الأوهام والآثام!
وقَبستُ من عَطْفِ الوجود وحُبِّه   وجمالِه قبساً، أضاءَ ظلامي
فرأيتُ ألوان الحياة نضيرةً   كنضارة الزَّهَرِ الجميلِ النامي
ووجدتُ سِحْرَ الكون أسمى عنصراً   وأجلّ من حزَني ومن آلامي
فأهبْتُ - مسحورًا لمشاعر، حالماً   نشوانَ بالقلب الكئيب الدامي:
«المعبدُ الحيُّ المقدّسُ هاهنا!   يا كاهنَ الأحزان والآلام»
«فاخلعْ مُسوحَ الحزن تحت ظِلاله   والبسْ رداءَ الشعر والأحلام»
«وارفعْ صَلاتَكَ للجمال، عميقةً   مشبوبةً بحرارة الإلهام»
«واصدحْ بألحان الحياة، جميلةً   كجمال هذا العالَمِ البسَّام»
«واخفقْ مع العِطْر المرفرفِ في الفضا   وارقصْ مع الأضواء والأنسام»
«ومع الينابيع الطليقةِ والصَّدَى،   ....» (1)
وذَرَوْتَ أفكاري الحزينةَ للدجى   ونثرتُها لعواصف الأيام
ومضيتُ أشدُو للأشعَّةِ ساحراً   من صوت أحزاني، وبطش سقامي
وهتفتُ: «يا روحَ الجمال تَدَفَّقِي   كالنَّهرِ في فِكري، وفي أحلامي»

(1) هكذا وجدت البيت في الديوان.

«وتغلغلي كالنور، في روحي التي ذَبُلَتْ من الأحزان والآلام»
«أنتِ الشعورُ الحيُّ يزخر دافقاً كالنار، في روح الوجود النامي»
«ويصوغ أحلام الطبيعةِ، فاجعلي عُمُرِي نشيداً، ساحِرَ الأنغام»
«وشذىً يَضُوعُ مع الأشعَّة والرُّؤَى في معبد الحق الجليل السامي»

حرم الأمومة

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ 3/ 8/ 1934.

الأم تلثم طفلها، وتضمُّه حَرَمٌ سماويُّ الجمال مقدّسُ
تتألّه الأفكار وهي جواره وتعود طاهرةً هناك الأنفسُ
حَرمُ الحياة يظهرها وحنانها هل فوقه حرَمٌ أجلُّ وأقدس ؟
بوركتَ يا حرَمَ الأمومةِ والصَّبا كم فيك تكتمل الحياةُ وتقدُسُ

شكوى ضائعة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 5/ 8/ 1934، وهي من روائع الشابي فيها يهجر القدر الذي يقرنه بالوحش الخفي.

يا ليل! ما تصنع النفسُ التي سكنت هذا الوجودَ، ومِنْ أعدائها القدر ؟
ترضى وتسكت ؟ هذا غير محتمل! إذاً، فهل ترفض الدنيا، وتنتحر ؟
وذا جنونٌ لَعَمْري، كلُّه جَزَعٌ باكٍ، ورأيٌ مريضٌ، كلُّه خَوَر!
فإنما الموت ضربٌ من حبائله لا يُفلت الخَلقُ ما عاشوا، فما النظر ؟
هذا هو اللغزُ، عَمَّاهُ وعَقَّدَهُ على الخليقة، وحشٌ، فاتكٌ حذِر
قد كَبَّلَ القدرُ الضاري فرائسَه فما استطاعوا له دفعاً، ولا حَزَروا
وخاطَ أعينَهم، كي لا تشاهده عينٌ، فتعلم ما يأتي وما يذر
وحاطهم بفنونٍ من حبائله فما لهم أبداً من بطشه وزَر

لا المـوت يُنقـذهم مـن هـول صـولته ... ولا الحيـاةُ . تَـساوى النـاسُ والحجـر !
حـارَ المساكينُ ، وارتـاعوا ، وأعْجَـزَهم ... أن يحـذروه ، وهــل يُجـديهم الحـذر
وهــم يعيــشون في دنيــا مــشيَّدةٍ ... مـن الخطـوب ، وكـونٍ كلـه خطـر ؟
وكيـف يحذر أعمَـى ، مُـدْلِجٌ ، تَعِـبٌ ، ... هـولَ الظـلام ، ولا عـزمٌ ولا بَـصَرُ ؟
قــد أيقنــوا أنــه لا شيء يُنقــذهم ... فاستسلموا لسكون الرعب ، وانتظروا ..
ولــو رأوه لــسارت كــي تحاربــه ... مــن الــورى زُمَــرٌ ، في إثرهــا زمــر
وثــارت الجــنّ ، والأمــلاك ناقمــةً ... والبحـرُ ، والـبرُّ ، والأفـلاكُ ، والعُـصُر
لكنــه قــوَّةٌ تُمْــلي إرادتهـــا ... سرّاً ، فنعنــوا لهــا قهــراً ، ونـــأتمر
حقيقــة ، مُـرَّةٌ ، يــا ليـل ، مُبْغَـضَةٌ ... كـالموت ، لكـنْ إليهـا الـوِرْدُ والـصَّدَرُ

* * *

تَنَهَّـدَ الليـلُ ، حتـى قلـت: «قـد نُثِـرَتْ ... تلـك النجومُ ، ومـات الجنُّ والبـشر»
وعــاد للـصّمت .. ، يُـصغي في كآبتــه ... - كالفيلسوف - إلى الـدنيا ، ويفتكـر ..
وقَهْقَــهَ القــدرُ الجبَّــارُ ، سُــخريةً ... بالكائنــات . تَـضاحَكْ أيُّهــا القــدر !
تمــشي إلى العــدمِ المحتــوم ، باكيــةً ... طوائـفُ الخلـق والأشـكالُ والـصور
وأنــتَ فــوقَ الأسـى والمـوتُ ، مبتـسمٌ ... ترنــو إلى الكــون ، يُبْنَــى ، ثــمَّ ينـدثر

الدنيا الميتة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 10/ 8/ 1934، وفيها هجاء للناس الفاقدي الإنسانية والكرامة، كما فيها حكمة.

إني أرى .. ، فــأرى جموعــاً جَمَّــة ... لكنّهـــا تحيـــا بـــلا ألْبـــاب
يــدوي حوالَيْهــا الزمــان ، كــأنما ... يــدوي حـــوالي جنــدل وتــراب
وإذا اســتجابوا للزمــان تنــاكروا ... وتراشــقوا بالــشوك والأحــصاب
وقـضَوْا عـلى روح الأخـوَّة بيـنهم ... جهــلاً وعاشــوا عيـشةَ الأغـراب
فَرِحَـتْ بهـم غـولُ التعاسـة والفنـا ... ومطــامِعُ الــسَّلاَّب والغــلاَّب

لُعَبٌ ، يُحرّكها المطامِعُ ، واللهى وصغائرُ الأحقاد والآراب
وأرى نفوساً ، من دُخان ، جامدٍ مَيْتٍ ، كأشباحٍ ، وراء ضباب
مَوْتَى ، نَسُوا شوقَ الحياة وعزمَها وتحرّكوا كتحرُّك الأنصاب
وخَبابِهِمْ لَهَبُ الوجود ، فما بَقُوا إلاّ كمحترقٍ من الأخشاب
لا قلبَ يقتحمُ الحياةَ ، ولا حِجىً يسمو سُمُوَّ الطائر الجوَّاب
بل في التراب المَيْتِ في حَزْن الثرى تنمو مشاعرُهم مع الأعشاب
وتموت خاملةً ، كزهْرٍ بائس ينمو ويذبُل في ظلام الغاب
أبداً تُحدِّقُ في التراب .. ، ولا تَرَى نورَ السماء .. ، فروحُها كتراب .. !
الشاعر الموهوبُ يُهرِق فنَّه هدراً على الأقدام والأعتاب
ويعيش في كونٍ ، عقيم ، ميِّتٍ قد شيَّدته غباوة الأحقاب
والعالِمُ النَّحرير يُنْفِقُ عُمْرَه في فهم ألفاظٍ ، ودرس كتاب
يحيا على رِممِ القديم المجتوى كالدود في جِمَم الرماد الخابي
والشعب بينهما قطيعٌ ضائع دنياه دنيا مأكل وشراب

* * *

الويل للحسّاس في دنياهم ماذا يلاقي من أسىً وعذاب

فلسفة الثعبان المقدس

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 20/ 9/ 1934، وتمثل القصيدة فلسفة الثعبان المقدس وهي فلسفة القوة المثقفة في كل مكان. وكما تحدث الثعبان في القطعة التالية إلى الشحرور بلغة الفلسفة المتصوفة، حينما حاول أن يزين له الهلاك الذي أوقعه فيه، فسماه «تضحية» وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس ...

كذلك تتحدث اليوم سياسة الغرب إلى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حيثما تحاول أن تسوغ طريقتها في ابتلاعها والعمل لقتل ميزاتها القومية فتسميها : «سياسة الإدماج» وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذي لا معدى عنه لهاته الشعوب إذا أرادت نيل

حقوقها في هذا العالم ، وبلوغ الكمال الإنساني المنشود، ولكن الفناء حقيقة شنيعة، مبغضة، لا ينقص من فظاعتها وكرهها كل ما في التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام.

كــان الربيــعُ الحـيُّ روحــاً ، حالمـاً ... غــضَّ الــشباب ، معطَّــرَ الجلبــاب
يمــشي عــلى الــدنيا ، بفكــرة شــاعرٍ ... ويطوفهــــا ، في موكــــبٍ خـــلاّب
والأفْـــقُ يمـــلأه الحنـــانُ ، كأنـــه ... قلـــبُ الوجـــود المنـــتجِ الوهّـــاب
والكــون مــن طُهْــرِ الحيــاة كــأنما ... هُــوَ معبــدٌ ، والغــابُ كــالمحراب
والــشاعر الــشحرورُ يــرقص ، منــشداً ... للــشمس ، فــوقَ الــوردِ والأعــشاب
شــعْرَ الــسعادة والــسلام ، ونفــسُه ... سَــكْرَى بــسِحْر العــالَمِ الخــلاّب
ورآه ثعبـــــانُ الجبـــــال ، فغمـــــه ... مــا فيــه مــن مَــرَحٍ ، وفَــيْضِ شــباب
وانقــــضَّ ، مُــــضْطَغِناً ، كأنَّــــه ... ســوطُ القــضاء ، ولعنــةُ الأربــابِ
بُغِــتَ الــشقيُّ ، فــصاح في هــول الفــضا ... متلفِّتـــــاً للـــــصائل المُنْتـــــابِ
وتَــدَفَّقَ المــسكينُ يــصرخ ثــائراً : ... «مــاذا جنيــتُ أنــا فحــق عقــابي !»
«لا شيءَ ، إلا أننـــــي متغـــــزلٌ ... بالكائنـــــات ، مغـــرّدٌ في غـــابي»
«ألقــى مــن الــدنيا حنانــاً طــاهراً ... وأبثُهــا نجــوى المحــبِّ الــصابي»
«أيُعَــدُّ هــذا في الوجــود جريمــةً ؟! ... أيــن العدالــةُ يــا رفــاقَ شــبابي؟»
«لا [أيــن؟] ، فالــشرعُ المقــدَّسُ هاهنــا ... رَأْيُ القــويِّ وفكــرةُ الغــلاّب! »
«وســعادةُ الــضعفاءِ جُــرْمٌ ... ، مــا لــه ... عنــد القــويِّ ســوى أشــدّ عقــاب ! »
«ولتــشهد الــدنيا التــي غَنَّيْتُهــا ... حلــمَ الــشباب ، وروعــة الإعجــاب»
«إن الــسلامَ حقيقــةٌ ، مكذوبــةٌ ... والعـــدلَ فلـــسفةُ اللهيـــب الخـــابي»
«لا عــدلَ ، إلا إنْ تعادلــت القُــوَى ... وتَـــصَادَمَ الإرهـــابُ بالإرهـــاب»
فَتَبَـــسَّمَ الثعبـــانُ بـــسمةَ هـــازئٍ ... وأجــاب في سَــمْتٍ ، وفَــرْطِ كِــذابِ :
«يــا أيهــا الغِــرُّ المثرثــر ، إنَّنــي ... أرْثـــي لثـــورة جهلـــك الـــتلاّب»
«والغِــرُّ يعــذره الحكــيمُ إذا طغــى ... جهــلُ الــصِّبا في قلبــه الوثّــاب»

«فاكبحْ عواطفكَ الجوامحَ، إنّها شردتْ بُلبِّكَ، واستمعْ لخطابي»
«إني إلهٌ، طالَما عَبَدَ الورى ظلِّي، وخافوا لعنَتي وعقابي»
«وتقدَّموا لي بالضحايا منهمُ فَرِحين، شأنَ العابد الأوّاب»
«وسعادةُ النفسِ التقيَّة أنها يوماً تكونُ ضحيَّةَ الأرباب»
«فتصير في رُوح الألوهةِ بضعة، قُدُسِيَّةً، خلَصتْ من الأوشاب»
«أفلا يسرُّكَ أنْ تكون ضحيَّتي فتحُلَّ في لحمي وفي أعصابي»
«وتكونَ عزماً في دمي، وتوهُّجاً في ناظرَيَّ، وحِدَّةً في نابي»
«وتذوبَ في رُوحِي التي لا تنتهي وتصيرَ بَعضَ ألوهتي وشبابي..؟»
«إنِّي أردتُ لكَ الخلودَ مؤلّهاً في روحيَ الباقي على الأحقاب..»
«فكِّرْ، لتدركَ ما أريدُ، وإنّه أسمى من العيش القصير النابي»
«فأجابه الشحرورُ، في غُصَص الرَّدى والموتُ يخنقه: «إليكَ جوابي:»
«لا رَأيَ للحقِّ الضعيفِ، ولا صدىً، والرَّأيُ، رأيُ القاهرِ الغلاّب»
«فافعلْ مشيئتكَ التي قد شئتَها وارحمْ جلالَكَ من سماع خطابي..»

* * *

وكذاك تتخذ المظالمُ منطقاً عذباً لتخفي سَوْءَةَ الآراب

قال قلبي للإله

نشرت في مجلة العالم الأدبي التونسية 1933 وهي في الديوان بلا تاريخ، والقصيدة تعبير عن كفاح الشاعر وثورته وتمرده، وقد وقع الشابي تجربته هذه على إيقاع الصور التجسيدية.

في جبال الهموم، أنبتُّ أغصاني فرقَّتْ بين الصخور بجَهْد
وتَغَشَّانِيَ الضبابُ..، فأورقتُ وأزهرتُ للعواصف، وحدي
وتمايلتُ في الظلام، وعطّرتُ فضاء الأسى بأنفاس وردي

وبمجـد الحيـاةِ ، والـشوقِ غَنَّيْـتُ .. ، فلــم تفهــم الأعاصــيرُ قــصدي

ورَمَــتْ للوهـــاد أفنـــانيَ الخُـــضْرَ ، وظلّـــتْ في الـــثَّلج تحفـــر لحـــدي

ومــضت بالــشذى فقلــت: «ســتبني في مــروج الــسماء بــالعِطْر مجْــدي»

وتَغَزَّلـــتُ بـــالربيع ، وبـــالفجر فـــماذا ســـتفعل الـــريح بعـــدي ؟

قصائد غير محددة زمنياً

هذه القصائد لم أتمكن من معرفة تاريخ نظمها ولكنها وجدت منشورة في الجرائد ، ومثبتة في الديوان وفي غيره، وعددها ثنتا عشرة قصيدة.

زئير العاصفة

نشرت أول مرة عام 1927 ولكنها وردت في الديوان بلا تاريخ.

تسائلني : «ما لي سكتُّ ، ولم أهِبْ ... بقومي ، وديجورُ المصائب مظلم»
«وسيل الرزايا جارفٌ ، متدفّعٌ ... غضوبٌ ، ووجه الدهر أربدُ ، أقْتَم؟»

* * *

سكتُّ ، وقد كانت قناتيَ غضَّةً ... تُصيخ إلى همس النسيم ، وتحلُم
وقلتُ ، وقد أصغتْ إلى الريح مرَّةً ... فجاش بها إعصاره المتهزِّم
وقلتُ وقد جاش القريضُ بخاطري ... كما جاش صخَّابُ الأواذيِّ ، أسحم :

* * *

«أرى المجد معصوبَ الجبين مُجَدَّلاً ... على حَسَكِ الآلام ، يغمره الدم»
«وقد كان وضّاح الأسارير ، باسماً ... يهبُّ إلى الجُلَّى ، ولا يتبرَّم»

* * *

«فيا أيها الظلم المصعِّر خدَّه ... رويدك ! إن الدهر يبنى ويهدم»
«سيثأر للعزِّ المحطّم تاجه ... رجالٌ إذا جاش الرَّدى فهُمُ هُمُ»
«رجالٌ يرَوْن الذُّلَّ عاراً وسُبَّةً ... ولا يرهبون الموتَ ، والموتُ مقدم»
«وهل تعتلي إلا نفوسٌ أبيَّةٌ ... تصدِّع أغلالَ الهوانِ ، وتَحطِم»

إياك

إيّاكَ والتَّحديق مِنْ ... خِلَلِ البراقع لِلْحَوَرْ
وتطاول الأعناق نحو ... جمالِ رَبَّات الخَفَرْ
فالحبّ في طغيانه ... كَالسَّيْلِ إمَّا ينهمرْ
فلقد حَسَوْتُ زُعَافَه ... وخَبَرْتُ منه المُسْتَتَرْ

كهرباء الغرام

كَهْرَبَـــاءُ الغـــرام في الأعـــين النُّجْـــلِ ، وتيَّارُهَـــا بـــسلك الجفـــون
يرســـل اللَّحْـــظَ للْقُلـــوب كنـــورٍ فـــإذا مَـــسّها فَنَـــارُ المنـــون
فـــإذا مـــا انجـــلى نقـــابُ الأمـــاني صـــار صَـــبًّا ، مُـــدَلَّها ، ذا فتـــون
يقـــرع الـــسِّنّ حُرْقَـــة وابتهـــالاً ويـــصير الحبـــورُ ليـــلَ شـــجون

صيحة الحب

نـــسمة هَبَّـــتْ عـــلى ضـــوء القمـــر نَفَخَـــتْ في نـــايِ أحـــزان الخَلَـــدْ
ضـــاق صـــدري ، مـــن جرَاهـــا ، واســـتعرْ وأراق الوجـــدَ آســـاد الجلـــدْ
كيـــف لي بالـــصبر ، والـــصّبْرُ انـــدثرْ تحـــت أقـــدام الجَـــوَى ، لَمّـــا اتَّقَـــدْ
كيـــف لي ... ؟ والحـــبّ لا يبقـــي عـــلى جَلَـــدِ القلـــب ، بأشـــواق الهيـــامْ
كيـــف لي ... ؟ والحـــبّ قـــد زاد إلى صَـــعقَات الحـــزن أنّـــاتِ الـــسَّقَام

* * *

آهِ ! كـــم تُلْحِـــدُ أوهـــامُ الـــصّبا في قبـــور الحـــبّ ، مـــن قلـــبِ بَـــشِرْ
آهِ ! كـــم تُبكـــي أفـــانينُ الرّبَـــى كـــلّ صـــبّ بابتـــسامات الزّهَـــرْ
آه ! كـــم تخـــدع ألحـــاظُ الظِّبَـــا كـــلّ صـــبّ ، بـــسوادٍ وحَـــوَرْ
آهِ ! أوّاهُ ! وهـــــل تنفعنـــــي إنَّـــما «آه» كَرَنَّـــــاتِ الـــــصَّدَى
يَـــا فتـــاتي ! هـــل تُلبِّـــي دعـــوةً صـــعدتْ مِـــن غَـــوْرِ أعـــماق الفـــؤاد ؟
رفرفـــت والحـــبّ ، وَهْنـــا ، خلـــسة مـــن عيـــون الـــدّهرِ ، في ليـــل الحِـــدَادْ
ســـكبتْهَا الـــرّوحُ ، لـــيلاً ، نَغْمَـــة في جـــلالِ الكـــون، في صـــمت العبـــادْ
بحيـــاة الحـــبّ ، لَبِّـــي دعـــوتي وابعثـــي روحـــك للـــرّوح الحـــزينْ
لا تخـــافي ، فالـــدّجَى يرجـــو التـــي جرّعَتْـــهُ الحـــبْ في كـــأس الـــسكون
يـــا عـــروسَ الحـــبِّ ، هَيّـــا واخلعـــي مـــن جفـــوني الـــدَّامِيات الأرقـــا
واذكـــري أصـــوات قلبـــي ، واســـمِعي مهجتـــي الظميـــاءَ أنغـــامَ اللِّقَـــا

أَوْدعيني في عذابي، واسرعي — واحذري أن تسمعي صوت الشَّقَا
يا فتاتي ذكّرِي اللَّيْل بما — نَفَثَتْهُ الرّوحُ في صدر الظَّلامْ
واسألي أملاكَ حُبِّي في السما — عن خشوعي، وابتسامي للسَّقَامْ
كَم سمعتُ اللَّيْلَ يمشي هَامِساً — في خشوع الكون أَنَّاتِ الشُّعُورْ
وهدوءُ اللَّيل يسعى حَارِساً — لِملاكِ الحُبّ، في صدر الأثيرْ
وفؤادي إذْ تولاّه الأسَى — يقتفي الآثار في ظلّ الصدورْ
كم سَمِعْتُ اللَّيل، واللَّيل اختفى — في ضباب الفجر، كالطير الأصَمْ
يسكب الحُبّ بِألحان الوفا — باكياً بالدمع، مِنْ جفن الألمْ

وعود الغواني

عَلَّلَتْنِي بارتشاف الضَّرَبِ — مِنَ جَنَى ثغرٍ جميل أشْنَبِ
قد تجلَّى طَلْعُهُ مِن ظُلَمٍ — يخلبُ اللَّبّ بنظم الحَبَبِ
فإذا القولُ سرابٌ لامع — وإذا الوعد كَبرْقٍ خُلَّبِ
وإذا المَرْبع قاعٌ صَفْصَف — مقفر، إلاّ بِرَتّ الطَّنَب

ليلة عند الحبيب

أنا مَأسُورٌ لِذاتِ الحُجُبِ — بِنبالٍ صُوّبت عن كَثَبِ
كاعِب، هيفاء، بَضّ، طفلة — دُمْيَة منها جميعُ العَجَبِ
خطرت تمشي بروض زاهر — مِشية الخيل بِوَحْل السَّبسبِ
ورنت نحوي بطرْفٍ فاترٍ — ينفث السِّحر بجفنٍ أهدبِ
ونِبَالِ صَوَّبَتْها، جَمّة — نحو قلبي الهائم المضطربِ
تُرسل اللَّيلَ بفرع فاحِم — ضاع من جَنْحَيْه نشرُ الزونب
لستُ أنسى ليلة حالكة — سُرْبِلَتْ زرقاؤُهَا بالسحب

لَبِسَتْ ثوبَ ظلام دامس وسكونٍ هائلٍ ذي رَهَبِ
ليلةً قد خضتُهَا ، منفرداً في دياجي جوف ذاك الغَيهب
سار بي مُهْريَ فيها عَنَقاً وزماناً سيره ذو خَبَبِ
عَادياً بي ، مُتهِماً ، أو مُنْجداً حاذِفاً نحر الفضا بالحَصَبِ
فَعشوْتُ النّارَ في صدر الحمى وحدها تخفق بين الحُجُبِ
فدخلتُ الحيّ ، والسّترُ الدجى وَوَلجتُ الخِدْرَ واللّيل صبي
ورفعتُ السِّتْرَ ، فافترّ الدّجَى عن جمالٍ ساحرٍ مُحْتَجِبِ
فقضيْنا ليلة ، جادت بها راحةُ الدّهْر ، الضنين القَلِبِ
تحت ظِلّ الحبّ ، والليل الذي ضمَّنا في كَفِّه ، يسخرُ بي
هكذا ... حتّى إذا روّعنا ذَنَبُ الصّبح ، كذنَبِ العقرب
قَبّلتْني ، ولهيبُ الألم المرّ في مَدْمَعِهَا المُنْسَكِبِ
مثل طَلٍّ ، فوق ورد ، ويلتي ! مِنْ جَرَى طلْعةِ ذاك الذّنَبِ
ثمّ قالت : يا حبيبي ! سرْ على كَلاءِ الرّحمان ، في المُنقلب
فَتَوَدّعْنَا ، وكلّ قلبُه في جحيم مؤلم ، ملتهبِ

ليت شعري

مَزّقَتْ ثوبَ سكونِ اللّيل أنّاتُ كَلِيمْ
بين طيّات سِجاف الغاسِقِ ، الدّاجي البهيمْ
حرّكَتْ منّي شعوراً كانَ مِن قبلُ رميمْ
فَتَحَسّسْتُ مكانَ الصوت ، في ذاك الأديمْ
فَإذا بالأرضِ مُلقَى هيكلٌ نِضو كَلُومْ
عَفّرَتهُ التّرْبُ والعَينُ على الخدّ سجومْ
فتأمّلتُ مَليّاً وجهَه تحت الغيومْ
فَإذا المُلْقَى بوادي وطني جِسْمُ العلومْ !

يــــا بنـــي الأوطـــان هُبُّـــوا فلقـــد طـــال الوُجُـــومْ"
وانهـــضوا نهـــضةَ جبّـــا رٍ بعـــــزمٍ مـــستقيمْ
لــــستُ أبغـــي نهـــضة العـــاجِزِ يتلُوهـــا الحُـــسومْ
لَيْـــتَ شـــعري ! هـــل ســحابُ الجهـــل تَـــذْرُوهُ العقـــيمْ ؟
فـــترى الأعـــينُ بَـــدْرَ العلـــم قـــد شَـــقّ الغيـــومْ ؟
لَيْـــتَ شـــعري ! يَـــا بـــلادي هـــل تـــصافيكِ العلـــومْ ؟

في سكون الليل

أيُّهـــا اللّيْـــل الكئيـــبْ !
أيُّهَـــا اللَّيـــل الغريـــبْ !

مِن وراء الهَوْل ، مِن خلف نقاب الظلُماتْ في خلايــاك تــراءت لِيَ أحــزانُ الحَيَــاة
هَــا أنــا أرنــو فألْفِيــكَ كَجَبَّــارٍ حطيــمْ ساكناً ، جَلَّلَكَ الحزنُ ، وأضناك الوُجــومْ
هاجعاً طَافَتْ بِأعْشارِكَ أحلام غِضابْ صامتاً، تصغي لأنّات الأسى، والانتحابْ
رابِضاً كـالهول في إحدى زوايـا الهاويـه ساكباً في راحة الفجـر ، الـدُّموع الداميـه
ضلّ مَنْ سَمَّاكَ ، يا ليلُ بني الحزن ، بهيم إنَّـما أنت بـما تحويـه مـن شَجْوٍ ، رحيـمْ

مـــا الـــذي خلـــف الغيـــومْ ... ؟
مـــا الـــذي خلـــف النجـــومْ ... ؟

ما الذي يَكْتُمُـهُ الـدهر ، ويُخفيـه الغَـدُ ؟ ما الذي يحجبه غـيم الحيـاةِ .. الأرْبَـدُ ؟
مَا الذي خلفك يَا لَيْلُ ! أوَيْلٌ أمْ سلامْ ؟ ما الذي خلفك ؟ يا لَيْلُ ! أنورٌ ؟ أم ظلامْ
هل سيبدو الفجرُ بَسَّاماً ، كَعذراء الخلُـودْ تَالِياً أنشودَةَ الحبّ ، على سمع الوجـودْ ؟
أمْ سيبدو مِـنْ وراء الأفـقِ ، جَبّاراً عنيـدْ يُنْـذِرُ الأيّـام بالـشرّ ، وبـالهول المُريـدْ ؟
هل سيبدو الفجرُ ، يا ليلُ ! إذا جاء الغـدُ وجناحــاه إذا رَفّ اللَّهيــبُ الأسْــودُ ؟

أيُّهَـــا القلـــــبُ الـــــدِّهَاقْ
بـــــشجون لا تطـــــاقْ

أيُّهَا المحزونُ يا شاعر الدهر الكئيب إنَّما أنشودة الدّهر نواح ، ونحيبْ
هَيَّا يا لَيْلُ لِنَسْعَى نحو هاتيك الفلاةْ حيث تقضي بسكون ، زاهرات ناضراتْ
إنّ ما بين أزاهير الفلاة الواجِمَه شاعراً أيْأَسهُ حُزْنُ الحياة السَّاهمه
وعلى التُّرْب ، الذي اخْضلّ بأنداء الغَمَامْ خَطَّ: «دعني في سباتي وعلى الدنيا السَّلامْ»

إلى البلبل

أيُّها البلبل يا شاعر أحلام الربيع
غَنِّني إنّ على صوتك أنداءَ الدموعْ
غَنِّني فهو يريني أملَ القلب الصريعْ
تائهَ الفكر يناجي حيرة الفكر الشريدْ
بخشوع وسكون وحنينْ
يتكلَّمْ
انفُض الطلّ ففي الطلّ حياة حائره
شَرّدَتْها عن فؤاد اللَّيل كفّ جائره
وَتَغَرّدْ إنّ للوردة عيناً فاتره
أغمضتْهَا راحةُ الليل فقد هَبّ الصباح
إنَّما أنتَ حَياة ساحره
ترنَّمْ
رَتِّل التَّغريدَ شعريّاً على سمع الزهورْ
واترك الرقّة تهفو حول أوراد الغديرْ
فعروس النهر قد هَبَّتْ يناغيها الخريرْ
وتَصَبَّتْ نسمةُ الفجر الشعاعَ المستطيرْ
مثل هفَّافِ الغيوم السابحه
في ضحاها

إنّ ألحـــــان الظـــــلام أثـــــرة المكتئبـــــه
تتـــواری بـــسکون خلـــف تلـــك الأسْـــحِبَه
سَـــئِمَ الـــوردُ أنـــين اللَّوعـــة المنتحبـــه
فانـــشد اللَّحـــنَ رخـــياً يطـــربُ الكـــونَ رنيمُـــه
وادفـــن الحـــسرة في اللَّحْـــدِ الرحيـــبْ
ورؤاهـــــــا
فيـــكَ يـــا بلبـــلُ مـــا في الـــشعر مـــن وحـــي تعـــوبْ
فيـــك مـــا في الفجـــر مـــن رقّـــة لآلاء طـــروب
فيـــك مـــا في الكـــون مـــن فـــنْ ومـــن ســـحر خَلُـــوبْ
فيـــك مـــا في الزهـــرة مـــن شـــعر الـــدموع
فيـــك مـــا في الدمعـــة المنحـــدره
مـــن معـــاني
انفُـــث الـــشعرَ ففـــي شـــعركِ روح خالـــده
كلَّـــما هَبَّـــتْ عـــلى تلـــك الزهـــور الراقـــده
أيْقَظْـــت في صـــدرها نـــبضَ الحيـــاة الهاجـــده
فاســـتفاقت تتغنّـــى بأغـــانِ ســـاجيه
وعـــلى أجفانهـــا ســـحر نـــضيرْ
وأمـــانِ
فيـــك يـــا طـــيرُ تَوَجَّـــسْتُ أغاريـــد الحَيـــاه
وتَـــسَمّعْتُ لِـــصَوْتٍ ضَـــلَّ عـــن قلبـــي صـــداه
فغـــدَا ينـــشده ، لكنَّـــه خـــاب وتَـــاه
فتهـــاوى مُـــضْرَمَ الغلَّـــةِ ، مـــشبوباً صـــداه
لأغاريـــد الحَيَـــاة الـــضائعة
ولُغاهـــــا
إنّ في صـــدركَ أوتـــار الـــسماء الـــساجِعه

وبأعماقـــك أحـــلام الحيـــاة الرائعـــه
وبآفاقـــك فجـــراً مـــن حيـــاة راتعـــه
في ريـــاض الظهـــر في تلـــك المغـــاني الخالـــده
وبأجفانـــك أضـــواء عـــذابْ
مِـــنْ سَـــماها

أنـــتَ لحـــن ســـاحر قـــد جـــسّم الـــدهرُ صـــداه
فَغَـــدا يهتـــف صـــدّاحاً بأنغـــام هـــواه
رامِقـــاً في نَـــضْرَةِ الأزهـــار أطيـــافَ مُنَـــاه
ســـاكناً مـــن قلبـــه الطَّـــافح بـــالوحي لُحونـــه
في فـــؤاد الـــوردة المـــستمعه
لرخيمِـــه

مِـــنْ نَـــشيد القلـــب في ظـــلّ الحيَـــاة الـــشاعره
مِـــن دمـــوع الحـــبّ مـــن ســـحر الأمـــاني النـــاضره
مِـــن لظـــى اللَّوعـــة في تلـــك الأغـــاني الحـــائرة
في عيـــون الخُـــرُدِ العـــين ضـــياء ضـــاحكا
صـــاغكَ الـــدهرُ ملاكـــاً ســـاحرا
برنيمـــه

أنـــتَ قلـــبُ الـــشاعِر المـــترع بالحـــبّ النمـــيرْ
ســـاءه موطنُـــه الـــضّنْكُ ومـــأواه الحقـــيرْ
فَهَفَـــا والـــشوقُ يُدْنيـــهِ إلى النـــور النـــضيرْ
ثُـــمَّ أمْـــسَى بـــين أفنـــان الغِيَـــاض العازفـــة
شـــاعِراً ينـــشطر الـــوحيُ الجميـــلْ
مـــن حياتـــه

صَـــوْتُكَ المـــشبوبُ مـــن نـــار الحيـــاة الخالـــده
جائـــشاً بالنَّغمـــة الـــسكرى الطـــروب الـــشارده

يبعـــثُ الآمـــالَ بـــالنفس اليـــؤوس الخامـــده
مـــثلما تنبعـــث البـــسمةُ مـــن جفـــن الحَيَـــاةْ
حيـــنما يـــستيقظ الفجـــر الجميـــلْ
مِـــن سـبـاته

دموع الألم

حـسرات تُهيجهـا الـذكرياتُ ودمـوع تُفيـضها الـشَّهَقَاتُ
وشـجون تثـير في القلـب آلاَ مـاً تغنِّـي بـصوتها الأنَّـات
مَـنْ لقلـبٍ إذا تنهَّـد حُزُنـاً صـدّ عنـه الـشجونُ والغـصّات ؟
مَـنْ لـنفس إذا اسـتحرّ أسـاها جمـدت في علومهـا العـبرات ؟
كُلَّـما مَـضّها الزمـانُ بِـرُزْءٍ عـذّبَتْهَا بـصوتها الـذكريات
مـا أمـضّ الحيـاة إنْ سـاورَتْهَا بـين هُـوّاتٍ يأسـها الحسرات
أمـل ضـائع وقلـب عنيـد مزّقَتْـهُ الخطـوبُ والـصّعَقَات
مـا نـدبتُ الحيـاة إلاّ وسـمعي مِلْـؤُهُ مِـن نـشيجها شـهقاتُ
كلَّـما طافـت الحيـاة حَـوَا لَيّ هَـوَتْ مـن جفونهـا العـبرات
مـا كرهـتُ الحيـاة إلاّ لأنّ النَّـاس في راحـة الـردى حَـصَوات
وهـي جَبَّـارة تـدوسُ بَنِيهَـا وتُغَنِّـي وهُـمْ لَـدَيْهَا رُفـات
غَـيْرَ أنّي رأيتُهـا وهـي تبكـي فأفاقـت بمهجتـي الزفـرات
آلمتنـي شـجونها فتعـذّبتُ وطـارت بغبطتـي الهفَـوات
وشَـجَتْنِي دمُوعُهـا فتألَّمـتُ وغاضـت بمهجتـي البـسمات
عـشتُ في حَوْمَـةِ الـدّهور بـآرا ئـي ومـا تَـسُرّ الحَيَـاة
وغَـداً إنْ قَـضيتُ غـارت شـجوني وطـواني لـدى القبـور الـسُّبات
فَنَـسيتُ الـشقاءَ والـدمعَ واليـأ سَ ونامـت بمهجتـي الحركـات
وقـضى في سـكينتي طـائرُ الحـز ن وأغفـت بـصدره النـدبات

هكــذا يُلْجِـمُ المنــونُ فــؤادي وتَهُـبّ الحقـائقُ الخالــدات

الأديب

إن الأديـب كزهـرة نفّاحـة تعنـو إليهـا الصادحات وتسجد
بـلْ بلبـل مـا بـين أنسام المنـى تلقـاه صـدّاحَ الصدى يتغـرّد
تُشجيه ذكـرى مجـد شعب باذخ مـلأ الفضاء تلهبـاً لا يخمـد
فينـوح منتحبـاً عـلى مـا لم يعـد إلا ادّكـاراً مؤلمـاً يتجـدّد
ويقـوده الوهم الجميـل للجّـة الأحـلام منهـا ينتقـي وينـضد
فيصوغ مـن درر الخيـال قلائـداً منهـا السعادة في الـورى تتخلّـد
وإلى ملـذّات الغـرام ووهمـه تـصبو أمانيـه فـلا يـتردّد
فيبـثّ للطـير المغـرّد سرّه ولـذلك النهـر الـذي لا يهجـد
إن هـزّ بـالكفّ اليراعـة أسلبت دمعـاً هـو السحر الحـلال الأيّـد
أو جـاس أطـراف النجـوم بلمحـة رجعـت وفيهـا خـاطر يتوقّـد
ويطـوف مـا بـين الزهـور كأنّـه ملـك حواليـه الكواعـب تحـشد
وبمرشـف الأزهـار يسقي الـراح مـن أيـدي النسيم فينتـشي ويعربـد
إن رام تقبيـل الثغـور بـدا لـه ثغـر الأقـاح مبلـبلاً يتـودّد
أو رام نجـوى فالبلابـل جمّـة بـين الريـاض مـدى الزمـان تغـرّد
أو شـاقه سحر العيـون فـإنّ في تلـك السهول جئـاذراً لا تُكمـد

أنسيم يهب

قصيد لأبي القاسم الشابي ، رداً عن تهنئة شعرية تلقاها بمناسبة (زفافه) (1931) من أحد أبناء عمومته (الشيخ عامر بن محمد الصالح الشابي).

الحمد لله وحده

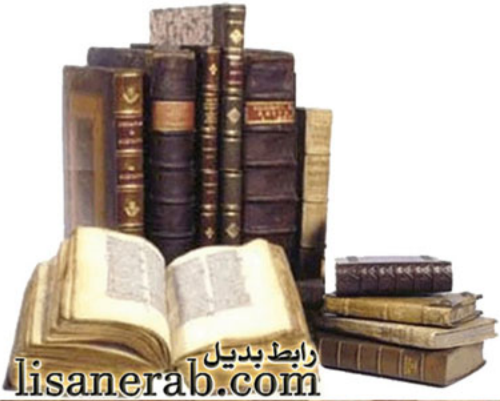
أنسيمٌ يهبّ في الأسحار بين تغريد بلبل وهَزار
أم أناشيد معبد رتَّلتها كالنسيمات غانيات الجواري
أم أريج الزهور أم نغمة الأطيار أم غنَّة النهير الجاري
أم تهانيك صاغها فكرك السامي فكانت خريدة الأشعار
يا سليل العلا، وترب المعالي وسمير العلوم، رب الفخار
أنت مَن تسجدُ البلاغة والمجد على بابه بلا استكبار
تريه العلوم أوجهها الغرّ وتجنيه ما بها من ثمار
إن يكن أسبغ الزمان على فوديك من شيبه جلال الوقار
فبجنبيك لا تزال من الهمّة والمجد جذوة من نار
بسط الله في الحياة إليكم عمراً طيباً بغير تبار
وأراك الله (!) ما شئت في أنجالك الغرّ من علا وفخار
فهم صحبتي وإخوان نفسي في ظلامي وفي بياض نهاري
هاته بنت وقتها فتقبّلْها فما في قبولها من عار
ولتعش في الحياة مغتبط النفس قوي النهي يد الادهار[1]
والسلام عليك من ابن أخيك بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي

---

(1) أي أبداً.

المصادر والمراجع

1. أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، الشركة القومية للتوزيع، تونس 1961.
2. أبو القاسم محمد كرو، كفاح الشابي، دمشق، ط4، 1989.
3. أبو القاسم محمد كرو، دراسات عن الشابي، الدار العربية، ليبيا 1984.
4. أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره، دار مكتبة الحياة، بيروت.
5. أحمد قبش، تاريخ العرب الحديث، دار الجيل بيروت.
6. د. أميل أ. كبا، مداخلة وتحقيق، ديوان أبي القاسم الشابي، مجلد 2، دار الجيل، ط1، 1997.
7. إيليا الحاوي، أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، دار الكتاب اللبناني، 1972.
8. حلمي محمد عبدالهادي، مع الشابي في ديوانه، دار الفكر، ط1، 1987.
9. رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة، المؤسسة العربية بيروت، 1975.
10. ريتا علي، أبو القاسم الشابي، المؤسسة العربية، ط1، 1983.
11. عبداللطيف شرارة، الشابي دراسة تحليلية، دار بيروت، 1973.
12. د. عز الدين إسماعيل، دراسة وتقديم، ديوان أبو القاسم الشابي، دار العودة، بيروت 1972.
13. د. عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1980.
14. مدحت سعد الجبار، الصورة الشعرية عند الشابي، الدار العربية ليبيا، 1984.
15. محمد الأمين الشابي، أغاني الحياة، ديوان أبو القاسم الشابي، دار مصر للطباعة، 1955.
16. محمد عبدالغني المصري، دراسات أدبية في الشعر العربي الحديث، دار الفرقان، 1984.
17. د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة.
18. نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت ط4، 1974.
19. د. يوسف بكار، بناء القصيدة العربية، دار الثقافة، القاهرة، 1979.
20. يوسف عطا الطريفي، شعراء العرب، المغرب والأندلس، دار الأهلية، الأردن 2007.


رابط بديل
lisanerab.com

فهرس

مقدمة 5

القسم الأول: حياة الشاعر

حياة الشاعر 11
مؤثرات في حياته 12
مرض الشابي 14
بيئة الشاعر 19
أثر الأدب المهجري في شعر الشابي 24
الخيال الشعري عند العرب 26
شخصية الشابي 58
فلسفته وشاعريته 64
الشابي وأقرانه من الشعراء 79
بين الشابي وجبران 80
بين الشابي والتجاني 84
الرمز في شعر الشابي 89
خصائصه الفنية 95
التراكيب 99
الأوزان والقوافي في موشحات الشابي 101
نماذج من قصائد الشابي للشرح والتحليل 106
الصباح الجديد 106
الشرح والتحليل 106
التعليق 107
إرادة الحياة 108
الشرح 109
الأفكار في القصيدة 113
نشيد الجبار 114
شرح الأبيات 114
فنون الشابي الشعرية 116
الشابي والشعب 116
المرأة في شعر الشابي 119

دراسات حول الشابي 124

الشابي وتجربة «الفجر البعيد» للأستاذ الشاذلي القليبي 124

ميلاد الشابي للأستاذ أبو القاسم محمد كرو 125

كيف ندرس الشابي للدكتور محمد فريد غازي 125

الشعب في شعر الشابي للأستاذ محمد العروسي المطوي 126

الشابي وجبران للأستاذ خليفة محمد التليسي 127

محاولة جعل إطار لترجمة الشابي للأستاذ عامر غديرة 128

أبو القاسم الشابي للأستاذ محمد بدرة 128

في ذكرى ميلاد الشابي للأستاذ الهادي العبيدي 129

الشابي وهذه الحياة للدكتور عبدالله شريط 130

نفس الشابي للأستاذ عبدالخالق البشروش 130

حياة أبي القاسم الشابي بقلم الأستاذ إبراهيم أبو رقعة 131

أبو القاسم كما يجب أن يقال عنه في حياته وبعد موته للأستاذ البشير الفورتي 132

ما يجب نحو الشابي: بقلم الأستاذ أبو القاسم محمد كرو 133

أبو القاسم الشابي بقلم الأستاذ محمد مزالي 134

الغربة في أدب الشابي بقلم الأستاذ أحمد خالد 135

الشابي ناقداً ومنظراً بقلم الأستاذ خليفة محمد التليسي 136

الشابي يقظة إحساس قومية بقلم الأستاذ أبو زيان السعدي 137

من مصادر الشابي ومراجعه، إعداد الأستاذ أبو القاسم محمد كرو 138

الشابي: روح ثائرة، بقلم الدكتور محمد مندور 139

التقرير والإيحاء في شعر الشابي، بقلم الدكتور مصطفى بدوي 140

أبو القاسم الشابي: نظرة في شعره عامة، بقلم الأستاذ حسن محمد محمود 141

فن الشابي، بقلم الأستاذ نظمي خليل 142

بين الشابي التجاني، للدكتور عبدالمجيد عابدين 143

الخيال الشعري عند العرب لأبي القاسم الشابي للدكتور شوقي أبو شقرا 143

أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي، للباحثة سلمى الخضراء الجيوسي 144

لحظة الإبداع عند الشابي، بقلم الدكتور إحسان عباس 145

الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي، للأستاذ إيليا الحاوي .. 146

آثار الشابي 147

القسم الثاني: قصائد الشابي وروائعه

قصائد عام 1923 151

الغزال الفاتن 153

قصائد عام 1924 155
أيها الحب 157
خله للموت 158
قصائد عام 1925 159
النجوى 161
تونس الجميلة 162
شعري 163
الصيحة 164
في الظلام 165
جمال الحياة 166
من حديث الشيوخ 167
نظرة في الحياة 167
الحياة 169
قصائد عام 1926 171
أنشودة الرعد 173
غرفة من يم 174
مأتم الحب 175
الكآبة المجهولة 176
شكوى اليتيم 178
الزنبقة الذاوية 179
قصائد عام 1927 181
يا شعر 183
إلى الطاغية 189
السآمة (الملل الأليم) 190
أغنية الأحزان 190
الدموع 193
أيها الليل 194
المجد 197
الحب 197
جدول الحب بين الأمس واليو 198
سر مع الدهر 202
الذكرى 202
قصائد عام 1928 205
الطفولة 207

قالت الأيام 207

المساء الحزين 208

بقايا الخريف 210

أغنية الشاعر 212

في فجاج الآلام 212

مناجاة عصفور 215

يا رفيقي 217

إلى الموت 219

إلى عازف أعمى 220

صوت تائه 221

قبضة من ضباب 222

في ظلال الغاب (نشيد الأسى) 222

قلت للشعر (مناجاة) 225

قصائد عام 1929 227

يا ابن أمي 229

أغاني التائه 229

إلى قلبي التائه 230

أكثرت يا قلبي فماذا تروم؟ 232

يا موت 234

إلى الله 236

قصائد عام 1930 239

النبي المجهول 241

الأبد الصغير 244

صفحة من كتاب الدموع 245

إلى عذارى أفروديت 249

يا حماة الدين 248

شجون 249

الأشواق التائهة 250

قصائد عام 1931 253

أحلام شاعر (أمل الشاعر) 255

قيود الأحلام 255

حيرة (؟) 256

رثاء فجر 257

أبا أبكيك للحب 258
أبناء الشيطان 259
صلوات في هيكل الحب 260
أراك 263
فكرة الفنان 264
سر النهوض 266
قلب الأم 266
قصائد عام 1932 271
حديث المقبرة 273
في ظل وادي الموت 277
الساحرة 278
قصائد عام 1933 281
الجنة الضائعة 283
السعادة 286
من أغاني الحياة 287
أيتها الحالمة بين العواصف 289
للتاريخ 289
صوت من السماء 290
ذكرى صباح 290
الرواية الغريبة 292
الصباح الجديد 292
ألحاني السكرى 294
إرادة الحياة 296
تحت الغصون 299
إلى الشعب 302
الناس 305
متاعب العظمة 305
نشيد الجبار (هكذا غنى بروميثيوس) 305
زوبعة في الظلام 307
قصائد عام 1934 309
الإيمان بالحياة (الاعتراف) 311
قلب الشاعر 311
إلى طغاة العالم 312

الغاب 313

حرم الأمومة 316

شكوى ضائعة 316

الدنيا الميتة 317

فلسفة الثعبان المقدس 318

قال قلبي للإله 320

قصائد غير محددة زمنياً 323

زئير العاصفة 325

إياك 325

كهرباء الغرام 326

صيحة الحب 326

وعود الغواني 327

ليلة عند الحبيب 327

ليت شعري 328

في سكون الليل 329

إلى البلبل 330

دموع الألم 333

الأديب 334

أنسيم يهب 334

المصادر والمراجع 337

الفهرس 339

أبو القاسم الشابّي

حياته وشعره



شاعر الحب والحياة، شاعر الحب والثورة، شاعر الحياة والموت، شاعر التجديد في عصره، شاعر الطبيعة، وكاتب الخيال الشعري عند العرب.

وُلد عام 1909 ورحل مريضاً بالقلب عام 1934، أتم حفظ القرآن الكريم كاملاً في التاسعة من عمره، وتعلم أصول العربية في الحادية عشرة، ودخل كلية الزيتونة في بداية الثانية عشرة فنال شهادة «التطويع» ونظم باكورة قصائده وهو ابن الرابعة عشرة.

قرأ أمهات الكتب العربية، وبعض الترجمات الأجنبية يافعاً، فتغنى مع الأطيار، ناجى النجوم، وطرب لخرير الماء، وحنا على الورود والأزهار ورافق حفيف الأغصان، وراقب نسيم الغاب، فأخرج أروع النظم، وأجمل القصائد في وصف الطبيعة وسحر الوجود وأحب الحياة، وخص الوطن بشعره وقال: «إرادة الحياة»، فكان لحناً فريداً وأغنية عاصفة ثائرة ترددها الأجيال.

قاد حركة طلاب الزيتونة التي كانت تهدف إلى إصلاح المناهج التعليمية، وله الفضل في تأسيس جمعية الشبان المسلمين في تونس، وساهم في تأسيس النادي الأدبي في العاصمة ونادي الطلاب بتوزر.

وقد تميز رغم قصر حياته بما تركه من شعر خالد ونثر متلألئ، داعياً في أعماله إلى الإصلاح والتجاوز نحو فجر الحرية والكرامة والاستقلال للبشرية.

ISBN 978-6589-07-997-8

9 786589 079972

الأهلية للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان/ وسط البلد
بجانب مطعم القدس/ ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ٢٠٠٩م
◆ الغلاف: علي الحسيني